بيان

النَّظْم في القرآن الكريم

الربع الرابع من سورة غافر حتى سورة الناس

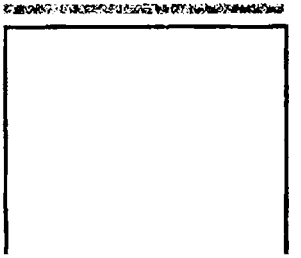


محمد فاروق الزين



بيان

النظم في القرآن الكريم



الرقم الاصطلاحي: ٢٢٤٨٤,٠١١
الرقم الدولي : ISBN:1-59239-243-1
الرقم الموضوعي: ٢١٠
الموضوع: دراسات إسلامية
العنوان: بيان النظم في القرآن الكريم
التأليف: المهندس محمد فاروق فارس الزين
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية-دمشق
عدد الصفحات: ٣٨٤ص
قياس الصفحة: ١٧×٢٥ سم
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة
جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من المؤلف
الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م
توزيع دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية
فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ * فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[الحجر ١٥/٩٠-٩٣]

المحتويات

السورة	رقمها	الصفحة
غافر	٤٠	١٧
فُصّلت	٤١	٣٠
الشورى	٤٢	٤٠
الزخرف	٤٣	٥١
الدخان	٤٤	٦٤
الجاثية	٤٥	٧١
الأحقاف	٤٦	٧٩
محمد	٤٧	٨٧
الفتح	٤٨	٩٦
الحجرات	٤٩	١٠٥
ق	٥٠	١٠٩
الذاريات	٥١	١١٤
الطور	٥٢	١٢٠
النجم	٥٣	١٢٦
القمر	٥٤	١٣٥
الرحمن	٥٥	١٤٣
الواقعة	٥٦	١٥٠
الحديد	٥٧	١٥٨
المجادلة	٥٨	١٦٨
الحشر	٥٩	١٧٤
الممتحنة	٦٠	١٨٢
الصف	٦١	١٨٧
الجمعة	٦٢	١٩٢
المنافقون	٦٣	١٩٦
التغابن	٦٤	٢٠٠
الطلاق	٦٥	٢٠٤
التحريم	٦٦	٢٠٨
المُلك	٦٧	٢١٢
القلم	٦٨	٢١٧
الحاقة	٦٩	٢٢٥
المعارج	٧٠	٢٣٠
نوح	٧١	٢٣٦
الجن	٧٢	٢٤٠
المزّمل	٧٣	٢٤٦
المدّثر	٧٤	٢٥١
القيامة	٧٥	٢٥٨
الإنسان	٧٦	٢٦٣
المُرسَلات	٧٧	٢٦٧
النبأ	٧٨	٢٧٢
النازعات	٧٩	٢٧٧
عَبَسَ	٨٠	٢٨٣
التكوير	٨١	٢٨٧

السورة	رقمها	الصفحة
الانفطار	٨٢	٢٩١
المطففين	٨٣	٢٩٤
الانشقاق	٨٤	٢٩٨
البروج	٨٥	٣٠٢
الطارق	٨٦	٣٠٥
الأعلى	٨٧	٣٠٨
الغاشية	٨٨	٣١٢
الفجر	٨٩	٣١٥
البلد	٩٠	٣١٩
الشمس	٩١	٣٢٢
الليل	٩٢	٣٢٥
الضحى	٩٣	٣٢٨
الشرح	٩٤	٣٣١
التين	٩٥	٣٣٣
العلق	٩٦	٣٣٥
القدر	٩٧	٣٣٩
الملحق أ		٣٨١
الملحق ب		٣٨٣

السورة	رقمها	الصفحة
البيّنة	٩٨	٣٤١
الزلزلة	٩٩	٣٤٤
العاديات	١٠٠	٣٤٦
القارعة	١٠١	٣٤٩
التكاثر	١٠٢	٣٥١
العصر	١٠٣	٣٥٣
الهُمَزة	١٠٤	٣٥٥
الفيل	١٠٥	٣٥٧
قريش	١٠٦	٣٦٠
الماعون	١٠٧	٣٦٢
الكوثر	١٠٨	٣٦٤
الكافرون	١٠٩	٣٦٦
النصر	١١٠	٣٦٨
المَسَد	١١١	٣٧٠
الإخلاص	١١٢	٣٧٣
الفَلَق	١١٣	٣٧٥
الناس	١١٤	٣٧٨

مُقَدِّمَة

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت ٤١/٤٤].

تتسم معظم تفاسير القرآن الكريم بأنها تفسر القرآن آية آية بالتجزئة، كما لو كانت كل آية من الآيات مستقلة بذاتها عما قبلها وعما يليها، دون كثير اهتمام بترابط الآيات بعضها مع بعض، ودون التركيز على النظم القرآني المحكم، لدرجة أن البعض، في تجاهل واضح للنظم، قد يعتقد أن ليس هنالك من علاقة بين ترتيب الآيات وبين معانيها، ولا شك أن هذا الأمر وقف عائقاً بين بعض المستشرقين وبين فهم القرآن حتى أنهم توصّلوا إلى استنتاجات خاطئة من قبيل أن القرآن كتاب غير مفهوم أو غير منتظم أو غير محكم، وأدّى هذا الأمر ببعضهم إلى محاولة إعادة ترتيب القرآن بحسب ترتيب النزول الزمني في مسعى منهم لمحاولة فهمه، وهذه الصعوبة ليست مقتصرة على المستشرقين وحدهم بل تعم الكثير من المسلمين أنفسهم، ناهيك عن حديثي العهد بالإسلام منهم.

والمعروف أن للإعجاز القرآني الكثير من الوجوه اثنان منها على الأقل له علاقة بالنظم، الوجه الأول أن القرآن الكريم نزل على النبي ﷺ على مدى ثلاث وعشرين سنة من البعثة النبوية بحسب الظروف المرحلية للبعثة وطبقاً

لمتطلباتها في كل مرحلة من مراحلها، وكان الوحي يبيّن للنبيّ ﷺ عند نزول كل آية موضعها الصحيح من السورة الخاصة بها، كما كان يبيّن له ترتيب السور على النحو الذي نعرفه اليوم مما لا يطابق الترتيب الزمني للنزول، وبالتأكيد أنّ ذلك لم يكن اعتباطاً، لأن القرآن لم ينزل فقط كي يوافق المتطلبات المرحلية للبعثة النبوية وحدها، وإنما نزل كي يلائم كل العصور والأمم وليس لوقت أو أمة بعينها، ومن هنا نفهم قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ [الإسراء ١٠٦/١٧]، وما يدل أن ترتيب الآيات والسور في المصحف ذو مغزى لا يمكن التغاضي عنه في تفسير القرآن الكريم، وقد أقر غالبية الفقهاء بإعجاز القرآن من هذه الزاوية لكنهم لم يتجاوزوا هذا الإقرار إلى الاستفادة منه في التفسير، بل إن غالبية المفسرين لم يركزوا على هذه النقطة.

فالوجه الثاني من هذا الإعجاز المذهل أن النبي الذي لم يكن يمتلك أي وسيلة من وسائل التحرير والتعديل والتنقيح، ولا أدنى وسيلة من وسائل التقانة المتاحة اليوم في هذا المضمار، وعلى مدى ثلاثة وعشرين عاماً من بعثته، ما يجعل من المستحيل أن يستطيع من تلقاء نفسه ترتيب القرآن على النحو المُحكَم الذي نعرفه، والمُغاير لترتيب النزول الزمني، وبحيث يكون القرآن مناسباً لكل العصور، ممّا يدل على أن ترتيب المصحف الذي نعرفه توقيفي من الله تعالى،

فهنالك إذاً نقطتان لا يمكن التغاضي عنهما: الأولى أن تعريف السورة بهذه الكلمة: (سورة) يعني أنها بمثابة سور يحيط بموضوع معين أو مواضيع مترابطة، وبمعنى أن كل سورة ذات محور يدور حوله موضوعُها أو مواضيعها، ولولا ذلك لما كان هنالك مبرر لتقسيم القرآن إلى سور، ولكان كله سورة واحدة من أوله إلى آخره، ولا بد لكل قارىء للقرآن أن يلاحظ أن لكل سورة قرآنية شخصيتها المختلفة عن الأخرى، وهذا الأمر يبدو شديد الوضوح عندما ينتهي

المرء من قراءة إحدى السور وينتقل إلى الأخرى، ومن هنا يبدو أحد جوانب التحدي القرآني للكفار أن يأتوا بسورة من مثله، والنقطة الثانية أن ترتيب السور التوقيفي يقتضي أن لهذا الترتيب مغزى لطيفاً لا علاقة له بطول السورة أو قصرها، وهو ما اجتهد الكاتب في بيان ارتباط السور المتتالية بعضها ببعض.

وإذا قرأ أحدهم القرآن دون محاولة التركيز على النظم فقد تبدو له الآيات مفككة المعاني، غير أن وضع كل آية في نصابها الصحيح من السورة ودراسة تعلقها بما قبلها وما بعدها يلقي المزيد من الضوء على معناها بما لا يقبل الخطأ.

وليس من شك أن بعض المفسرين فطن لهذا الموضوع، ولكن تصديهم له كان جزئياً كما هي الحال في التفسير الكبير للرازي (المتوفّى ٦٠٤هج/١٢٠٨م) الذي حاول أن يجد العلاقة أحياناً بين بعض الآيات وبعضها الآخر أو العلاقة بين نهاية بعض السور وبداية السورة التي تليها، كما بذل الألوسي (المتوفّى ١٢٧٠هج/١٨٥٤م) في تفسيره (روح المعاني) ذات المحاولة الجزئية، غير أنهما معاً لم يستفيدا من إحكام النظم في تفسيرهما للسور القرآنية كل على حدة، ولا للقرآن بمجمله، وقد وردت هذه المحاولة الجزئية أيضاً في تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا،

وقد لفت الإمام الزركشي (المتوفّى ٧٩٤ هج/١٣٩٢م) في كتابه (البرهان في علوم القرآن) النظر لهذا الموضوع، إذ عرّف النظم بعبارة: "معرفة المناسبات بين الآيات" فكتب: "وهذا النوع من معرفة المناسبات بين الآيات- يهمله بعض المفسّرين أو كثير منهم، وفوائده كثيرة"، وكتب أيضاً: "قال بعض مشايخنا: قد وهمَ من قال لا يُطلب للآي الكريمة مناسبة، لأنها على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً، فالمصحف مرتّبة سوره كلها وآياته بالتوقيف، والذي ينبغي في كل آية أن يُبحث أوّل شيء عن كونها مكمّلة لما قبلها أو مستقلّة، ثم المستقلّة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علمٌ جمّ،

وهكذا في السور يُطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له"، ونقلَ عن الشيخ أبي الحسن الشهرباني قولَه: "أوّل مَن أظهر ببغداد علم المناسبة ولم نكن سمعناه من غيره هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري (المتوفّى ٣٢٤هج/٩٣٦م) وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول إذا قُريء عليه: لِم جُعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يُزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة" انتهى.

وقد بذل محاولة متكاملة في هذا الصدد الإمام برهان الدين إبراهيم ابن عمر البقاعي (المتوفّى ٨٨٥هج/١٤٨٠م) في تفسيره الذي سمّاه: (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) وذكر في مقدمته: "هذا كتاب عُجاب، رفيع الجناب، في فنٍّ ما رأيتُ مَن سبقني إليه" فلم يخلُ من التصنّع والتكلّف،

ومن جهة أخرى لا بد أن يلاحظ المرء أن القرآن الكريم قد لا يستنفد موضوعاً من المواضيع في مكان واحد أو في سورة واحدة، بل يعود إليه في أكثر من سورة بما قد يعطي الانطباع أن هنالك تكراراً في المواضيع، غير أن التمعن في ذلك يبين أن الموضوع يتم بحثه في كل مرة من زاوية مختلفة عن الأخرى أو متممة لها وبما قد يتناسب مع محور السورة موضوع البحث؛ وهو ما يشير إليه القرآن الكريم بتصريف الآيات كما في قوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام ٤٦/٦]، وقوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام ٦٥/٦]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام ١٠٥/٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا﴾ [الإسراء ٤١/١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾ [الإسراء ٨٩/١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ

كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ [الكهف ١٨/٥٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾ [الفرقان ٢٥/٥٠]،

وهنالك أيضاً آيات الأحكام التي لا يسردها القرآن في موقع واحد أو سورة واحدة، بل نرى هذه الآيات متداخلة مع النص القرآني في مواضع مختلفة: فالنصوص القرآنية ليست مجرد أحكام، والقرآن كتاب دعوة للإسلام، وهو أيضاً كتاب دين ودنيا مما يفسر هذا التداخل، فحياة الإنسان وحدة متكاملة لا يمكن فصل النواحي الروحية فيها عن النواحي الحياتية المعيشية،

وتبدو مبالغة بعض المفسرين في الاعتماد على (أسباب النزول) سبباً مهماً، من جملة أسباب أخرى، في تفكيك النص القرآني أو توهم تفككه، والانصراف عن نظمه المحكم وبالتالي عن معانيه، فغالباً ما تعطي أسبابُ النزول الانطباعَ بتفكك النص مع أن واقع السور يشهد بعكس ذلك.

معظم أسباب النزول جُمعت في مؤلَّفين، الأول كتبه أبو الحسن الواحدي النيسابوري (المتوفى ٤٦٧هج/١٠٧٥م)، والثاني كتبه جلال الدين السيوطي (المتوفى ٩١٠ هج/١٥٠٥م) -وهي مدوّنة كملاحظات بأسفل صفحات تفسير الجلالين-، علماً أن بعض هذه الأسباب-القصص- مذكور في كتب السيرة والمغازي ، كما هي مذكورة أيضاً في كتب التفاسير المأثورة، ويعطي الواحدي النيسابوري أسباباً للنزول لبعض الآيات الواردة في ٨٣ سورة من مجموع سور القرآن الكريم ، في حين أن السيوطي يعطي أسباباً للنزول لبعض الآيات في كافة سور القرآن الكريم -عدا الفاتحة-، فالأسباب في مجموعها لا تغطي سوى قسماً قليلاً من القرآن، وقد أُحصيَتْ الآيات التي لها أسباب نزول عند الواحدي النيسابوري فوُجد عددها /٥٩٩/ آية من مجموع آي القرآن الكريم البالغ عددها /٦٢٣٦/ آية أي بنسبة مئوية من المجموع أقل من عشرة بالمئة، ومع ذلك يعتبرها البعض ضرورة لا بد منها لتفسير القرآن!

واليوم يرى بعض العلماء أن أسباب النزول ضعيفة الإسناد في معظمها، وحتى ما كان منها ذو إسناد جيد -وهو أقل القليل- فإن البعض منها قد يناقض بعضها الآخر، وفي الأغلب يجب النظر إلى الأسباب كتطبيقات لما نزل من القرآن الكريم، وليس كأسباب نزول، وفي ذلك كتب الإمام الزركشي في (البرهان، الجزء الأول ص ١٢٦) : "وقد عُرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: "نزلت هذه الآية في كذا فإنه يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب في نزولها".

والنتيجة أنّ أسباب النزول يمكن أن تؤخذ في الاعتبار فقط عندما تشير الآية أو الآيات إلى أحداث تاريخية معينة، انظر الملحق (أ) الذي يبين المناسبات التاريخية لنزول بعض النصوص القرآنية، وفيما عدا ذلك يلزم التمحيص بها والتعامل معها بحذر شديد.

كما يبين الملحق (ب) أسماء الأعلام من مؤرخي السيرة والفقهاء وكُتّاب الحديث والتفاسير وأسباب النزول، وأسماء الخلفاء المعاصرين لهم، لإعطاء فكرة عن بعد الفترة الزمنية -أو قربها- لهؤلاء الأعلام من البعثة النبوية الشريفة بما يتناسب مع العمل الذي كانوا بصدده.

وقد كتب أبو حامد الغزالي في مؤلّفه "إحياء علوم الدين" أن حُجُب فهم القرآن أربعة، أي التي تحجب فهم القرآن الكريم عن قارئه،

أولاً: حين ينصرف همّ القارىء إلى تحقيق الحروف ومخارجها، وهذا يتولّى حفظُه شيطان يصرفه عن معاني كلام الله، فلا يزال يحمله على ترديد الحروف يخيل له أنْ لم تخرج من مخارجها، فيكون تأمّله مقتصراً على مخارج الحروف، فأنّى تنكشف له المعاني؟

ثانياً: حين يكون القارىء مقلّداً لمذهب سمعه بالتقليد وجَمُد عقلُه عليه وتعصّب له،

ثالثاً: حين يكون مصراً على ذنب، أو متّصفاً بكِبَر، أو مبتلىً بهوى في الدنيا،

رابعاً: أن يكون قد قرأ تفسيراً ظاهراً واعتقد أن لا معنى لكلمات القرآن إلاّ ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وأنّ ما وراء ذلك تفسير بالرأي، وأنّ من فسّر القرآن برأيه فقد تبوّأ مقعدَه من النار، فهذا أيضاً من الحُجُب العظيمة،

ومن كل ذلك تنطلق محاولة هذا الكتاب لبيان النظم القرآني وبالتالي المعاني القرآنية، وقد بدأ الكاتب بالربع الأخير من القرآن الكريم، ويتضح الغرض من الكتاب في ثلاث مواضيع:

١- بيان ارتباط السور القرآنية بعضها مع بعض.

٢- بيان موضوع كل سورة أو ما اصطلح على تسميته محور السورة الذي تدور حوله.

٣- بيان النظم في الآيات لكل سورة على حدة.

وفي العصر الحديث، وفي الباكستان بالذات، قام أحد علمائهم وهو مولانا أمين احسان إصلاحي (١٩٠٤-١٩٩٧) بمجهود كبير بهذا الصدد في مؤلفه الضخم المكون من ستة آلاف صفحة والذي سمّاه (تدبُّر القرآن)، غير أنّه كتَبَه بلغة الأوردو، ولم يترجم حتى الآن إلى أية لغة أخرى فلم يصل إلينا.

وقد لفت نظري الأخ الكريم المهندس نزار الكردي، الذي تضاهي معارفُه الفقهية علومَه الهندسية، أنّ كوْن ترتيب السور والآيات القرآنية توقيفي من الله تعالى، أي الترتيب إلزامي غير معلّل، مما يعفي المرء من البحث عن علّة مصطنعة عندما تنتقل السورة من موضوع لآخر قد لا يبدو هنالك رابط بينهما، وهو ما اصطنعه الشيخ برهان الدين البقاعي في كتابه "نظم الدرر" في كثير من

الحالات، وكما هي الحال مثلاً عندما يتم الخلط بين واو العطف و واو الاستئناف بين بعض الآيات كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف ٩٩/١٨]، فالواو في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا﴾ واو الاستئناف وليست واو العطف إذ هي ابتداء لموضوع جديد بعد انتهاء قصة ذي القرنين،

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

شوال ١٤٢٣ هـ- ديسمبر ٢٠٠٢م

محمد فاروق فارس الزين
faruk@zein.org

مراجع الكتاب:

١- رسالة القرآن - محمد أسد.

٢- التفسير الكبير - الرازي.

٣- الكشاف - الزمخشري.

٤- روح المعاني - الألوسي.

٥- جامع أحكام القرآن- القرطبي.

٦- معاني القرآن الكريم - عبد الله يوسف علي.

٧- أنوار التنزيل- البيضاوي.

٨- كيف نتعامل مع القرآن العظيم - الشيخ د. يوسف القرضاوي.

سورة غافر -٤٠-

مكية

هذه أولى سور الحواميم السبعة، أي التي تبدأ بحرفي ﴿حم﴾، وهي: (غافر- فصّلت-الشورى-الزخرف-الدخان-الجاثية-الأحقاف) وقد نزلت جميعاً في النصف الثاني من الفترة المكية، وتفتتح ببيان أصالة القرآن الكريم.

ارتباط السورة بما قبلها

تركيز سورة الزمر المتقدمة على براهين التوحيد ودحض الشرك، وأنّ أحسن الهدي الإسلام لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ [الزمر ٢٣/٣٩]، وأحسن الوحي القرآن: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر ٥٥/٣٩]، وأنّ الله تعالى كرّم العباد في الدنيا بحرية الخيار بلا إكراه، وحسابهم على الله في الآخرة: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر ٤٦/٣٩]، لكنّ الجهلة، الذين لا يميزون الحق من الباطل، مصرّون على اتّباع أوهامهم: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر ٦٤/٣٩]، والتكبّر عن الذكر يورد أصحابه موارد الهلاك: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر ٧٢/٣٩].

ثمّ تبيّن سورة غافر أنّ الكثير من الناس معرضون عن أحسن الهدي مصرّون على الكفر: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر ٤٠/٥]، وأنّ ذلك نابع من استكبارهم وغرورهم واعتقادهم بالاكتفاء بما عندهم من العلوم الدنيوية دونما حاجة إلى وحي إلهي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر ٤٠/٥٦].

محور السورة

محور السورة يدور حول الاستكبار الزائف أو الكِبَر في نفوس المصرّين على الكفر ممّن يظنّون أنفسهم مكتفين ذاتياً بما عندهم من العلم: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ﴾ [٤٠/٤]، فيجادلون الحقّ بالباطل: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [٤٠/٥]، ومن صفات المصرّ على الكفر المتمسّك بالباطل أن يكون -لشدة غروره- متكبراً منكراً للحساب: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [٤٠/٢٧]،

ومن سننه تعالى في خلقه أنّ المتكبر الجبار يجادل بالباطل بلا برهان يقيني فيُطبع على قلبه: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [٤٠/٣٥]، فليس من وجود حقيقي للباطل: ﴿لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ﴾ [٤٠/٤٣]، ولقوله تعالى: ﴿فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ [٤٠/٥٠]، ولأن شعور المُبطِلين بالكِبَر واعتقادهم بالاكتفاء الذاتي بما عندهم من العلم ليسا سوى وهمٍ محض، ومن ثمّ ما هم ببالغي الغاية من غرورهم وأهوائهم، لأنهم في الحقيقة يعبدون أوهامهم

وثرواتهم وسلطانهم الزائف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [٤٠/٥٦].

ومن سننه تعالى أيضاً أنّ الجحود بالآيات يصرف أصحابه عن بلوغ الحقيقة: ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [٤٠/٦٣]، وكذا الجدل بالباطل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ [٤٠/٦٩]، ثم يكتشف المستكبرون ويقرّون، بعد فوات الأوان، أنّ الباطل لم يكن سوى وهم: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ [٤٠/٧٣-٧٤]، بعد أن كانوا يخدعون أنفسهم بإنكار أي حقيقة مهما كانت باهرة إذا كانت تخالف شعورهم بالأهمية وبالكبر: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [٤٠/٨٣]، أي بعد أن كانوا مبتهجين بمعارفهم ومكتفين بذواتهم، وشعورهم بعدم الحاجة إلى الوحي الإلهي حاقت بهم، بعد الفوات، حقيقة الوحدانية والحساب الذي أصرّوا على نكرانه وكانوا يستهزئون به من قبل.

وكما هي العادة في القرآن الكريم تبين السورة هذه النقاط بالإشارة إلى قصص الأقوام والحضارات البائدة،

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

تبدأ السورة بتأكيد أصالة القرآن الكريم: ﴿حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (١-٢)، وهذا التأكيد يتكرر في أوائل سور ال ﴿حم﴾ السبعة من زوايا مختلفة،

وأنه تعالى أنعم على عباده بالعدالة بحيث يؤول مصير الجميع إليه لتحقيقها: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (٣)،

ثم تنتقل السورة إلى موضوعها الرئيسي وهو جدل المصرّين على الكفر، المبتهجين بما عندهم من "العلم"، في حين يبدو لمن يغترّ بالمظاهر أنهم يفعلون ما يشاؤون في الدنيا بلا حساب: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ﴾ (٤)،

وتضرب السورة مثلاً بالمجادلين قبلهم من الأمم البائدة الذين حاولوا دحض الحق بالجدل بالباطل -وهو أمر مستمر إلى اليوم -: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (٥)،

ثم يكون عذاب المكذّبين عاقبة طبيعية لما كانوا عليه في دنياهم من الباطل: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ (٦)،

في مقابل معفرته تعالى للمؤمنين: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٧-٩)،

وأن الله تعالى -كما يفرح بتوبة عباده- فهو يمقت لهم الكفر أكثر من مقت الكفار لأنفسهم يوم يقرّون بالحقيقة ويعاينون العذاب، ويندمون على ما كانوا عليه من ضلال وإصرار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ

أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ * قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (١٠-١١)،

وأن مشكلة أمثالهم تكمن في الشرك وما به من حطّ لكرامة الإنسان وامتهان لعقله الذي كرّمه تعالى به: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ * هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ﴾ (١٢-١٣)،

في حين أنّ الإخلاص لله وحده يعفي الإنسان من عبادة الأوهام، ومن الخيلاء والغرور، ومن الجري وراء أطماع زائلة كالسلطة أو الثروة أو الزعامات: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (١٤)،

وقد أنذرهم تعالى بالوحي وأنه يوم الحساب لا تخفى منهم خافية: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ * يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ * يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (١٥-١٩)،

وأن الأمر كله بيد الله، أما الشركاء المزعومون من أولياء وأضرحة وقديسين وملائكة وزعماء فليس بيدهم شيء البتة: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٢٠)،

وأن العاقل يعتبر بما مضى من تاريخ الأمم وعاقبة الكفار والمستكبرين: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ (٢١)،

وأن إنكار رسالات الرسل أدّى بالمستكبرين إلى سوء العاقبة: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٢٢)،

وتضرب السورة مثلاً بقصة فرعون مع موسى وإنكار فرعون للرسالة وكيده ضد مَن آمن له: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ (٢٣-٢٥)

لكن مكر وتخطيط الكافرين صائر إلى الفشل: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ (٢٥)،

وأن التشنج الفكري والخوف أمام الحقيقة -بالإضافة للتمسك بمطامع الدنيا- أسباب كافية للنكران، عند أصحابها: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ (٢٦)،

وأنّ الكِبَر ليس سوى إنكار لمسؤولية الفرد الأخلاقية أمام حسابه في الآخرة: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (٢٧)،

وأن محاربة حرية الفكر من طبيعة الطغاة: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾، وأن رسالة موسى من الوضوح بحيث يستحيل أن يكون موسى مسرفاً كاذباً: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ (٢٨)،

وأن الغرور بالازدهار الحاضر ليس سوى قصر نظر خادع: ﴿يَاقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ (٢٩) وأن القسر والقهر وادعاء الرُشد والزعم باحتكار الحقيقة من دأب الطغاة: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (٢٩)،

ومع ذلك فمن الواجب إبلاغ المصرّين على الكفر وإنذارهم: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ * وَيَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٣٠-٣٣)،

وأنّ مَن درجوا على تكذيب الرسل في موقع الاستخفاف وخداع النفس، فقد شكّك المصريون ببعثة يوسف إليهم قبل موسى بأربعة قرون: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ (٣٤)،

ثم تعود السورة إلى موضوع الكِبَر الذي هو سمة المجادلين المكتفين بما عندهم من "العلم" ما يغلق عقولهم أمام أي معرفة مخالفة لما اعتادوا عليه: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (٣٥)،

وقد نسب تعالى الطبع على القلوب إلى ذاته العليّة -مع أنه نتيجة ميل الإنسان وخياره- لأن كل شيء يسير وفق سننه تعالى في الكون، وبنتيجة الطبع على القلوب يهيم الطغاة في طغيانهم: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ

كَاذِبًا﴾ (٣٦-٣٧) فيرى الطغاة سوء أعمالهم حسنات، لأن الطغيان أول ما يطغى على عقل صاحبه فيضلّه عن الطريق القويم: ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنْ السَّبِيلِ﴾ (٣٧) ثم يقوده إلى هلاك محتّم: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ﴾ (٣٧)،

غير أنه لا ينبغي للمؤمن أن ييأس من الدعوة إلى الإسلام: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ (٣٨-٤١)،

بالمقارنة مع دعوة الكفار للناس -كما هي حال الكنيسة والمنصّرين اليوم- إلى أوهام لا وجود لها: ﴿تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ * لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (٤٢-٤٦)،

وفي عذاب الآخرة يستوي المستكبرون وأتباعُهم، لأنّ الأتباع -ضعاف العقول- استخفّوا بنعمة العقل فلم يستفيدوا منها في دنياهم: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنْ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ (٤٧-٤٨)،

فلا يفيدهم الندم ولا ما كانوا يدعون من آلهة خيالية وشركاء مزعومين: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنْ الْعَذَابِ *

قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ (٤٩-٥٠)،

والنتيجة أنه تعالى ينصر رسلَه والمؤمنين في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ * يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (٥١-٥٢)،

وفي حين رفض فرعون وقومُه رسالةَ موسى وهديَه فقد حُمِّل بنو إسرائيل عبء الرسالة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ (٥٣)،

غير أن الهدى لايستفيد منه إلاّ ذوو الألباب: ﴿هُدًى وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ (٥٤)،

أما مَن أغلقوا عقولهم وتوارثوا القيم الزائفة عن آبائهم فلا بد من الصبر معهم: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ (٥٥)،

كما لا بد من الصبر مع المجادلين في الوحي بلا برهان يقيني إذ هُم مستكبرون بأوهام لا يمكن بلوغها -موضوع الآيات ٤، ٥، ٣٥-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٥٦)،

وأن خلق الإنسان ليس سوى جزء يسير جداً من خلق الكون الهائل، فمن التفاهة أن يخالط الكِبرُ نفسَ الإنسان أو يظن نفسه محور الكون: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧)،

ومَن عميَ عن الحقيقة ليس كمَن يراها: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥٨)،

بل إنهم لشدة استكبارهم وإنكارهم لمسؤوليتهم الأخلاقية ينكرون إمكانية انتهاء العالم المادي: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٩)،

مع أنّ باب الهدى والتوبة والدعاء الحقّ مفتوح لهم: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (٦٠)،

والآيات ماثلة أمامهم فكيف يُصرفون عنها؟ ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ * ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (٦١-٦٢)،

ويصرّون على خداع أنفسهم: ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٦٣)،

ولا يدركون مغزى الخلق ومعجزاته: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦٤)،

بل يصرّون على الشرك والشركاء الموهومين، رغم البيّنات الداعية للإخلاص: ﴿هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦٥-٦٦)،

ومن هذه البيّنات خلق الإنسان في أطوار ثمّ وفاته: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى﴾ كل ذلك مما يوجب

استخدام العقل على النحو السليم: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٦٧-٦٨)،

لكنهم أصرّوا على تغييب الحقيقة عن ناظرهم رغم بعث الرسل ودلائل القدرة الإلهية والخلق ومعجزات الكون: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ (٦٩)،

ولم يعوا الكتب والوحي والرسل، فإنكار القرآن إنكار لكل ما سبقه من الكتب والوحي: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ (٧٠) ثم يأتي إدراكهم للحقيقة متأخراً وبعد الفوات: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ * ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (٧٠-٧٤) وحينئذٍ يدركون ويقرّون أنّ ما كانوا يعبدون من قوى خيالية وقيم زائفة وسلطة مادية بنتيجة الجري وراء الدنيا لم تكن جميعا سوى وهمٍ محض: ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ (٧٤) غير أن ضلالهم كان بمحض اختيارهم فالله تعالى لم يكن ليحبرهم على الهدى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ (٧٤) بل يستركهم لخيارهم، إذ يخدعون أنفسهم باتّباع الأهواء والحماقات: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ (٧٥)،

ثمّ يحصدون جزاءَ تكبّرهم: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٧٦)،

فما على الرسول إذن، وبالتالي على كل مؤمن، سوى الصبر، فالحياة الدنيا ليست سوى برهة وجيزة أمام الحياة الآخرة حيث تتحقق العدالة على أتم وجه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ (٧٧)،

وأنّ آيات الله من القوة والإعجاز بحيث يستحيل على الرسول -أو مَن قبله من الرسل- أن يأتي بها من عنده: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (٧٨) فمن يحاول إقناع نفسه ببطلان الوحي أو بطلان المسؤولية أو التشكيك بالعدالة يخسر نفسه: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٧٨)،

ثم تختم السورة بالتذكير ببعض نعمه تعالى في الأرض مما يبهر العقول: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ * وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ (٧٩-٨١)،

وتحثّ الإنسان على الاعتبار بمصير الحضارات البائدة التي لم تنفعها قوّتها، بل أضرّت بها نظرتها المادية المحضة للحياة: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٢)،

فعندما استخفّت بالرسل وبالوحي، وداخلها الغرور والكبرياء بانجازاتها (الفكرية والمادية)، حلّت بها في النتيجة عاقبة ما كانت تنكره من الوحدانية والحساب: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٨٣)،

فتنهار الحضارات، وتتفكك المجتمعات، وتحل الكوارث بنتيجة الاسترسال في إنكار القيم الروحية والإعراض عن الوحي الإلهي، وبعد فوات الأوان يتبين للمستكبرين زيف العقائد التي طالما خدعوا أنفسهم بها وظنّهم في مقدرتهم (الفائقة) في السيطرة على مقدّراتهم وعلى الطبيعة وعلى الكون بلا حدود: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤)،

غير أن إيمان أمثالهم المتأخر لا يفيد لسببين:

أولاً أن عقارب الزمن لا تعود إلى الوراء، فلا يمكن تغيير حقيقة ما وقع،

وثانياً أن إيمانهم المفاجيء مصطنع إذ لم يكن نتيجة نمو روحي ناتج من قناعة، ولا بنتيجة خيار حر، وإنما هو إلجاء بنتيجة ما حل بهم من كارثة: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٥) فمن سننه تعالى في الكون أن الإيمان لا قيمة روحية له إن لم يكن ناتجاً عن قناعة داخلية أصيلة في النفس.

سورة فُصِّلَتْ -٤١-

مكية

ارتباط السورة بما قبلها

ركّزت سورة غافر المتقدمة على استكبار المصرّين على الكفر، وزهوّهم وغرورهم بالباطل وبالأوهام وغلبة الهوى عليهم، وشعورهم بالاكتفاء الذاتي بما عندهم من العلم واستغنائهم عن القرآن: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر ٤٠/٨٣]،

ثمّ تبيّن سورة فصّلت أن تصميمَ الكفار على إنكار القرآن سببُه إغلاق عقولهم سلفاً، وعدم إعطاء أنفسهم الفرصة لدراسة القرآن دراسة جدية بلا تحيز فكري مسبق: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت ٤١/٥]، بل تجاوزوا ذلك إلى الصد عنه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت ٤١/٢٦]،

محور السورة

تدور السورة حول أصالة القرآن الكريم من حيث أنه وحي إلهي مفصّل يستفيد منه منفتحو الذهن الذين لديهم استعداد لدراسة القرآن من حيث جدارته: ﴿حم * تَنزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا

لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [٤١/١-٣]، غير أن المصرّين على الكفر يستبعدون سلفاً بمجرد التفكير في دعوة القرآن بل هم عاملون في الصد عنه: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [٤١/٥]، حتى أنهم لا يكتفون بالصد عنه بل يتعمّدون تشويه معانيه والعمل على اللغو فيه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [٤١/٢٦]، غير أنّ جهودهم لتشويه القرآن تذهب سدى، لأن الله تعالى تعهّد بأن لا يأتيه الباطل لا بشكل سافر ولا بشكل خفيّ مدسوس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [٤١/٤١-٤٢] وأن القرآن هدى وشفاء لما في الصدور من الشك والحيرة -لِمَن لديه استعداد لذلك- أمّا المصممون على إغلاق عقولهم سلفاً فلا سبيل للوصول إليهم: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [٤١/٤٤]، فما الذي يمنعهم من دراسة القرآن دراسة جدية، بلا تحيّز مسبق، كي يوقنوا بمصدره الحقيقي، فمَن لا يفعل ذلك لا تُرجى هدايته: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [٤١/٥٢]،

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

تأكيد على أن القرآن وحي إلهي: ﴿حم * تَنزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (١-٢)،

مفصّل بوضوح لمنفتحي الذهن: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٣)،

أما الذين استولت عليهم الغفلة والتشنج الفكري فيفوتهم من ثَمَّ- فهم القرآن: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ (٤)،

بل هم مصممون على سلبيتهم فيصرحون بانغلاق فكرهم سلفاً عن أية مفاهيم جديدة تناقض ما توارثوه وما اعتادوا عليه، ويترجمون ذلك إلى تحدٍّ للرسول وإلى عمل ضد الإسلام: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ (٥)،

وقد أجابهم الرسول أنه بجرّد بشر يبلغهم أمر الوحي بالتوحيد والاستقامة والاستغفار عمّا سلفَ من ذنوبهم، وينذرهم بعاقبة الشرك، وأن الإيمان مرتبط بالزكاة -عمل الخير- وأنّ إنكار أيّ من الإيمان بالله أو الزكاة ليس سوى إنكار للمسؤولية الفردية ومن ثَمَّ فهو إنكار للآخرة وما يترتب على ذلك من عذاب: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٦-٧)،

وبالمقابل لا ينقطع أجر مَن يؤمن ويعمل الخير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (٨)،

وأنّ الكفار عَمون عن خلق السماوات والأرض وما فيهما من إعجاز وقوانين وسنن باهرة، ولا يدركون أنّ مشيئته تعالى فيهما نافذة لا محالة، وهو سبب إصرارهم على الكفر والشرك: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٩-١٢)،

بل إنهم عَمون عن أخذ العبر من مصير الأمم البائدة قبلهم: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلاَئِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنصَرُونَ﴾ (١٣-١٦)،

ومَثَل ثمود التي استحبت العمى على الهدي الإلهي فلاقت عاقبة أمرها: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٧)،

في حين نجا المؤمنون الذي اتقوا العمل السيىء: ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (١٨)،

ويوم الحساب لا يخفى على الله من أعمال المجرمين شيء: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٩-٢٢)،

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء ١٣/١٧-١٤]،

وأنّ من حسن الظن بالله أن يحسنَ المرءُ العمل، ومن سوء الظن بالله أن يتّبعَ الإنسانُ هواه ويتمادى ويسوّف ويتحدّث عن المغفرة فيهلك: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢٣)،

ولا ينفع الندم في الآخرة إذ يطلبون فرصة دنيوية أخرى فلا يستجاب لهم: ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ (٢٤)،

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام ٦/٢٧-٢٨]،

وأنّ قرناء السوء من شياطين الإنس والجن- يزيّنون للمسيئين أعمالَهم ويحضّرنهم على التمتع بمباهج الحياة بما بين أيديهم- مطلقاً بلا قيود ولا رادع أخلاقي، وينفون لهم حقيقة القيامة والحساب بما خلفهم- حتى يكفروا بالآخرة أو يستبعدونها فيصبح لديهم شعور زائف بالأمان يؤدي بهم إلى الخسران: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ (٢٥)،

ونظيرُه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف ٤٣/٣٦]، وقولُه تعالى على لسان الغافل مخاطباً قرينَه في الآخرة: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف ٤٣/٣٨]،

بل هم يجتهدون في الصد عن القرآن بزعم أنه من عند محمد أو أنه مقتبس عن الكتب السابقة أو نتيجة هلوسة، والسبب الحقيقي أنه يهدد نظرتَهم المادية للحياة بما بين أيديهم-: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (٢٦)،

ثم يذوقون عذاب الآخرة بسوء أعمالهم، وأسوأ العمل الصدّ عن القرآن، إذ لا يكتفون بكفرهم بل يجتهدون بنشر الكفر في غيرهم: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٧)،

ويكون خلودهم في العذاب جزاءً وفاقاً لجحود ما أيقنت نفوسُهم أنه حقّ: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (٢٨)،

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل ١٤/٢٧]،

وبعد فوات الأوان يتبرّأ الكفار من قرناء السوء (الآية ٢٥) الذين زيّنوا لهم الدنيا وصدّوهم عن الإيمان بالآخرة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ﴾ (٢٩)،

والذين آمنوا بالله وحده، واستقاموا بعمل الخيرات، ينعمون بالسكينة وأنّ الله تعالى مولاهم في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ (٣٠-٣٢)،

وأمّا دفع شرور الكفار -المشار إليها بالآية ٢٦- فيجب أن يكون بالأحسن وليس بالمثل، والأحسن هو الدعوة إلى الله والقدوة الحسنة بالعمل الصالح: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٣-٣٤)،

ولا يستطيع ذلك إلاّ من يتحلّى بالصبر والحلم وكظم الغيظ عند الغضب، فيكون بسلوكه هذا ذا حظٍّ عظيم عند الله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٣٥)،

ولأنه تعالى وحده العليم بما في صدور الناس ودوافعهم في الصدّ عن القرآن، فلا يستحيينّ المؤمن لنزغ الشيطان في رد السيئة بمثلها، بل يستعيذ بالله منها: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٦)،

وهنا تعود السورة لموضوع الدعوة إلى الإسلام المشار إليها بالآية (٣٣)، وأنّ المستكبرين عن إجابة الدعوة لا يضرّوا الله شيئاً: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ (٣٧-٣٨)،

وأن إحياء موتى القلوب من الكفار بيده تعالى وحده فلا ييأس المؤمن من هدي الآخرين بل يصبر ويدفع بالتي هي أحسن: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٩)،

فالله تعالى أعلم بالكفار الملحدين (الآية ٢٦) الذين يحاولون تشويه معاني القرآن، لكنّ رحمته اقتضت إمهالهم ليوم الحساب لعلّ هنالك مَن يتوب منهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٤٠)،

ثم يحصد المصرّون على الكفر والمصرّون على الصدّ عن القرآن سوء عملهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ (٤١)،

وأن جهودهم في اللغو بالقرآن (الآية ٢٦) كما يفعل كثير من المستشرقين اليوم، باطلة، ولن تبلغ غايتها، لأنه تعالى حَفِظَ القرآن من التحريف والتغيير والتبديل، فيستحيل أن يأتيه الباطل لا بشكل خفي ولا بشكل مكشوف: ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (٤٢) وقالوا

أنّ هذه الآية حجّة على مدّعي النسخ في القرآن الكريم، لأنّ النسخ إبطال، والآية تنصّ أن لا يأتيه الباطل.

وقد زعم الكفار في الماضي، كما في الحاضر، أن القرآن من عند محمد ﷺ فأغلقوا عقولهم عنه (الآية ٥) والأمر ليس بجديد، فإنكار الوحي الذي نزل على الرسل تكرّر على لسان الكفار في الماضي: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٤٣)، والله تعالى يغفر للتائبين، ويلاقي المصرّون عاقبة كفرهم.

في حين أنّ القرآن شفاء من الشك والحيرة للمؤمنين ذوي الذهن المنفتح، وفي نفس الوقت هو عمىً على المصرين على عدم السماع (الآيات ٥ و ٢٦) إذ لا يتيحون لأنفسهم فرصة لفهمه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٤٤) والقرآن نزل بلسانٍ عربيٍّ مبين لأن الله تعالى اختار العرب لحمل الرسالة للعالم أجمع فوجب أن يكون القرآن بلغتهم،

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم ١٤/٤].

وأن الاختلاف في الرأي والمعتقد مقصود في الخلق وليس مصادفة، إذ كرّم الله تعالى بني آدم بحرية الخيار لكي يستفيدوا -من تلقاء أنفسهم- من عقولهم ومن الوحي الذي نزل على الأنبياء، فليس من الضرورة أن يُعاجَل الكفار بالعقوبة في الدنيا: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ (٤٥)،

ولذا بإمكان الإنسان أن يعمل صالحاً لنفسه- أو سيئاً فيعود الضرر عليه، وقد تتحقق العدالة في الدنيا، أما في الآخرة فهي تتحقق على أتم وجه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٤٦)،

وأما علم الساعة والغيب فعنده تعالى وحده ما ينفي ادعاء المدّعين بحسابها معتمدين على شركاء موهومين: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ (٤٧)،

ثم يقرّون يوم القيامة أن ما كانوا يدعون في الدنيا لم يكن سوى أوهام ومصالحَ دنيوية: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ (٤٨)،

ومِن الناس مَن يكْثِر الدعاء لنفسه بالخير فإذا لحقت به أقل مصيبة وقع في حالة من اليأس والقنوط الروحي: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ (٤٩)،

ثمّ يظن أن ما يحصل عليه من نِعم -بعد الشِدّة- إنما استحقه بمجهوده الصرف لا غير، فتغلب عليه عقليته المادية حتى يشكك بوقوع الساعة والحساب، ولشدة غروره يزيّن لنفسه أنها لو وقعت يضمَن أنّ مآله سيكون حسناً: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (٥٠) فيذوق الكفار العذاب بنتيجة حالة العمى الروحي التي كانوا عليها في دنياهم لقوله: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء ١٧/٧٢]

فمَن أعمته المادة يتكبّر ويعرض عن الله في حال إقبال الدنيا عليه، ثمّ يدعوه في حال إدبارها: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ (٥١)،

وهنا تعود السورة للنقطة التي بدأت منها (بالآية ٢) فتخاطب السورة الذين يتخبطون في الشك بين الحق والباطل، وبين مادية الدنيا وحتمية الآخرة، أن ينفوا الشكوك ويؤمنوا بالقرآن: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (٥٢)،

وتختم السورة بالعودة إلى موضوع (الآيات ٥و٢٦و٤٤) فتحضّ المنكرين على التفكير في كون القرآن منزلاً قبل وقوع العاقبة المترتبة على تشنجهم الفكري، وأنه تعالى سوف يريهم الآيات في أنفسهم وفي الآفاق من خلال تعميق إدراكهم لمعجزة خلق الكون ومزيد من الفهم للنفس البشرية حتى يتبين لهم وجود الخالق المدبّر: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٥٣).

وفي حين أنهم يشككون في الساعة والحساب فإنّ الله تعالى محيط بهم وبأعمالهم، فلا شيء يذهب سدى: ﴿أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ (٥٤).

سورة الشورى -٤٢-

مكية

اشتق اسم السورة من كلمة (الشورى) المذكورة بالآية (٣٨) بأنها من صفات المجتمع المسلم.

ارتباط السورة بما قبلها

اختتمت سورة فُصّلت المتقدمة بنفي شكوك المشككّين في أصالة القرآن: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت ٤١/٥٢]

ثم تفتتح سورة الشورى بتأكيد نزول الوحي على النبي ﷺ: ﴿حم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الشورى ٤٢/١-٣] وأنه استمرار لما سبق من نزول الوحي على الرسل: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى ٤٢/١٣]،

وكان تركيز سورة فُصّلتْ السابقة أن الكفار أصرّوا على الكفر لأنهم أغلقوا عقولهم سلفاً عن محاولة فهم القرآن أو دراسته دون تحيز ذهني مسبق،

بل هم عاملون في الصدّ عنه: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت ٤١/٦]،

ثم تبين سورة الشورى أن هنالك مغزى من حرية الخيار التي كرّم الله تعالى بها البشر: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى ٤٢/٦]، وأن لو شاء تعالى لجعل الناس كلهم على الإيمان: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى ٤٢/٨]،

محور السورة

تركيز السورة أنّ الوحي الذي نزل على الأنبياء واحد منذ الأزل: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [٤٢/٣]، غير أنّ رسالة الإسلام غير مقتصرة على العرب بل هي عالمية للناس كافة: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [٤٢/٧]،

ومع ذلك فقد كرّمَ اللهُ تعالى الناسَ بحرية الخيار: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [٤٢/٨]، وأنّ الاختلاف بين الناس يحكم به الله يوم القيامة: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [٤٢/١٠]،

وأنّ من أهداف الرسالة الإسلامية تحقيق المودة بين الناس والأقرباء: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [٤٢/٢٣]، وأنّ الشورى من صفات المجتمع المسلم: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [٤٢/٣٨]، ومن صفات هذا المجتمع أنه لا يستكين ولا يخلد إلى الضعف، بل يدفع البغي بلا تجاوز، مع تفضيل العفو والإصلاح: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [٤٢/٣٩-٤٠]، لكن الرسول -

وبالأحرى غيره من البشر- ليس حفيظاً على الناس: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ [٤٨/٤٢].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

تبدأ السورة بالبيان أن الوحي السماوي الذي نزل على النبي استمرار للوحي الذي نزل على مَن قبله من الأنبياء والرسل: ﴿حم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١-٣)،

لأن الله تعالى المتصرّف بشؤون عباده لا يتركهم بلا هداية: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (٤)،

وأن الملائكة تسبح بحمده وتستغفر للإنسان كونه ميالاً للخطأ: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء ٤/٢٨]، فمن صفاته تعالى أنه الغفور الرحيم: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥)،

ومن ثمَّ فإن النبي، ومن باب أولى غيره من الناس، ليس وكيلاً على المصرّين على الكفر أو الشرك، فالله تعالى هو الذي يحفظ عليهم أعمالهم ويحاسبهم عليها: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (٦)،

وأنّ القرآن، بخلاف الرسالات السابقة، نَزَل رسالةً عالمية للبشر كافةً: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (٧)،

ولو شاء تعالى لجعل الناسَ أمةً واحدةً بأن ألجأهم إلى الإسلام طوعاً أو قسراً، ولكنّ حكمته اقتضت تكريم الإنسان بحرية الخيار، فمنهم مَن يختار الهداية ومنهم مَن يظلم نفسه، ثم في النتيجة يلقى كل فرد عاقبة خياره: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ (٨)،

وبإساءة استخدام حرية الخيار اتّخذ الكفارُ والمشركون لأنفسهم أولياءَ وهميين لا يقدرون على شيء: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٩)،

وعلى المؤمنين بعد أن يستنفدوا إمكانات الحوار والإقناع والتفاهم مع الآخرين أن يتركوا الحكم لله يحكم به بينهم يوم القيامة (انظر الآية ١٥): ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (١٠)،

لأن الله تعالى ليس كالأولياء المزعومين، بل مختلف عن كل ما يمكن للإنسان أن يتخيل أو يتصور أو يحدّد أو يقارن، وحتى كيفية وجوده ليست بوسع الفكر البشري: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١١)،

وهو وحده المهيمن على الخلق، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر بحسب المصلحة: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٢)،

وأن النبي ﷺ عَلِم من خلال الوحي ما نزل عليه وعلى الأنبياء قبله من الدين الواحد، غير أنّ استكبار المشركين واعتدادهم بالشركاء المزعومين أدّى بهم إلى التفرّق شِيَعاً رغم أن دعوة الأنبياء واحدة لقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران ١٩/٣]:

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (١٣)، وفي ذلك عودة لموضوع (الآية ٣)،

وأنّ تفرق أتباع الأديان السماوية طوائفَ وشيعاً، كل حزبٍ بما لديهم فرحون، سببه البغي وحب الدنيا والتعصّب للأفكار المتوارثة وعدم الاستفادة من حرية الفكر التي أكرمهم بها تعالى بأن أجّلَ القضاء بينهم إلى يوم الدين، حتى أن الذين توارثوا التوراة والإنجيل بعد موسى وعيسى وصلوا إلى حد التشكيك بالوحي: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ (١٤)، انظر أيضاً آية [المؤمنون ٢٣/٥١-٥٢].

فلذلك لزم الدعوة إلى التوحيد، مع الاستقامة والقدوة الصالحة في العمل، والإيمان بالأنبياء والعدل بين الناس والتسامح، والتأكيد بأن المسؤولية فردية فكل إنسان يحاسب على عمله، واستبعاد التشنج الفكري، والإيمان أن الفصل بين الناس يكون يوم الحساب: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (١٥)،

أما الكفار الذين يحاجّون في رسالات الله بالباطل، أو في صفاته وأسمائه مما هو في علم الغيب، ويجادلون المؤمنين المستجيبين لله ورسوله ليصرفوهم عن سبيل الهدى فإن جهودهم تذهب سدى، وتؤدي بهم إلى أسوأ العواقب: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (١٦)،

لأن الله تعالى أنزل الوحي على الأنبياء والرسل مبيّناً للناس معـايير الصـواب من الخطأ، وموضحاً أسس العدالة، ثم يكون الحساب يوم وقوع الساعة: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (١٧)،

وفي حين يتهكم الكفار باستعجال الساعة كونهـم منكرين لهـا بـلا برهـان يقيني، فإن المؤمنين في رهبة من وقوعها إذ بها تتحقق العدالة والثواب والعقاب: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْـفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُـونَ أَنَّهَـا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ (١٨)،

غير أنه تعـالى يلطـف بعبـاده إذ يمهلهـم ولا يعـاجلهم، ويظهـر منـاقبهم ولا يكشف مثالبهم، وفي الحديث: "يا مَن أظهرَ الجميلَ وستَرَ القبيح"، وهـو يرزق من يشاء بحسب المصلحة فلا ينازعه في ذلك أحد: ﴿اللَّـهُ لَطِيـفٌ بِعِبَـادِهِ يَـرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (١٩)،

ومِن لطفه تعالى بعباده أنه يرزق المؤمن والكافر على السواء بحسب سننه في الكون، ولكن الحياة الدنيا ليست نهاية المطاف فلا تتحقـق العدالـة بالكـامل إلا في الآخرة: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِـرَةِ نَـزِدْ لَـهُ فِـي حَرْثِـهِ وَمَـنْ كَـانَ يُرِيـدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (٢٠)،

ما يؤدي بالكفار إلى الغرور والانهماك في الدنيا والمـادة حتـى تصبـح الماديـة ديناً لهم ومقياساً لم يأذن به الله، في حين اقتضت المشيئة الإلهية أن تكون الحياة الدنيا مرحلة أولى فقط من الحيـاة الكاملـة: ﴿أَمْ لَهُـمْ شُـرَكَاءُ شَـرَعُوا لَهُـمْ مِـنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَـةُ الْفَصْـلِ لَقُضِـيَ بَيْنَهُـمْ وَإِنَّ الظَّـالِمِينَ لَهُـمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢١)،

وعندها تقع بالظالمين عواقب ما كسبوا من السيئات، ويتمتع المؤمنون الـذي عملوا الصالحات بحياة هانئة كنتيجة طبيعية لما كانوا عليه في دنياهم من الهدى:

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (٢٢)،

وأن النبي لا يسأل المؤمنين أجراً على الرسالة سوى تحقق المودة والمحبة بين بعضهم البعض: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (٢٣)،

ومع ذلك فإنّ الكفار في كل زمان يدّعون أنّ النبي افترى الرسالة، فلو كان الأمر كذلك لما أنزل تعالى عليه القرآن المعجز، بل على النقيض من ذلك فإنه ثبّت الإسلام بنزول القرآن منجّماً على لسان نبيّه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٢٤)،

وفيه قبول توبة العباد وإحاطة علمه تعالى بهم: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢٥)،

وفيه من الإعجاز والعبر ما يستحيب له ذوو الفطرة السليمة والعقول النيّرة، في حين ينكره مَن فسدت فطرته وتشنّجَ فكرُه على التقليد المتوارث: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (٢٦)،

وأن العبرة من بسط الرزق في الحياة الدنيا بالقدر المحدد تتضح تماماً في الآخرة عندما يُجمَع الخلائق وتتحقق العدالة على أكمل وجه: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٢٧)،

ومِن الرزق تنزيل الغيث على العباد القانطين: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٢٨)،

وأن آيات الخلق تشير إلى وجود الخالق وإلى وجود مغزى من الحياة ومن ثمّ البعث: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ (٢٩)، انظر آية [الطلاق ٦٥/١٢]، وما بها من إشارة إلى تعدد الخلق في الأكوان،

ومن ذلك أن الإنسان يحصد نتيجة عمله السيىء فيلقاه إنْ في الدنيا أو في الآخرة، وأنه تعالى يعفو عن الكثير من العصاة فلا يعاجلهم: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٣٠)،

وهو محيط بهم لا يفوته منهم شيء: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ (٣١)،

والآيات محيطة بهم من كل جانب ليدّبروا، فهنالك السفن الجارية بفعل الرياح: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾ (٣٢)،

فإذا سكنت الريح ظلّت السفن راكدة بلا حراك: ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣٣)،

وقد يهلكها تعالى بمَن فيها بالريح العاصفة، وبما كسب أهلُها من الذنوب، مع سبق عفوه تعالى عن الكثير من ذنوبهم: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٣٤)،

أما المصرّون منهم فمصيرهم المحتوم إلى العذاب والدمار الروحي، فينطبق عليهم قولُه تعالى: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ (٣٥) أي إنهم يجادلون في مصداقية الوحي أو إمكانية حدوثه مطلقاً أو في الوحدانية والبعث والحساب، ثم يوقنون بعد فوات الأوان أن لا مهرب لهم من الحقيقة.

وأنّ ما اغترّوا به من متاع الدنيا زائل، ويبقى للمؤمنين رضوان الله ونعيمُه دائمين: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٣٦)،

وَهُمْ المؤمنون الذين من صفاتهم اجتناب الكبائر والفواحش، ومن صفاتهم التسامح عند الغضب، وإقامة الصلاة والإنفاق، واعتماد الشورى في شؤونهم، ولا يخلدون ويستكينون إلى الضعف، بل يدفعون البغي عن أنفسهم: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ * وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ (٣٧-٣٩)،

أمّا مَن يتجاوز الحد في ردّ السيئة -البغي- فيكون قد ارتكب سيئةً مثلها ويصبح باغياً بدوره، ولذا لا يحب اللهُ المتجاوزين في الانتقام والعدوان، في حين يُؤجر مَن يعفو ويُصلح: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٠)،

غير أن العفو ليس إلزامياً فهو راجع إلى صاحب الحق، والعفو دليل على السمو الروحي والأخلاقي لصاحبه، أمّا إن اختار الانتصار لنفسه بلا تجاوز فلا إشكال عليه: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٤١)،

ويؤاخذ تعالى الظالمين البُغاة المفسدين في الأرض فيعاقبهم إن في الدنيا أو في الآخرة: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤٢)،

وهنالك الصبر والمغفرة اللتين عن ارتفاع الفرد وسموّه عن نوازع الانتقام: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ (٤٣)،

وأن على الظالمين أن يستجيبوا لله قبل فوات الأوان: ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٤٤)،

والمصرّون منهم يحاولون أن يستخفوا من العذاب المقيم حين يعرضون عليه، في حين يرى المؤمنون تحقق الخسران ليس للظالمين الطغاة فقط وإنما لأتباعهم - أهليهم- أيضاً: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ (٤٥)،

فلا يكون بمقدرة الطغاة نصرة أنفسهم، ناهيك عن نصرة أتباعهم: ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فمن يختار الكفر والطغيان يخليه الله لنفسه فلا يمنحه الهداية: ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٤٦)،

والعاقل يستجيب لربّه قبل الفوات، على النقيض ممّن يظلم نفسه فلا ينفعه في الآخرة إنكار ما قدّمت يداه: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ (٤٧)،

لكن الرسول ليس حفيظاً على المُعرضين الذين جعلوا مادية الدنيا مبلغ همّهم ومبتغاهم، فما على الرسول إلا البلاغ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ (٤٨)،

وأن الإنسان يطغى عند حصول النعم فينسب حصولها إلى مهارته وذكائه، أما إذا أصابه البلاء فيكفر ويشكك بالعدالة الإلهية ناسياً أن كل شيء يسير وفق السنن الإلهية وبعلاقة المسببات بأسبابها وبالتالي ما قدّمت يداه من سوء: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ (٤٨)،

وأن الحكمة الإلهية من وهب ذرية الأناث أوالذكور أو كلاهما للبعض، أو جعل البعض الآخر عقيماً، من أسباب السعادة أو عدمها، خافية على معظم الخلق: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا

وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (٤٩-٥٠)،

ثم تعود السورة لموضوع المُعرضين المشككين بالوحي، المشار لهم بالآية (٤٨)، فتحدد هذه الآية أن الله تعالى يوحي للبشر بثلاث وسائل لا غير: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (٥١)،

وهكذا أوحى تعالى إلى النبي ﷺ عن طريق جبريل، فتختم السورة بالموضوع الذي بدأته (الآيات ٣، ٧، ١٣) أنه تعالى أوحى للرسل من قبل، كما أوحى بالقرآن الكريم إلى النبي فجعله نوراً يهتدي به مَن يشاء الهداية (الآية ٨) إلى صراط الله الذي تصير إليه الأمور في الدنيا والآخرة: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ (٥٢-٥٣).

سورة الزخرف -٤٣-

مكية

ارتباط السورة بما قبلها

هنالك ارتباط واضح بيّن أواخر السورة السابقة في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى ٥٢/٤٢]، وبداية هذه السورة تصف النور أنه كتابٌ عربيٌ مبين تستسيغه العقول: ﴿حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف ١/٤٣-٣].

وبعد أن بينت سورة الشورى المتقدمة عالمية رسالة الإسلام: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى ٧/٤٢]، وحدّدت صفات المجتمع المسلم ومنها الشورى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى ٣٨/٤٢]، ودفع البغي دون تجاوز: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى ٣٩/٤٢]، وأن ما على المسلمين سوى البلاغ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ [الشورى ٤٨/٤٢]،

تنتقل سورة الزخرف لبيان بعض الأسباب التي أدت إلى إعراض المُعرضين عن الرسالة الإسلامية، ومن ذلك الشرك: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ [الزخرف ١٥/٤٣]، والتقليد: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا

عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف ٢٢/٤٣]، وظلم العقل وحب الدنيا وتغليب الهوى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزخرف ٤٠/٤٣]،

محور السورة

إن الله تعالى لم يكن ليترك البشر على جهلهم وشركهم وإسرافهم دون إنزال القرآن عليهم لعلهم يذّكرون ويستخدمون عقولهم بالشكل السوي: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ [٥/٤٣]، ثم يكاد يكون تركيز السورة بكامله على دحض الشرك بكل أشكاله: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ [١٥/٤٣]، وذم التقليد الذي يتمسك به المترفون خوفاً على امتيازاتهم: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [٢٣/٤٣]،

ولولا أن يطغى الناس فيصبحوا أمة واحدة على الكفر لأغدق الله تعالى على عباده من متاع الدنيا ما لا يوصف: ﴿وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [٣٣/٤٣-٣٥]،

ولكنّ الطغاة يستخفّون بعقول أقوامهم: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [٥٤/٤٣]، وأكثر الناس كارهون للحق يفضلون الأهواء عليه: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [٧٨/٤٣]، فما على المؤمنين تجاه ذلك، بعد استنفاد محاولات الحوار والإقناع، سوى الصبر على المصرّين على الكفر والصفح عنهم وترك حسابهم على الله: ﴿وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ * فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [٨٨/٤٣-٨٩].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

تبدأ السورة بالإشارة للكتاب المبين الذي جعله تعالى قرآناً عربياً لعل العرب الذين هم واسطة الوحي، والناس من بعدهم، تُعمل عقولَها في مضمونه: ﴿حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١-٣)،

وأن القرآن الكريم من منبع الوحي وأصله، وأنه عالٍ على الكتب المُنزَلة قبله كونه ناسخاً لها ومهيمناً عليها، انظر آيات [البقرة ١٠٦/٢] و [المائدة ٤٨/٥]، وقيل علوّه في علوّ المنزلة التي يمكن للإنسان أن يصل إليها من خلاله، وهو أيضاً حكيم أي محكم، أو ذو حكمة بالغة: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (٤)،

ولذا فإنه تعالى لم يكن ليدَع الناس يتخبطون في ضلالهم وإسرافهم دون إنزال القرآن عليهم فيدلّهم على الطريق السوي: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ (٥)،

وأن القرآن الكريم لم يكن أول الرسالات السماوية: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ (٦)

إذ طالما بعثَ اللهُ تعالى الرسلَ إلى الناس فكان دأبهم الاستهزاء بهم كما يفعل العابثون في كل وقت بدلاً من التعقل والتفكير بمضون الرسالة: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٧)

فكان أن نَزَل الهلاك بمَن هم أشد بطشاً من المكذّبين المشار لهم بالآية ٥ وكانوا عبرة لمن يعتبر: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٨)

وأنّ أكثر الضالّين مقرّون بأنّ الله خالق الكون، ولكن مشكلتهم تكمن في الشرك، انظر آية [يوسف ١٠٦/١٢]، في حين أنّ إقرارهم بأن الله وحده خالق

الكون إقرارٌ منهم بعجز الشركاء: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (٩)،

والآيات الكونية الدالة على وحدة الخالق لا تُحصى، وهي بادية في انسجام الخلق: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ * وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ (١٠-١٤)،

ومع ذلك فهم مصرّون على الشرك بما فيه من استخفاف بالعقل، فمنهم مَن يدّعي أن المسيح ابن الله: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ (١٥)،

ومنهم مَن يدّعي أنّ الملائكة بنات الله كما فعل مشركو قريش: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ (١٦)،

ومن السخرية أنهم لا يرضون بالبنات لأنفسهم: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (١٧)،

ويزعمون أنّ الإناث خلقت للزينة لا غير، وأنها غير مؤهلة للنقاش: ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ (١٨)،

وزعموا، ظنّاً وتخرّصاً، أنّ الملائكة من جنس الإناث: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ (١٩)

كما زعموا، بلا علم يقيني، أنهم مجبرون غير مخيّرين فيما هم عليه من الضلال: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ (٢٠)،

مع أنّ العقل والنقل معاً يبطلان زعمهم: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ (٢١)،

ولكنّهم عطّلوا عقولَهم وتمسّكوا بتقليد الآباء والأجداد: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٢٢)،

وقد تكرر التقليد والتمسك بالمتوارثات الزائفة، وإضفاء القداسة على فكر الآباء، لدى المجتمعات المترفة خاصةً، لأن من شأن الترف أن يودي بصاحبه إلى الجمود الفكري بنتيجة تجاهل القيم الروحية والأخلاقية خوفاً من التغيير الاجتماعي الذي قد يلغي امتيازاته: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ (٢٣)، راجع آية [هود ١١/١١٦].

وهم مصممّون سلفاً على الرفض وعلى الجمود الفكري قبل النظر في الأفكار الجديدة التي نزل بها الوحي وقبل دراستها من حيث مصداقيتها وجدارتها: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٢٤)، انظر آية [الأنبياء ٢١/٢]،

ومن شأن مثل هذا الجمود الفكري أن يودي بأصحابه إلى الهلاك: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (٢٥)،

وتضرب السورة مثلاً على ذلك بعثة إبراهيم عليه السلام إلى قومه إذ أدرك بفطرته السليمة ضحالة التقليد المتوارث عندما يتعارض مع العقل السليم ومع الوحي الصحيح: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (٢٦)، وقصة بحث إبراهيم عن الحقيقة مذكورة بالتفصيل في آيات: [الأنعام ٦/٧٤-٨٣] و [الأنبياء ٢١/٥١-٦٧].

فكان يقين إبراهيم بالهداية الإلهية نابعاً من فطرته السليمة: ﴿إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ (٢٧)،

ثم جعل تعالى كلمة الإسلام باقية في ذرية إبراهيم لعلهم ينبذون التقليد ويرجّحون العقل: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢٨)،

ولم يكن تعالى ليحاسب الناس على ضلالهم قبل أن يبين لهم الصواب من الخطأ، والخير من الشر، فأنزل القرآن على لسان رسوله محمد ﷺ: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ (٢٩)،

فلما انبهرت به قريش زعمت من إعجازه أنه سحر: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٣٠)،

ولشدة ترفهم زعموا أنّ لو كان هذا القرآن وحياً إلهياً لكان الأحدر به أن ينزل على رجل عظيم من وجهاء مكة أو الطائف، لا على رجل مثل محمد ليس له من الثروة ولا الزعامة في قومه: ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٣١)،

مع أنه تعالى قَسَمَ المعايش بين الناس وجعل من سنن الحياة ونظامها أن يكون كل فرد مسخّر للآخر، فليس أحدٌ مستغنياً عن أحد، فمن باب أولى أن ليس بطاقتهم ولا من اختصاصهم تحديد منصب النبوة، وأن رحمته تعالى التي يختصّ بها بعضَ عباده في الدين خيرٌ من أموال الدنيا الفانية التي يحرص الآخرون على جمعها: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٣٢)، وفي العبارة: ﴿وَرَحْمَةُ رَبِّكَ﴾ التي تكررت مرتين في الآية إشارة لقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء ٢١/١٠٧]، وإشارة للوحي القرآني: ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

[الدخان ٤٤/٦]، وقد وردت عبارة ﴿رحمة﴾ بمعنى الوحي الإلهي في أربع آيات من سورة هود: هود [١١/١٧، ٢٨، ٦٣، ٧٣]،

وأنّ الإنسان خُلقَ ضعيفاً [النساء ٤/٢٨] تُعميه الدنيا والمادة والثراء الفاحش عن الحياة الروحية والأخلاقية فيزداد جشعاً وأنانيةً وقسوةً، ولولا أن يغتر البشر بالدنيا فيصبحوا جميعاً أمة واحدة على الكفر لبسط الله لهم متاع الدنيا وزخرفها: ﴿وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾ (٣٣-٣٤)،

فلا يكون ذلك لهم سوى متاع الحياة الدنيا في حين أنّ حسن الختام في الآخرة يكون للمتقين: ﴿وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٣٥)،

وأن الغفلة عن (ذِكْرِ الرَّحْمَنِ)، أي القرآن، تفتح الأبواب للشيطان ليدخل حياة الإنسان ويتحكم بها، وقالوا أن الله تعالى يعاقب على المعصية بمزيد من اكتساب السيئات: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (٣٦)، وذلك اتصال المعنى مع الآية ٣٣ لأن مَن حصل على الجاه والمال الكثير غفلَ فصار كالأعشى أي الأعمى عن ذكر الله، وقد تحدّث القرآن الكريم عن شياطين الإنس والجن [الأنعام ٦/١١٢].

فالشياطين يصدّون الغافلين عن السبيل الصحيح، في حين يحسب الغافلون أنهم مهتدون: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٣٧)،

ثم يوم الحساب يتمنى الغافل أو الكافر لو كان بينه وبين قرين السوء مسافة بعيدة جداً كبعد المشرقين المتقابلين بعضهما عن بعض: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ (٣٨)،

فماذا يفيد أحدهما الآخر أن يؤول مصيرهما معاً إلى العذاب: ﴿وَلَنْ يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (٣٩)،

وأن مَن أصمّ أذنيه عن سماع الحقيقة وأغلق عينيه عن نورها لا يمكن هديه: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٤٠)،

ومع ذلك كان لا بدّ أن تظهر رسالة الإسلام قبل أو بعد رحيل النبي ﷺ ثم يؤول مصير الجاحدين إلى العذاب: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ (٤١)،

وقد يشاهد النبي تحقق ذلك في حياته، وقد لا يشاهده، وفي جميع الأحوال فإنّ قدرة الله تعالى محيطة بالكفار: ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ (٤٢)،

وذلك مدعاة للصمود تجاه الكفار والتمسّك بالوحي، لأنه يؤدي إلى السلام والرضوان: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٤٣)،

وأن القرآن الكريم ذِكْر أو تذكير للناس بالحقيقة المطلقة وبالميثاق، انظر آية [الأعراف ١٧٢/٧]، وأنهم بعد نزول القرآن صاروا في موقع المسؤولية حيث لا ينفع الادعاء بالجهل: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (٤٤)، انظر أيضاً آية [الأنبياء ١٠/٢١]،

ثم تحضّ السورة النبي -وبالتالي كلّ فرد- على النظر فيما سبق من بعث الرسل وما كان في رسالاتهم من الدعوة للتوحيد ونبذ الشرك: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ (٤٥)،

وتضرب السورة مثلاً ببعثة موسى إلى فرعون، والقصة مثال أيضاً على ما ورد في الآيات (٢٣ و ٣٣-٣٧) أنّ من شأن الترف أن يؤدي بأصحابه إلى

الجمود الفكري خوفاً من التغيير الاجتماعي الذي قد يلغي امتيازاته: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٦)،

فقابل فرعون وقومُه الآياتِ بالاستهزاء والضحك: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ (٤٧)،

وتتالت الآيات وازداد الضغط على آل فرعون لعلهم يرجعون إلى معرفة الله وإلى الفطرة السليمة: ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٤٨)،

حتى أدركوا أنّ هنالك قوة خفيّة، لا يملكون معرفتها، تدعم موسى فنسبوها، لشدة ضلالهم، إلى ما اعتادوا عليه من السحر، وبعد أن تحملوا من العذاب فوق طاقتهم أذعنوا لموسى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ (٤٩)،

وسرعان ما ارتكسوا إلى وثنيتهم لأن قناعتهم الفكرية والروحية برسالة موسى لم تكن جدية: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ (٥٠)،

واستبدت بفرعون رغبتُه المحافظة على ملكه وسلطانه فجعل يستجدي الثقة ممن حوله مشيراً إلى نظام الري الرائع الذي اشتهرت به مصر في عهده: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ (٥١)،

وقارنَ سلطانَه ومركزه مع ضعف موسى ورسالته التي لم تبدُ مقنعةً له: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (٥٢)،

فأين فرعون وكنوزه وترفه من فقر موسى الذي لا يملك شيئاً، وأين الملائكة لتشهد على صدق رسالته: ﴿فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ (٥٣)،

وهكذا كان الاستخفاف بعقول الناس وتفضيل الهوى سبباً للفشل في تقييم الرسالة السماوية من حيث مضمونها وكفاءتها: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٥٤)،

ثم الهلاك نتيجة طبيعية لمن يتحدّى الرسالة السماوية: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥٥)،

فأصبحوا من الماضي المنصرم ومثلاً للمترفين من بعدهم: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ﴾ (٥٦)، انظر الآيات (٢٣-٢٥).

وهنا تعود السورة لمغزى آخر من معاني (الآية ٤٥) فقد ضجّ كفار قريش بأن المسيحية يؤلهون ويعبدون عيسى ابن مريم ومع ذلك فالقرآن يصفهم بأنهم أهل كتاب: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ (٥٧)،

وقالوا، لمجرد الخصومة وقياس الباطل بالباطل، كما ذكر الزمخشري، لماذا لا نعبد الملائكة (الآية ٢٠) ما دام أنّ النصارى يعبدون عيسى، فالملائكة أحقّ أن تُعبد بزعمهم ما دام أن عيسى بشر كما هو مذكور في (الآية ٥٩)، والملائكة فوق جنس البشر: ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٥٨-٥٩)،

ولو شاء تعالى لجعل من الناس ملائكةً يخلفون بعضَهم بعضاً في الأرض، فما هو وجه اعتبار الملائكة فوق جنس البشر وعبادة قريش لها: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلاَئِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ (٦٠)،

وبعد ضرب المثل بموسى وعيسى (الآيات ٤٦-٦٠) تعود السورة لصفة أخرى من صفات القرآن الكريم المشار له في (الآية ٤٤)، وهي أنه دليل على حتمية وقوع الساعة والحساب، وبالتالي يكون الإنسان مسؤولاً يومها تجاه

الخالق وحده فوجب لذلك اتباعه دون غيره: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٦١-٦٢)،

وتلك فحوى رسالة عيسى بالتوحيد ونفيالشرك: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٦٣-٦٤)،

ولكنّ المسيحيين الذين ضلّوا في اتّباعه تفرقوا أحزاباً من بعده بلغ عددها اليوم حوالي /٢١٠٠٠/ طائفة مسيحية مختلفين في حقيقة رسالته، وأكثرهم يؤلهونه: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ (٦٥)،

فماذا ينتظرون، قبل أن تباغتهم الساعة، كي يصححوا مسارهم ويستجيبوا لدعوة الإسلام لهم: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (٦٦)، انظر آية [آل عمران ٦٤/٣]،

فَمَن هم على المسيحية أخلاّء في الدنيا، والأخلاّء جمع خليل، لكنهم في الآخرة يصبحون أعداءً لبعضهم البعض لأنهم أضلّوا بعضهم بعضاً، فالذي ضلّ -من الرعية- يصبح عدواً لمن أضلّه -من الكهنة-، والذي أضلّه -من الكهنة- يعادي الضالين لكونه يحمل أوزار ضلالهم، وهذه الآية عامة بمعنى أن الخلّة في الدنيا إن كانت على المعصية والكفر صارت عداوة يوم القيامة، كما في آية [العنكبوت ٢٥/٢٩]، أمّا المتقون المتحابّون في الله الذين يخالل بعضُهم بعضاً على الإيمان والتقوى والنصح فإن خلّتهم تبقى يوم القيامة: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧)،

فيخاطب تعالى المتقين بقوله: ﴿يَاعِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ * ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٦٨-٧٣)،

وتكون حال المجرمين على النقيض من ذلك: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ (٧٤-٧٦)،

ولشدة يأسهم يتمنون الموت فلا يأتيهم: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ (٧٧)

والسبب أنهم كرهوا الإسلام والقرآن في حياتهم، ورفضوا التوحيد الذي دعاهم إليه عيسى من قبل (الآية ٦٤)، وهنا تعود السورة إلى النقطة التي بدأت منها في (الآية ٥): ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (٧٨)،

وقد أصرّوا على تأليه عيسى وناقضوا ما جاء به القرآن، فهل كانوا يظنون أن بإمكانهم تكييف الحقيقة على هواهم: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ (٧٩)،

ثم تشير السورة من طرف خفي إلى استغراق المسيحية عبر القرون في النقاش حول "طبيعة" عيسى وتأليهه والزعم أنه ابن الله خلافاً للنصرانية الصحيحة: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ (٨٠)،

وأن الرسول ﷺ أول العابدين للرحمن وحده ناقضاً زعمهم أن المسيح إله أو ابن الله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ (٨١) أي أوّل العابدين

للرحمن، إذ في الخطاب محذوف وتقديره: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ -ويستحيل أن يكون ذلك- فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ -للرحمن-).

فتنزّه تعالى عمّا يدّعون له من الذرية: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٨٢)،

وما على المؤمن -بعد استنفاد محاولات الحوار والإقناع معهم- سوى أن يذرهم لحرية خيارهم وما يخوضون فيه من ابتداع نظريات لاهوتية بحسب ما قرروه في مؤتمر نيقية في سنة ٣٢٥م وفي المؤتمرات المسكونية بعده، فيتركهم حتى يحين حسابُهم: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (٨٣)،

فالله تعالى وحده إله السماوات والأرض، بخلاف ما زعموا أنّ المسيح تجسّد في الأرض متقمصاً شخصية إله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ * وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٤-٨٥)،

وأنّ مَن يدّعون فيهم الشفاعة لا يملكون شيئاً، كزعمهم أن المسيح افتدى خطاياهم بالنيابة: ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٨٦)،

وهم مع كل ذلك مقرّون أن الله وحده خالقهم، فمن العجب أن يُصرَفوا إلى الشرك وينكروا القرآن: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٨٧)،

وأن على الرسول -والمؤمنين من بعده- ألا يتحسروا عليهم بل يتركوا المصرّين منهم لشأنهم ويصفحوا عنهم حتى يوم الحساب: ﴿وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ * فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٨٨-٨٩).

سورة الدخان -٤٤-

مكية

هذه السورة الخامسة من سور الحواميم السبعة واشتق اسمها من ورود كلمة الدخان بالآية (١٠) إشارةً لقيام الساعة،

ارتباط السورة بما قبلها

بعد أن بينت سورة الزخرف المتقدمة أن الله تعالى لم يكن ليترك البشر على جهلهم وشركهم وإسرافهم دون إنزال القرآن عليهم لعلهم يهتدوا ويستخدموا عقولهم بالشكل السوي: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ [الزخرف ٤٣/٥]،

تُبيّن سورة الدخان أن للحياة الدنيا مغزى، في حين يظنونها لهواً ولعباً: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان ٤٤/٩]، ويتضح مغزاها من كونها مرحلة أولى لا تكتمل العدالة بها إلاّ بتحقق البعث والحساب في الحياة الآخرة: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان ٤٤/٣٨-٣٩]، مما يضع الإنسان أمام مسؤولياته الأخلاقية: ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ [الدخان ٤٤/٥٩]،

وفي سورة الزخرف قصة موسى مع فرعون [الزخرف ٤٣/٤٦-٥٦]، ثمّ في سورة الدخان بعثة موسى إلى فرعون مع إبراز عِبَر جديدة منها، ثمّ جانباً من بعثته إلى بني إسرائيل [الدخان ٤٤/١٧-٣٧].

محور السورة

بلوغ الوحي الإلهي ذروته بنزول القرآن الكريم: ﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [٤٤/٥]، ومع ذلك فالكثير من الناس بين الشك واليقين: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [٤٤/٩]، فلا يستفيدون من فرصة التوبة: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ [٤٤/١٥]، بل ينكرون الآخرة والمسؤولية الأخلاقية والحساب: ﴿إِنْ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [٤٤/٣٥]، مع أنّ الحياة ذات معنى وهدف رغم جهل الأكثرية بذلك: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [٤٤/٣٨-٣٩]، وقد أنزل تعالى القرآن بلسان النبي ﷺ لعلّ البشر يفقهون الحقيقة قبل فوات الأوان: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ [٤٤/٥٨-٥٩].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

تشير السورة إلى بدء نزول القرآن الكريم في ليلة القدر من رمضان، وختم الرسالات السماوية التي ما فتئت تنزل على البشر منذ بدء الخليقة، تعرِّفهم بوجود الخالق وبمسؤوليتهم الأخلاقية وبيان ما يحتاجونه في دينهم ودنياهم، وتنذرهم من الانغماس في المطامع المادية: ﴿حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ (١-٣)،

وفي ليلة القدر اكتملت الرسالات، وبلغ الوحيُ ذروتَه بنزول القرآن الكريم، فظهرَ الفرق بين الحق والباطل واضحاً ولذا سمّي القرآن فرقاناً: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ (٤)،

أمراً من عند الله بتتابع الرسالات وختمِها بالقرآن: ﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ (٥)

وفي نزول القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب رحمة منه تعالى، العالِم بمصالح عباده والسميع لدعائهم، لا يتركهم في حيرة بين الحق والباطل: ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦)، وشبيه به قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء ٢١/١٠٧]،

وذلك هو الأمر الذي يقطع الشك باليقين: ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ (٧-٨)

لكنهم على النقيض من اليقين يترددون بين الإيمان والكفر، بل هم في شكٍّ من الوحي يصل بهم إلى مستوى اللعب والعبث: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ (٩)

فهل ينتظر العابثون مجيء الساعة والعذاب حتى يوقنوا: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٠-١١)

ويعلنوا إيمانهم بعد الفوات: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ (١٢)

فالإيمان عند المعاينة لا ينفع أصحابه بعد أن كفروا ببعثة النبي محمد ﷺ واتهموه بالجنون: ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ (١٣-١٤)

لكنّ فرصة التوبة متاحة لهم الآن قبل وقوع الساعة وقبل نزول العذاب بهم، ومع ذلك فإنّهم لا يتوبون ولا يعتبرون بل يعودون إلى غيّهم: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ (١٥-١٦)، وكشف العذاب قليلاً أي إنه تعالى يعطيهم الفرصة من حاضرهم حتى وقوع الساعة،

وهنا تضرب السورة مثلاً بعاقبة بعض الأوّلين الذين أصرّوا على تكذيب الأنبياء، كما في بعثة موسى إلى فرعون: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ (١٧)، والفتنة، الاختبار، بمعنى أن فرعون وقومَه لم يستفيدوا من بعث الرسول موسى إليهم.

إذ طلب موسى منهم أن يؤدّوا ما هو واجب عليهم من الإيمان والاستجابة لدعوته، وعلّل ذلك بأنه لهم رسول أمين: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٨)

وحذّرهم من إنكار دعوته بعد أن حشد البراهين على صحتها: ﴿وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (١٩)

وأنه يستعيذ بالله ربّ العالمين من أن يقتلوه أو يرجموه بسفيه الكلام: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ (٢٠)

وفي حال إنكارهم لرسالته طلبَ منهم أن يتركوه وشأنَه يدعو غيرَهم إلى الله، وفي ذلك دعوة ضمنية لاحترام حرية الفكر التي كرم بها تعالى بني آدم: ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ (٢١)

لكنهم على النقيض من اعتزاله همّوا بقتله، انظر آية [غافر ٢٦/٤٠]، فلجأ إلى الله تعالى بالدعاء: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾ (٢٢)

فأمَرَهُ تعالى أن يخرج ببني إسرائيل من مصر ليلاً، وأوحى إليه أن فرعون وجنده سيطاردونه: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ (٢٣)

كما أمَرَهُ أن يترك طريق البحر بينه وبين فرعون وجنده كما كان، يدخلون فيغرقون: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُغْرَقُونَ﴾ (٢٤)

فغرقوا وتركوا وراءهم ما كانوا مخوّلين به من نِعَم كثيرة في الدنيا: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ (٢٥-٢٧)

ووَرِثَ بنو إسرائيل هذه النِعم في فلسطين مؤقتاً: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (٢٨)، إلى أن فشلوا في الاختبار بدورهم، انظر آيات [الأعراف ١٣٧/٧] و [الشعراء ٥٩/٢٦].

والنتيجة أن فرعون وجنده لم يكونوا جديرين أن يُكترث لهلاكهم، إذ فوّتوا على أنفسهم فرصة التوبة، وليس من فرصة بعد الفوات: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ (٢٩)

ونجّى تعالى بني إسرائيل من طغيان فرعون وعذابه واستكباره وإسرافه: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣٠-٣١)

وقد اختار تعالى بني إسرائيل لحمل رسالة التوحيد لكونهم موحّدين غير مشركين في ذلك الزمن، وعلى علمه تعالى المسبق أنهم سيفشلون في الاختبار بعد حين: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٣٢)،

ثمّ ضلّوا واعتبروا أنفسَهم "الشعب المختار" استعلاءً وتفضيلاً لأنفسهم على غيرهم من البشر، ونسوا أن الرسالة السماوية مسؤولية وعبء وليست امتيازاً كما ظنّوا ويظنّون: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُبِينٌ﴾ (٣٣)،

وأعمتهم الحياة الدنيا وماديتُها عن الآخرة، حتى أنكروا البعث والآخرة كما هو واضح من كتبهم "المقدسة" وسلوك رجال الدين منهم وعصبيتهم تجاه الأمم الأخرى: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ * فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٤-٣٦)

ولم يعتبروا بتاريخ مَن قبلهم من الأمم البائدة، وخاصة اليهود منهم، كقوم تُبّع، وهُم ملوك حِميَر الذين كانوا يهوداً وقد ملكوا جنوب شبه الجزيرة العربية لقرون عديدة حتى استولت الحبشة عليهم في العام ٥٢٥ م : ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (٣٧)، انظر الآية [ق ١٤/٥٠].

وفاتهم أن هنالك مغزى من الخلق ومن الحياة الدنيا لا يتم إلاّ بحقيقة الآخرة: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٨-٣٩)

غير أنهم، والجاهلين من أمثالهم، لا يستفيقون من ضلالهم إلا يوم البعث، يوم يُفصل بين العباد فيما كانوا عليه من الخلاف ويظهر الحق واضحاً من الباطل: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٠)

يومئذٍ لا يغني قريبٌ عن قريب ولا صاحبٌ عن صاحب، ولا يستطيعون نصرة بعضهم بعضاً، فلا ينجو إلاّ مَن رحِم الله: ﴿يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلاَّ مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٢)

ويؤول مصير الآثمين إلى عذاب الآخرة: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (٤٣-٤٩) والآية الأخيرة إشارة لأنّ إنكار الآخرة والمسؤولية والحساب ناتج عن التكبّر.

فيومئذٍ فقط يصبح أمثالُهم على يقين مما كانوا فيه من شك بالقيامة والحساب: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ (٥٠)،

أما الذين اتقوا سوء العاقبة، فيؤول مصيرُهم إلى النعيم الخالد: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ * كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ * لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (٥١-٥٦)

بفضله تعالى الذي مَنّ عليهم بالهداية: ﴿فَضْلاً مِّنْ رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٥٧)

ولإيضاح كل ذلك نزل القرآن في الحياة الدنيا لمن تُرجى ذكراه من ذوي العقول السليمة المنفتحة: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥٨)،

أما ذوي العقول المتحجرة من مقلّدي الضلال فالعاقبة الوخيمة ستكون نتيجة طبيعية لما كانوا عليه في دنياهم من العناد والجحود: ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ (٥٩) وفي حين يرتقب المؤمن تحقق العدالة إن في الدنيا أو في الآخرة، فالمشكّكون يرتقبون الفناء والعدم في ظنّهم وأنه ليس من بعث ولا حساب.

سورة الجاثية -٤٥-

مكية

هذه السورة السادسة من سور الحواميم السبع، واشتُقّ اسمُها من كلمة (الجاثية) في الآية (٢٨) وهي تعبير عن حالة الخضوع التام التي يكون عليها البشر يوم البعث والحساب.

ارتباط السورة بما قبلها

سورة الجاثية استمرار لسورة الدخان المتقدمة من حيث التأكيد على هدي القرآن، ومغزى الحياة، وحتمية الآخرة والثواب والعقاب، وهنالك ارتباط واضح بين أواخر سورة الدخان التي تشير للقرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان ٤٤/٥٨]، وبداية سورة الجاثية بأنه تنزيلٌ من العزيز الحكيم: ﴿حم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجاثية ٤٥/١-٢]،

كما نلاحظ في الآيات [٤٥/١٦-١٧] من سورة الجاثية استمراراً لقصة بني إسرائيل التي بدأت في سورة الدخان، مع الإشارة لانتقال النبوة من بني إسحاق لبني إسماعيل: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية ٤٥/١٨]،

محور السورة

آيات الآفاق والخلق تؤكد حقيقة القرآن، ومع ذلك فهنالك مَن يوفك عنه: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ * وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [٤٥/٦-٧]، فالقرآن هدىً، ومَن يصرّ على إنكاره يكون العذاب الأليم الذي يلحق به في الآخرة نتيجة طبيعية لما كان عليه في دنياه من الرجز: ﴿هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [٤٥/١١]،

وقد جعل تعالى النبيَّ ﷺ، وبالتالي كل مسلم، على بيّنةٍ واضحة من أمره فما عليه سوى اتخاذ الخيار الصحيح والحذر من اتّباع مَن يعتبرون الدنيا منتهى أمَلهم: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٤٥/١٨]، الذين غفلوا عن مغزى الحياة: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [٤٥/٢١]، وأنكروا القيامة والحساب: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [٤٥/٣٢]، فمَن يتخذ الخيار الخاطيء يخسر نفسه ويظهر بطلان حساباته يوم تقوم الساعة: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ [٤٥/٢٧].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن الكريم تنزيل من الله العزيز الحكيم: ﴿حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١-٢)

بدليل آيات الخلق في كل شيء التي تشير، لكل عاقل، إلى وجود سلطة خالقة واعية تنزّل الرسالات الروحية على البشر: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٣-٥)

فمعجزة الإتقان في خلق البشر والحيوان والأفلاك يستحيل أن تكون مصادفة، كما يستحيل أن تكون عبثاً بل هنالك مغزى منها وهي دليل على الحق، وقد أشار إليها وبيّنها القرآن، فماذا يريدون أكثر من ذلك كي يؤمنوا: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٦)

لكنّ الذين اعتادوا الكذب على أنفسهم استكبروا وصمّوا آذانهم عن الرسالة، فالاستكبار سبب لانحراف العقول -الإفك-: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٧-٨)، وشبيه بذلك قوله تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات ٥١/٩].

وحتى لو عَلِمَ المستكبر من الآيات ما لا سبيل إلى إنكاره فهو يلجأ إلى الهزء والسخرية تهرباً من الحقيقة وتمسّكاً بالدنيا: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (٩)

ثم يؤول مصير أمثاله إلى جهنم، فلا يفيدهم ما كسبوا في دنياهم من المادة، ولا تنفعهم القيم الزائفة التي اعتقدوها، ولا السلطة التي طالما ركضوا وراءها، ولا الجاه ولا الثروات التي جمعوها، بل على النقيض تكون مصدر عذاب عظيم لهم: ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠) وحتى أعمالهم الحسنة تذهب هباءً، انظر آية [النور ٢٤/٣٩].

فالقرآن هدىً، ومَن يصرّ على إنكاره يكون العذاب الأليم الذي يلحق به في الآخرة نتيجة طبيعية لما كان عليه في دنياه من الرجز: (هَـٰذَا) القرآن ﴿هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ (١١) فتقديـر الخطـاب: لهم عذابٌ أليمٌ مِن رجزٍ، أي بنتيجة الرجز الذي كانوا عليه في دنياهم وبسببه يلحق بهم العذاب، وقالوا أن الرجز هـو الرجس أو النجاسة أي القيم الزائفة التي يعتقدها المرء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر ٧٤/٥]، وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس ١٠/١٠٠] أي الذين لا يستخدمون عقولهم بالطريق السوي يصبحون ضحية للاعتقاد بالقيم الزائفة، ومنه قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة ٩/٢٨]،

وللاستعانة على هجر الرجز يجب التفكر في معجزات الآيات الكونية: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٢-١٣)

أما المصرّون على الكفر وإنكار الآخرة فمن واجب المؤمنين أن يغفروا لهـم، بعد تذكيرهم، ثمّ يتركوا حسابهم على الله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤)

فنتيجة العمل الصالح تعود على صاحبه، تماماً كنتيجة السيّء: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (١٥)

ومثال ذلك أنه تعالى مَنَّ على بني إسرائيل بالرزق المعنوي، ببعث الرسل فيهم، وبالرزق المادي بأن أخرجهم من عبودية فرعون إلى أرض فلسطين، واختارهم في زمنهم لحمل رسالة التوحيد: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٦)

وبيّن لهم أمور العقيدة فاختلفوا فيها وارتكسوا إلى الوثنية في حقب كثيرة من تاريخهم، واعتبروا أنفسهم "الشعب المختار" استعلاءً واستكباراً على غيرهم، فلا يغتر المرء بقوتهم وغناهم اليوم: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٧)

ثم بعث تعالى النبيَّ ﷺ وأوكل إلى المسلمين حمل رسالة التوحيد وجَعَلهم على الطريق الصحيح لإرشاد البشرية بعد ضلال بني إسرائيل وفشلهم في حمل الرسالة، ولذا وجبَ الحذر من اتّباعهم: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨)، وانتقال السورة من بعثة موسى إلى بعثة النبي مباشرةً دون ذكر لبعثة عيسى، لأن بعثة عيسى كما بعثة موسى عليهم السلام كانتا لبني إسرائيل، وفي الآية أيضاً إشارة خفية لانتقال النبوة من بني إسحاق إلى بني إسماعيل.

وفي هذه الآية تهديد لمَن يتّبعهم، وأن الظالمين من أمثالهم ينصرون بعضهم بعضاً كما هي الحال اليوم من نصرة الغرب لهم، في حين ينصر اللهُ تعالى المتقين: ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٩)

وأن القرآن الكريم، في إشارة للآيات (٢-٤)، وعلى النقيض من التوراة التي تلاعبوا بها، يكشف للناس الغرض من الإيمان: ﴿هَذَا﴾ القرآن ﴿بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ كافةً جاهلهم وعالمهم، سوى المستكبرين المشار إليهم بالآية (٨)، وهو بشكل خاص هدى ورحمة لمنفتحي العقل منهم والذين يستطيعون الارتفاع من حضيض الحيوانية إلى قمة الإنسانية: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٢٠)

فلا تستوي حياة المحسنين والمسيئين، لأنّ المحسن يتمتع بالسلام الروحي في حياته وعند مماته، ممّا لا يعرفه المسيء: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ

نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٢١)

وأن العدالة تقتضي أن تكون الحياة الدنيا مرحلة أولى فقط كي تكون ذات معنى، وليست نهاية المطاف: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٢)

غير أنه لا طائل من محاولة هدي من يجري وراء مادية الدنيا وقد جعل الهوى إلهاً، فالله تعالى يخلّيه لنفسه لعلمه أنّه أغلق عقله سلفاً عن التفكّر: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٣)

وأمثاله يزعمون، بلا علم يقيني، أن أمور الكون تسير وفق قوانين عشوائية عمياء بالمصادفة، وأن ليس من خطة إلهية ولا مغزى من الحياة: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ (٢٤)

وإذا سمعوا آيات القرآن البينات لم يفكّروا بمعناها بل يكون جوابهم تحدّياً يليق بسذاجة الأغبياء: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٥)

ومعظم الناس جاهلون أو غافلون عن حقيقة القيامة: ﴿قُلْ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦)

غير أنّ بطلان حساباتهم يظهر لهم جلياً يوم قيام الساعة فتكون النتيجة خسران أنفسهم: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٢٧)

وعندها يكون الناس كافةً في حالة خضوع تام يرون أعمالهم ماثلة أمامهم للجزاء: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٨)

فلا يفوت من أعمالهم شيء: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٩)

ويدخل المحسنون في رحمة الله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ (٣٠)

أما الآخرون فقد أدّى بهم الانغماس في مادية الدنيا إلى الكفر والاستكبار والإجرام: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ (٣١)

بل إلى إنكار المسؤولية الأخلاقية والتشكيك بالساعة والحساب: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ (٣٢)

ويوم الحساب يفيقون على الحقيقة التي طالما هزئوا بها، فتحيط بهم عواقب سوء عملهم: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٣٣)

فلا يكترث تعالى بهم ويتركهم لنتيجة عملهم السيّىء في الدنيا: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٣٤)

إذ لم يستفيدوا من الهدي الإلهي بل ركضوا وراء مباهج الدنيا واغتروا بمادتها فلا بد أن يتحملوا مسؤولية أعمالهم في الآخرة: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٣٥)

فالحمد لله الذي جعل الحياةَ دنيا وآخرة، تكمّلُ الآخرةُ الأولى وتتحقق بها العدالة والحكمة: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٦-٣٧) فالكبرياء لله وحده لا ينبغي للعباد أن يشاطروه بها.

سورة الأحقاف -٤٦-

مكية

الأحقاف آخر مجموعة سور الحواميم السبع: (غافر-فصّلت-الشورى-الزخرف-الدخان-الجاثية-الأحقاف) التي تبدأ بحرفي المقطعات ﴿حم﴾، نزلت في أواخر الفترة المكية، واشتُق اسمها من كلمة (الأحقاف) المذكورة في (الآية ٢١)، وهي سلاسل الهضاب الرملية اللتيْن تُميّز شمال حضرموت واليمن اللتيْن كان يقطنهما قوم عاد، وبُعث فيها نبيهم هود، وبها ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر ٨٩/٧-٨].

ارتباط السورة بما قبلها

سورة الأحقاف استمرار لسورة الجاثية من حيث التأكيد أنه لا هدي إلاّ هدي القرآن: ﴿حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجاثية ٤٥-٤٦/١-٢]،

وفي سورة الجاثية أن مَن ينكر الآخرة والمسؤولية يخسر نفسه: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية ٤٥/٢٢]، ثمّ في سورة الأحقاف: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأحقاف ٤٦/٣٤]،

وفي سورة الأحقاف استمرار لقصة بني إسرائيل المذكورة في سورة الجاثية، الآيات [الجاثية ٤٥/١٦-١٧]، والتي بدأت في سورة الدخان، الآيات [الدخان ٤٤/٣٠-٣٦]، ثمّ في هذه السورة يشهد شاهد من بني إسرائيل، وهو موسى عليه السلام، على مبعث النبي الأحمد خاتم الأنبياء والرسل، الآية [الأحقاف ٤٦/١٠]،

محور السورة

بعد تأكيد أصالة القرآن، تبين السورة أن الخلق ليس عبثاً، وأنه ينتهي إلى أجل مسمّى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [٤٦/٣]، وتنفي الشرك والشركاء عنه تعالى، وتحض الإنسان على تفهم ذلك لما في الشرك من حطّ بكرامة البشر: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [٤٦/٥]، وأن من شأن المستكبرين المصرّين على الكفر الاستهزاء بضعاف الناس من الأقليات المؤمنة بزعم أن ضعفهم ناتج من تدينهم، جاهلين أن الضعف، إن وُجد، سببه سوء فهم للدين: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [٤٦/١١]، وأنّ الإيمان من دون العمل الصالح لا يستقيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [٤٦/١٣]، وأن لا ملجأ ولا مفر ولا بديل لمن لا يستجيب للهدي الإلهي: ﴿وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [٤٦/٣٢]، وأن مفهوم الزمن بالمقياس الدنيوي لا معنى له بمقاييس الآخرة: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [٤٦/٣٥].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

تأكيد، كما في أول سورة الجاثية، على أصالة القرآن الكريم: ﴿حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١-٢)

وأن خلق الكون ليس عبثاً بل ينتهي إلى أجل مسمّى في الزمان والمكان: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ (٣)

وأن ليس لدى المشركين من برهان على ما يزعمون من آلهة أو قوى إلهية غير الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤)

وغاية الضلال أن يدعو الإنسان مَن ليس بطاقته الإجابة البتّة، بل إن المدعو في تمام الغفلة عمّن يدعوه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ (٥)

ثم يظهر للمرء يوم القيامة بطلان ضلالاته، فما كان يدعو سوى أوهام: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ (٦)

بعد نفي الشرك والشركاء عنه تعالى، (الآيات ٤-٦)، تعود السورة لموضوع (الآية ٢)، فالمصمّمون على الكفر يبتدعون الأعذار كي لا يواجهوا إعجاز القرآن: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧)

بل يضلّون أنفسهم بزعم أنّ النبي ﷺ افتراه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٨)، وفي ذلك إشارة لموضوع (الآية ٢)،

في حين أن بعث النبي ﷺ لم يكن من الغرابة في شيء، فبعث الأنبياء كان مستمراً منذ بدء الخليقة، والنبي لم يدّع علم الغيب، والرسالة الإسلامية استمرار لما سبقها من الرسالات: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٩)

فما مبرر كفرهم ببعث النبي سوى أنهم مستكبرون؟ علماً أنّ موسى بشّر بمجيء النبي وهو مذكور في كتبهم ،"سفر التثنية ١٥/١٨ و ١٨/١٨"، والخطاب هنا صار موجّه لليهود: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠) والشاهد من بني إسرائيل هو موسى نفسه،

فإنّهم من واقع ماديتهم وسلطانهم ينظرون إلى المؤمنين نظرة عجرفة وفوقية، وينسبون ضعف المؤمنين إلى ديانتهم، في حين أن هذا الضعف -إن وجد- ناتج عن سوء فهم للدين: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ (١١)

وقد نزلت التوراة بما فيها من البشارة بمقدم النبي ﷺ، وهذا القرآن يصدّق التوراة الأصلية: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا﴾ القرآن ﴿كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ (١٢)، وفي انتقال الآية من ذكر بعثة موسى عليه السلام إلى الإشارة لبعثة محمد ﷺ ما فيه من إغفال ذكر بعثة عيسى عليه السلام كونه بُعثَ إلى اليهود خاصةً، وإشارة ضمنية أيضاً لانتقال النبوة من بني إسحاق إلى بني إسماعيل،

وفي التوراة التي تلاعب بها اليهود فاتهم أنّ العبرة ليست بالإيمان شكلاً ولا التبجح بأنهم "الشعب المختار" ولكن العبرة بالإيمان الذي يرافقه الاستقامة في العمل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٣)

فحسن الختام لِمَن أتبع الإيمان بالعمل الصالح: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤)

ومن العمل الصالح بر الوالدين، وتربية الذرية الصالحة، وشكر النعمة بالعمل، والتوبة والإسلام: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١٥)

ويثيب تعالى أمثال هؤلاء بأحسن أعمالهم ويتجاوز عن سيئاتهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (١٦)

ومن أهم واجبات الوالدين تربية الذرية الصالحة: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ (١٧)

غير أن المسؤولية فردية، ولذا يتحمل كل فرد نتيجة خياره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ * وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (١٨-١٩)

فالمستكبرون المصرّون على الكفر يؤول مصيرهم إلى عذاب الذلّ والهُون في الآخرة بعد أن كانوا يستمتعون بالطيبات في حياتهم الدنيا: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ (٢٠)

وتضرب السورة مثلاً ببعثة النبي هود إلى قومه عاد يدعوهم لعبادة الله وحده وينهاهم عن الشرك، وفي ذلك عودة لموضوع (الآيات ٤- ٦): ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٢١) والنُّذُر بين يديه إشارة للآيات الآفاقية، ومن خلفه أي ما قبله من بعث الرسل.

لكنّ عاد تمسّكتْ بما توارثتهُ عن الآباء من التقليد وظلم العقل، وتحدّت نبيَّها أن يأتيها بالعذاب الموعود: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٢)

لكن مهمة النبي مقتصرة على البلاغ وليس القهر، والعلم عند الله بتوقيت العذاب واستحقاقه: ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ (٢٣)

فلما رأوا العاصفة متجهة نحوهم استبشروا بها وظنّوها مطراً في حين كانت ما استعجلوا من العذاب: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٤)

فلم تترك في ديارهم سوى مساكنَ فارغة من أهلها: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٢٥)، وتفصيله قولُه تعالى في سورة الحاقة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ *

سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة ٦٩/٦-٨]، وهكذا انتهت حضارتهم العظيمة في عصرها التي وصفها تعالى بقوله: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر ٨٩/٨].

ثم ينتقل الخطاب إلى كفار مكة، بل إلى مجتمعات الكفار في كل عصر، فقد مكّن تعالى قوم عاد من أساليب الحضارة المادية في عصرهم ما إن مكّن فيه الكفّار بعدهم لازدادوا طغياناً، لكن جحودهم بآيات الله منعهم من استخدام الحواس والعقل بالأسلوب السليم: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ (٢٦)، وأن الجحود ينعكس سلباً على أصحابه بشكل طبيعي: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٢٦)

فمن سننه تعالى في أمثالهم أن يؤول مصير مجتمعاتهم إلى الهلاك: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢٧)

فلم تنفعهم الآلهة التي أشركوا بها، وهي ليست مقتصرة على الأصنام والآلهة المزعومة التي ظنّوا أنها تقربهم إلى الله زلفى -قرباناً- بل تتجاوزها إلى ما عبدوه من الدنيا والمادة والشهوات والثروات والجاه والسلطان والأوهام - الإفك- والافتراء: ﴿فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٢٨)

وفي حين أنّ الجن استفادت من وحي القرآن فقد فشل في ذلك كثير من الإنس: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ (٢٩)، وتفصيل القصة مذكور في سورة الجن.

وقد أنذروا قومهم بنزول القرآن، وقولهم: ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ دون أي ذكر لبعثة عيسى، يفيد أنهم يهود وأن القرآن يصدّق ما تبقى بين يديه في التوراة من الوحي الصحيح، وفي ذلك إشارة لمضمون الآيات (١٢،١٠): ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٣٠)،

ودعوا قومهم إلى الإسلام: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣١)، وفي سورة الجن أنْ صار منهم مسلمون: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ [الجن ٧٢/١٤].

وأن ليس هنالك من مفرّ ولا بديل لمَن لا يستجيب لهدى الله: ﴿وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (٣٢)

وأن الآيات الكونية حول الإنسان دليل وإثبات على البعث: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٣)

لكنّ المصرّين على الكفر لا يكتشفون حقيقة الآخرة إلا بعد فوات الأوان: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٣٤)

وأن مفهوم الزمن كما يعرفه البشر في دنياهم يصبح غير ذي معنى في الآخرة: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٣٥).

سورة محمد -٤٧-

مدنية

نزلت في وقت مبكر جداً من الفترة المدنية، واشتق اسمها من ورود اسم النبي ﷺ بالآية (٢)، وهي الأولى في مجموعة سور مدنية ثلاث: (محمد-الفتح-الحجرات) تنظّم المجتمع الإسلامي من نواحٍ ثلاث،

ارتباط السورة بما قبلها

بينت سور الحواميم المكّية السبعة (غافر-فصّلت- الشورى-الزخرف-الدخان-الجاثية-الأحقاف) أنّ الكثير من الناس مصرّون على الكفر وإنكار القرآن بنتيجة استكبارهم وغرورهم واعتقادهم بالاكتفاء بما عندهم من العلوم الدنيوية، وانغلاق عقولهم سلفاً على الشرك والتقليد وحب الدنيا وتغليب الهوى، ولذا لا يعطون أنفسهم الفرصة لدراسة القرآن دراسة جدية بلا تحيز فكري مسبق.

كما بينت أن مغزى الحياة الدنيا لا يتضح إلا من حيث كونها مرحلة أولى تكتمل بتحقق البعث والحساب في الحياة الآخرة، وأن الإيمان مرتبط بالعمل الصالح، ممّا يضع الإنسان أمام مسؤولياته الأخلاقية، وأن مَن ينكر الآخرة والمسؤولية يخسر نفسه.

ومع ذلك فما على المسلم سوى البلاغ، لأنه ليس حفيظاً على الناس، ولكن الكفار عاملون في الصدّ عن الإسلام، لذا تنتقل سورة محمد إلى موضوع الدفاع عن الإسلام والأمة الإسلامية وحماية العقيدة.

وهنالك ارتباط مباشر بين آخر سورة الأحقاف السابقة: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف ٤٦/٣٥] وبداية هذه السورة بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد ٤٧/١]، أي أن أعمال "الخير" التي قد يقوم بها الكفار تذهب هباءً -يوم الحساب- بنتيجة كفرهم وصدّهم عن الإسلام، والسبب تفسره السورة،

وفي سورة الأحقاف أن آلهة المشركين وأوهامهم لا تفيدهم شيئاً: ﴿فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف ٤٦/٢٨]، ثم في سورة محمد أن الكفار لا مولى حقيقي لهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد ٤٧/١١]،

وفي سورة الأحقاف أن طيبات الكفار مقتصرة على الحياة الدنيا: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ [الأحقاف ٤٦/٢٠]، وفي سورة محمد أنهم يتمتعون في الدنيا ويأكلون كما تأكل الأنعام: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد ٤٧/١٢]،

محور السورة

يدور حول الدفاع عن الأمة تجاه العدوان ووجوب التضحية في سبيل ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [٤٧/٧]، وأن عدم الامتثال لأوامر الوحي وترك الدفاع عن العقيدة وحرية الدين سبب

لانتشار الفساد والحروب الأهلية وقطع الأرحام: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [٢٢/٤٧] فما لهم لا يحاولون فهم القرآن بقلوب مفتوحة بدلاً من التشنج الفكري المسبق: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [٢٤/٤٧] وأن الله تعالى يختبر الناس بظهور أفعالهم واستعدادهم للتضحية إلى حيّز العَلَن، وليس بعلمه بالغيب منهم: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [٣١/٤٧] وتبيّن السورة أن الهوان على المعتدين واستجداء السلام منهم لا يليق بالمؤمنين ما داموا على الحق: ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [٣٥/٤٧]،

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

الكفار الذين لم يقتصر كفرُهم على أنفسهم بل تجاوزَه بأن صدّوا غيرهم عن الإسلام، أو منعوا المسلمين من اتّباع دينهم، وعملوا على منع حرية الفكر والعبادة، فهؤلاء إن كان لهم أعمال "حسنة" فهي تذهب عند الله هباءً: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ (١)، أنظر أيضاً آية [النور ٣٩/٢٤-٤٠]، وآية [الفرقان ٢٣/٢٥]، والآية (٣٢) من هذه السورة،

في حين أن المؤمنين الذين اقترن إيمانُهم بالعمل الصالح وتصديق القرآن، فالله تعالى يغفر لهم سيئاتهم ويسترها ويصلح قلوبهم فينعموا بالراحة النفسية: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ (٢)

وذهاب حسنات الكفار هباءً ليس سوى نتيجة طبيعية لاتّباعهم الباطل، كما أن مغفرة سيئات المؤمنين نتيجة لاتّباعهم الحق: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا

الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ (٣)

وعندما يبدأ الكفار الحرب بغرض الصدّ عن سبيل الله (الآية ١) يصبح من واجب المؤمنين الدفاع عن أنفسهم بغرض إنهاء الحرب، أي حتى تضعَ الحربُ أوزارَها، والشريعة تسمح لهم بأخذ الأسرى بعد إضعاف العدو ثم تحريرهم بعد ذلك أو أخذ الفدية عنهم، والمغزى من تضحيات المؤمنين أنه تعالى يختبر العباد بظهور أفعالِهم إلى حيّز العَلَن، وبالتالي لا تذهب تضحيات الشهداء سدى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ (٤)

فتنعم أرواح الشهداء بالسلام وينالون ثواب أعمالهم: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ (٥-٦)

وينصر تعالى المؤمنين إن كانت مجتمعاتهم قائمة على الإسلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (٧)، أنظر أيضاً آية [النور ٢٤/٥٥].

في حين تنتظر الكفار التعاسة وتذهب أعمالُهم -الحسنة- سدى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ (٨)

والسبب أنهم كرهوا القِيَم والالتزام وأشركوا وأنكروا المسؤولية تجاه الخالق مما جرّدَ أعمالَهم من كل قيمة أخلاقية: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (٩).

والأمثلة على دمار الأمم البائدة من أمثالهم متكررة في التاريخ، وسنة الله في الخلق لا تتغير: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ (١٠)

لأنّ الله تعالى يهدي عباده المؤمنين، أما المصرّون على الكفر فيخلّيهم لأنفسهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ﴾ (١١)

فيتمتع الكفار بنصيبهم من الحياة الدنيا كالبهائم، لكن مصيرهم في الآخرة يؤول إلى النار: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ (١٢)

وقد شهدَ التاريخ من المجتمعات الكافرة (الآية ١٠) مَن هُم أشد قوة من كفار قريش ومع ذلك انتهى مصيرها إلى الهلاك: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ (١٣)

فلا يستوي في العاقبة مَن كان ثابتاً على حجج ظاهرة مستندة على الوحي وعلى البراهين العقلية، ومَن اتّبع الهوى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (١٤)

فعاقبة الأول في الجنة والآخر في النار، و(الآية ١٥) تضرب لنا مثلاً عن الجنة والنار، وضرب المثل لأن حقيقتهما خارج إدراك البشر، قال الزمخشري: ذلك تمثيلٌ لما غاب عنّا بما نشاهد، أي بما نعرفه من المحسوس: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (١٥)

وهنالك مِن المنافقين مَن قارب الكفر، أو هم عليه، يستمعون إلى خطاب الوحي استماع سخرية وهزء في حين يُظهرون ويدّعون له الاحترام، والسبب تغليبهم الهوى على العقل، إذ ليس لأمثالهم استعداد في حقيقة دخيلتهم أن يقرّوا بإعجاز القرآن: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (١٦)

أما منفتحو الذهن الذين لديهم استعداد لتفهم الحقيقة فإنّ الله تعالى يهديهم إليها: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (١٧)

وعندما تحين الساعة بغتةً وتُكشف الحُجُب لا يستفيد المنافقون والكفار من الذكرى لأن الإيمان يصير قسرياً: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ (١٨) وأشراط الساعة تحققت ببعثة النبي الأحمد خاتم الأنبياء والرسل.

وبعدما نزل القرآن آنَ لكل فرد أنْ يوقن أنّ كل شيء ما خلا الله باطل، ويستغفر لذنوبه وذنوب المؤمنين والمؤمنات: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ (١٩)

بل إن المؤمنين الصادقين ينتظرون الأذن بالقتال دفاعاً عن الدين ويتشوقون لذلك، أما ضعاف الإيمان والمنافقون فتزيغ أعينهم من الخوف عند نزول الإذن بالقتال -آية [الحج ٢٢/٣٩]- وقد كان الأولى لهم إبداء جدّيتهم واستعدادهم للدفاع والتضحية: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ (٢٠-٢١)

لأن عدم الامتثال لأوامر الوحي وترك الدفاع عن حرية الدين سبب لانتشار الفساد والحروب الأهلية وقطع الأرحام: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (٢٢)

ومَثَل الذين أعرضوا عن الوحي كَمَن أصمّ أذنيه عن سماع الحق وأعمى بصيرة نفسه بنفسه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ (٢٣)، انظر آية (البقرة ٢/٧).

فما لهم لا يحاولون فهم القرآن بقلوب مفتوحة بدلاً من التشنج الفكري المسبق، والتأرجح بين الشك واليقين؟ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٢٤)، وفي ذلك إشارة للمنافقين المذكورين بالآية (١٢)،

ومِن أهل الكتاب مَن نكص بعدما تبيّن لهم صدق القرآن، ومِن ضعاف الإيمان الذين ارتدّوا بعد إيمانهم، ومن المنافقين اللاهثين وراء الدنيا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ (٢٥)

يريدون أن يحافظوا على مصالحهم لدى الطرفين، المسلمين والكفار: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ (٢٦)

ولكنهم يذوقون ثمار عملهم عندما تزهق أرواحُهم إذ يعاينون هولَ آخرتهم رأي العين فلا يستطيعوا منها فكاكاً ويتوقون للتمسك بالدنيا فلا يستطيعون: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ (٢٧)

وتلك نتيجة طبيعية لإصرارهم على الإنكار في الدنيا رغم قناعتهم وانبهارهم بنور القرآن، فبالتالي تحبط أي أعمال "حسنة" لهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (٢٨)

بل إن الله تعالى يظهر أحقادهم إلى العَلَنْ فلا تبقى مستورة: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ (٢٩)

وأن بإمكان المؤمن الصادق فرز المنافقين من سلوكهم ولو لم تكن بهم علامات فارقة: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٠)

ومع علمه تعالى بالغيب فإنه يختبر الناس بظهور أفعالهم إلى حيّز العَلَنْ فيبرز استعدادهم الفعلي للتضحية بأموالهم وأنفسهم في سبيله وليس بمجرد النوايا: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ (٣١)

فيظهر منهم المنافقون الذين أصرّوا على الكفر والجحود، ولا يعود الضرر إلاّ عليهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ (٣٢)

وبعد بيان مآل الكفار والمنافقين تحذر السورة المؤمنين أن يحذو حذوهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٣)

ثم تعود السورة إلى النقطة التي بدأت منها بالآية (١): ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (٣٤)

وتبيّن أن الهوان على المعتدين واستجداء السلام منهم لا يليق بالمؤمنين ما داموا على الحق، فالله تعالى لا يضيع أعمالهم: ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٥)،

ومع أن الحياة الدنيا لعب ولهو في جنب الآخرة فإن الله تعالى لا يفرض على المؤمنين التضحية بجميع أموالهم بل بجزء يسير منها -الزكاة ربع العشر فقط-: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ (٣٦)،

فالقرآن الكريم يأخذ بالاعتبار أنّ الإنسان خُلق ضعيفاً: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء ٤/٢٨] ولو فرض عليه متطلبات قاسية كالتضحية بجميع ماله لفشلَ في أدائها: ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ (٣٧)،

إذن المتطلبات القرآنية من الإنسان معقولة وليس بها مغالاة، بل هي متناسبة مع الطبيعة البشرية، ولذا عندما تُحجم الأكثرية عن التضحية وتتمسك بالبخل فالعاقبة تنعكس سلباً على المجتمع بكامله وتسبب زواله: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (٣٨).

سورة الفتح -٤٨-

مدنية

نبذة تاريخية

في أواخر السنة السادسة من الهجرة عزم الرسول ﷺ على التوجه مع صحبه من المدينة إلى مكة لأداء العمرة بعد مضي قرابة ستة أعوام من الغزوات والحروب بين المسلمين وكفار قريش، ولما كان النبي ﷺ بصدد العمرة فقط فلم يكن يتوقع حدوث أي قتال أو مواجهة بينه وبين كفار قريش، خاصة أن شهر ذي القعدة من الأشهر الحرم الأربعة التي اتفق العرب منذ القدم أن يحرم فيها القتال وخاصة في منطقة مكة، ثم إن النبي ﷺ بعث إلى القبائل المتحالفة معه حول المدينة يدعوها للاشتراك معه بأداء العمرة فتخلّف معظمها بأعذار واهية ظناً منهم أن قريش سوف تهاجم المسلمين العزّل وتدحرهم (الآية ١٢) فانطلق النبي ومعه حوالي ١٤٠٠ رجل فقط من صحابته بلباس الإحرام وهم عزّل من السلاح سوى السيوف التي في أغمادها.

وعندما علمت قريش باقتراب النبي وصحبه من مكة بعثت خالد ابن الوليد - الذي كان مقدّراً له دخول الإسلام بعد ذلك بأقل من عامين- على رأس مئتين من الفرسان لقطع الطريق على المسلمين واتخذ الألوف من المشركين المسلحين مواقع حصينة حول مكة لمنعهم من دخولها، ولما كان النبي لم يأتِ

مقاتلاً، ولم يكن مستعداً للقتال، فقد اتجه غرباً عند وصوله بئر عسفان ونزل في سهل الحديبية حيث أمضى فيه بضعة أيام مع أصحابه بدأت خلالها المفاوضات بينه وبين المشركين، ثم بعث النبي عثمان بن عفان مندوباً إلى مكة للتفاوض مع زعمائها، وبعد وصول عثمان إلى مكة انتشرت الشائعات في الحديبية بأنه قُتل، مما جعل النبي ﷺ يتوقع هجوماً غادراً عليه من المشركين فجمع أصحابه واستشارهم فبايعوه على الثبات والقتال معه حتى الموت في حال هاجمهم المشركون (الآية ١٨) وهي البيعة التي سميت بيعة الرضوان، وبعد أيام تبين زيف الشائعات وعاد عثمان سالماً كما تبين أن كفار قريش على استعداد لعقد هدنة مع النبي وبالفعل تم توقيع هدنة مدتها عشر سنوات، من شروطها أن يرجع النبي وصحبه إلى المدينة هذا العام على أن يعودوا لأداء العمرة العام القادم، كما وافق النبي في المعاهدة أنه في حال هروب بعض أغرار وموالي المشركين من مكة إلى المدينة فإن الرسول يعيدهم إلى مكة، في حين لا يلتزم المشركون بإعادة من يهرب إليهم من المسلمين، وقد بدت المعاهدة في ظاهرها مجحفة بحق المسلمين غير أن الأحداث برهنت بعد ذلك أن صلح الحديبية كان ذا أهمية ايجابية كبرى في تاريخ الإسلام وفي انتشاره في جزيرة العرب إذ ترتب على الهدنة أن يختلط المشركون مع المسلمين في مكة والمدينة ويدخل الألوف منهم في الإسلام بعد اقتناعهم بالحجة والبرهان، حتى أنه عندما نقضت قريش صلح الحديبية بعد عامين من إبرامه تمكن الرسول وصحبه من فتح مكة دون قتال، وهكذا كان صلح الحديبية بداية ظفر الإسلام السياسي والمعنوي في جزيرة العرب.

والجمهور على أن سورة الفتح نزلت بعد صلح الحديبية (ذي القعدة عام ٦ للهجرة) خلال عودة الرسول ﷺ من الحديبية إلى المدينة.

ارتباط السورة بما قبلها

بعد أن بينت سورة محمد المتقدمة أنّ على المؤمنين الدفاع عن الأمة تجاه العدوان ووجوب التضحية في سبيل ذلك، وأن الله تعالى يختبر الناس باستعدادهم للتضحية وبظهور أفعالهم إلى حيّز العَلَنْ وليس بعلمه بالغيب منهم: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد ٤٧/٣١]،

تضرب سورة الفتح مثالاً على ذلك بالأحداث التي بدأت من صلح الحديبية وانتهت بفتح مكة وتبين الأسلوب الصحيح للتعامل مع المشركين والكفار كي ينتشر الإسلام سلماً وبالقدوة الحسنة، الآية [الفتح ٤٨/٢٩].

محور السورة

الآية الأخيرة من السورة تلخص الأحداث المشار إليها بنموذج اجتماعي يتكرر في كل العصور، فهي تشبّه جماعة المؤمنين الناشئة في جزيرة العرب زمن البعثة -وبالتالي في كل مجتمع آخر وفي كل زمن- بالنبتة الصغيرة التي تنمو وتكبر وتشتد، وهو ما برهنت الأحداث في صلح الحديبية وما بعده على صحته: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ فلا يتوصلون معهم إلى حلول وسط في شؤون العقيدة ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ أي لشدة تقواهم وتواضعهم تجاه بعضهم البعض ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ﴾ كما كان المفترض في أتباع الديانات السابقة فكذلك في الإسلام ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ فالصلح يؤتي ثماره باختلاط الكفار مع المسلمين وانتشار ونمو الإسلام سلماً بالقناعة والقدوة الحسنة، وبالتالي فإنّ مغفرة الله والأجر العظيم بانتظار مَن يؤمن من الكفار ويقرن إيمانه بالعمل الصالح: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح ٤٨/٢٩].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية الأولى من السورة إخبار بالغيب لأنها تشير إلى النصر المعنوي الذي تحقق للرسول ﷺ وللمسلمين عامةً بصلح الحديبية والذي بدوره فتح الباب لانتشار الإسلام في جزيرة العرب: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (١)

ليكون في الفتح، فيما يكون، إبداءً لمغفرته تعالى لما تقدم من ذنبه، عليه الصلاة والسلام، في الجاهلية وما تأخّر في الإسلام، وقالوا أنّ الذنب بالنسبة للنبي ﷺ هو خلاف الأولى، والآية إشارة غير مباشرة أن العصمة من الخطأ هي لله وحده: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (٢)، أي يتمّ تعالى نعمته على النبي بإعلاء شأن الإسلام ويهديه لتحقيق بعثته النبوية.

فيتحقق ذلك بانتشار الإسلام من الأندلس إلى الصين في زمن خلفائه ﷺ: ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ (٣)

ومن نعمته تعالى على النبي أنْ أنزل السكينة، أي الطمأنينة والثبات، على قلوب صحبه في الحديبية رغم ما كانوا عليه من قلة في العدّة والعدد أمام قوة وكثرة مشركي مكة، فأيقنوا أن لله جنود السماوات والأرض مما زادهم إيماناً مع إيمانهم: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٤)

ومن نتائج هذا الفتح المبين وانتشار الإسلام في جزيرة العرب أن يُدخِل تعالى المؤمنين والمؤمنات في جنات الخلد ويكفّر عنهم سيئاتهم، أي يمحوها، وذلك عند الله غاية ما يطمح إليه كل مؤمن ومؤمنة من الفوز: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٥)

أما المذبذبون ضعاف الإيمان من المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات الذين لم يوقنوا بالتوحيد بل أنكروا الآخرة والمسؤولية فيحيط بهم السوء الذي يتربصونه للمؤمنين ويحل عليهم غضب الله: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٦)

فهم في قبضة الله تعالى ليس لهم من محيص: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (٧)

ولم يكن الله تعالى ليترك الناس بلا هداية، فبعث لهم الرسولَ شاهداً على الوحدانية والحقيقة، بشيراً للمؤمنين، نذيراً للمصرّين على الكفر: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٨)

ليؤمن مَن يؤمن بالله ورسوله، ولينصر المؤمنون دينَ الله، ويعظّموه سبحانه ويسبّحوه على الدوام: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (٩)

ومع أن الآية التالية تشير إشارة مباشرة إلى بيعة الرضوان، راجع النبذة التاريخية، إلا أن مغزاها عام لكل العصور، بمعنى أن الإيمان بالرسول كالإيمان بالله تعالى، و تكون بالتالي طاعة الرسول واتباع سنته واجبة على المؤمنين بالله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١٠)

ولكن المنافقين وأنصاف المؤمنين ومَن قلوبهم مع الدنيا يختلقون شتّى الأعذار في كل زمن للتخلف وللتهرب من التضحية، ولا يقرنون القول بالعمل، وكان ذلك شأن معظم القبائل حول المدينة عندما دعاها الرسول للاشتراك معه في أداء العمرة: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا

يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١١)

إذ كانت قلوبهم مع الدنيا، فظنّوا لضعف إيمانهم أن قريشاً سوف تقاتل المسلمين العزّل وتقضي عليهم: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ (١٢)

وفاتهم أن مَن لا يجمع بين الإيمان بالله والإيمان برسوله يؤول إلى أسوأ العواقب: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ (١٣)

ومع ذلك فإن الله تعالى يغفر للتائبين إذا تابوا بصدق وقرنوا التوبة بالعمل: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٤)

والآية التالية تخبر بالغيب أيضاً لأنه في العام ٧ هجرية، أي بعد بضعة شهور من صلح الحديبية، أراد المخلّفون اللحاق بالمؤمنين في غزوة خيبر بغرض الاشتراك في الغنائم: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ مع أن القتال يجب أن يكون خالصاً لوجه الله، انظر آية [البقرة ١٩٣/٢]، وقد سبق نزول الوحي في سورة الأنفال أن الأنفال لله ورسوله فلم يفقهوه: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (١٥)، وعدم فقه المخلّفين من الأعراب قادهم إلى ظن الحسد بالمؤمنين.

ثم تنبأ السورة بحروب الردّة وحروب المسلمين مع فارس والروم، وأنه سوف تتاح الفرصة وقتئذٍ للمخلّفين من الأعراب، الذين تخلّفوا عن الحديبية، لبيان حسن نواياهم بالعمل وليس بالقول: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٦)

وأن المعوَّقين من الناس كالأعمى والأعرج والمريض ليس عليهم حرج في التخلّف عن القتال إذا نصحوا لله ورسوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٧)

وتتنبأ السورة بفتح خيبر، بل بفتح مكة، في القريب العاجل الذي يلي بيعة الرضوان، وبالفعل فُتحت خيبر بعد الحديبية بأشهر، وفُتحت مكة بعد أقل من عامين من الحديبية: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١٨-١٩)

وقد وعدَ اللهُ المؤمنين مغانمَ الدنيا والآخرة، فعجّل لهم مغانمَ الدنيا، وكفّ أيدي يهود المدينة عنهم كما كفّ عنهم أيدي كفار قريش ففُتحت مكة دون قتال، مما هو آية للمؤمنين من بعدهم، وهداية لما يجب أن يكون عليه المؤمنون من الإعداد والتوكل على الله: ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (٢٠)

وهنالك مغانم أكثر للمؤمنين من سعادة الآخرة ما هي في علم الغيب: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (٢١)

ونبوءة أخرى تحققت بهزائم الكفار المتتالية منذ صلح الحديبية حتى انتشار الإسلام، ليس في جزيرة العرب فقط، بل من الصين إلى الأندلس أيام الخلفاء: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾ (٢٢)

غير أن هذا الوعد بنصر المسلمين وهزيمة الكفار مشروط بأنه تعالى ينصر من ينصره، انظر آية [محمد ٤٧/٧]، وبكون المسلمين أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، انظر آيات [آل عمران ٣/١١٠-١١١، ١٣٩] وأن الله لا يغير ما

بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم سلباً أو إيجاباً، انظر آية (الأنفال ٨/٥٣)، فكل ذلك من سننه تعالى التي لا تتبدل: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ (٢٣)

وقد أنعم تعالى على المؤمنين في الحديبية بأن توصلوا إلى الصلح مع قريش دون قتال، وفي رواية أن المسلمين أوقعوا في الأسر مجموعة من ٣٠-٨٠ من فرسان قريش حاولوا الانقضاض على المسلمين في الحديبية ثم أطلق المسلمون سراحهم بعد الصلح: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (٢٤)

وأنه يستحيل على المرء أن يعرف إن كان غيره من الناس يستحق رحمة الله أو عقابه، وذلك من أسباب عودة الرسول وصحبه إلى المدينة دون أداء العمرة تفادياً لدخول مكة عنوةً وتفادياً لوقوع ضحايا أبرياء: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٢٥)

وأنّ استكبار مشركي مكة الذي بدا في حميّتهم الجاهلية وتحكّمهم في شكليات نصوص صلح الحديبية قابله من جانب المؤمنين السكينة والطمأنينة وكان جوهر المعاهدة في صالح المؤمنين فلم يتمكن المشركون من استفزاز المسلمين: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (٢٦)

وما لبثت ثمار صلح الحديبية أن تحققت، فبعد عام من إبرامها عاد المسلمون فدخلوا مكة سلماً وأدوا مناسك العمرة، وبعد أقل من عام آخر أي في رمضان

العام ٨ هجرية فتح المسلمون مكة دون قتال: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (٢٧)

ونبوءة أخيرة بحتمية انتشار الإسلام في أنحاء العالم وظهوره على كافة الأديان: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٢٨)

والآية الأخيرة من السورة تلخص أحداثها بنموذج اجتماعي يتكرر في كل العصور، فهي تشبّه جماعة المؤمنين الناشئة في جزيرة العرب زمن البعثة -وبالتالي في كل مجتمع آخر وفي كل زمن- بالنبتة الصغيرة التي تنمو وتكبر وتشتد، وهو ما برهنت الأحداث في صلح الحديبية وما بعده على صحته: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ فلا يتوصلون معهم إلى حلول وسط في شؤون العقيدة ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ أي لشدة تقواهم وتواضعهم تجاه بعضهم البعض ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ كما كان المفترض في أتباع الديانات السابقة فكذلك في الإسلام: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾، فالصلح يؤتي ثماره باختلاط الكفار مع المسلمين وانتشار ونمو الإسلام سلماً بالقناعة والقدوة الحسنة، وبالتالي فإنّ مغفرة الله والأجر العظيم بانتظار مَن يؤمن من الكفار ويقرن إيمانه بالعمل الصالح: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٢٩).

سورة الحجرات -٤٩-

مدنية

نزلت في العام ٩ هجرية،

ارتباط السورة بما قبلها

الحجرات، الثالثة من مجموعة السور المدنية الثلاث (محمد-الفتح-الحجرات) المتتالية في الترتيب القرآني ومختلفة في سنوات النزول، والمجموعة تتعامل مع تنظيم المجتمع الإسلامي خارجياً لجهة الدفاع عنه (سورة محمد)، ولجهة نشر الإسلام والتبشير به بالقناعة والقدوة الحسنة (سورة الفتح)، وداخلياً لجهة أخلاقيات أفراده (سورة الحجرات).

محور السورة

أخلاقيات المجتمع الإسلامي تجاه الرسول والعلماء من بعده، والمسلمون تجاه بعضهم بعضاً، ودعوة الإسلام تجاه الإنسانية عامة.

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

تبدأ السورة بنهي المؤمنين أن يجعلوا رغباتهم الشخصية متقدمة على ما يأمر به القرآن الكريم وما تقتضيه السنة الشريفة، وبعبارة أخرى عدم تقديم المصلحة الشخصية على المصلحة العامة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١)

وترشيد المؤمنين إلى الأدب في التعامل مع النبي ﷺ، وبالتالي مع العلماء من بعده لقوله ﷺ: "العلماء ورثة الأنبياء": ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ (٢)، فرفع الصوت على وجه الإيذاء أو الاستهانة محبط للعمل، وخفض الصوت أفضل للاستفهام وللحوار، وقد يحبط العمل دون شعور من صاحبه.

والذين يلتزمون قواعد الأدب المشار لها يظهر إلى العَلَن مظهر من مظاهر تقواهم الموجبة للمغفرة والأجر العظيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٣)

أما الذين يستعجلون خروج النبي إليهم بندائه من بيته فذلك مما لا يُعقل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤-٥)

وبعد أن بينت السورة قواعد الأدب مع النبي، وبالتالي العلماء وأولياء الأمر من بعده، تنتقل للإرشاد لوجوب الحفاظ على سمعة الأفراد وبالتالي سلامة المجتمع، فتحذّر من التسرع في تصديق ناقلي الإشاعات وتسمي ناقل الإشاعة فاسقاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (٦)

ومن ذلك أن الرسول ﷺ قدوة المسلمين في التعامل، فهو لا يقبل الأخبار عن طرف ثالث قبل التوثق منها، ولو فعل لكان في ذلك إجهاد المجتمع وهلاكه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٧-٨)

وإن وقع الخلاف أو الاقتتال بين المؤمنين بنتيجة نقل الإشاعات الكاذبة وجب الإصلاح بينهم بالعدل حتى لو اقتضى الأمر قتال الفئة الباغية: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٩)

وأن بين المؤمنين أخوّة دينية توجب السعي للصلح بينهم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٠)

كما توجب ترك الإعجاب بالنفس وبالتالي عدم احتقار المؤمنين بعضهم بعضاً والاستهزاء بهم، أوالتشهير بهم، أو إطلاق ما يُكره من الألقاب عليهم، كل ذلك منعاً لتفسخ المجتمع، مما يكاد يكون فسقاً: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١١)

وتنهى عن سوء الظن بالآخرين بمجرد التخمين، فتجعل بعض الظن إثماً لأن الظن قد يوجب الشك بالآخرين بما ليس له أساس، كما تنهى عن التجسس على الغير والغيبة: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢)

ثم تنتقل السورة من كيفية التعامل بين أفراد المجتمع الواحد من المؤمنين إلى كيفية التعامل بين الشعوب فتنهى عن التفاخر والفوقية والعصبية بين الأمم، وتحض على التعارف والحوار ما يؤدي إلى التفاهم بينها سلماً، وأن العبرة هي بالتقوى ودعوة الإسلام وليست بالحسب والنسب ودعوة الجاهلية: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١٣)

وأنّ العبرة ليست بالإسلام باللسان، وإنما بالإيمان الذي يدخل القلب فيقترن بالعمل بطاعة الله ورسوله: ﴿قَالَتْ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلْ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ﴾ (١٤-١٥)

وأن الله تعالى يعلم السرائر فلا موجب للتبجّح بكوْن المرء مسلماً أو مؤمناً: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٦)

وأن المسلم الحق، إن كان صادقاً في دعواه، يحمد الله تعالى أن هداه للإيمان: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلْ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٧)

والله تعالى عالم الغيب والسر والعلانية عالم بأعمال الناس، فدعوى الإيمان عند أحدهم يلزم أن يصدّقها العمل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٨)

سورة ق -٥٠-

مكية

قيل أنها نزلت في السنة الرابعة بعد البعثة، واشتق اسمها من افتتاح السورة بالحرف قاف، وهي السورة الثانية -بعد سورة القلم- التي تفتتح بما يسمى (الحروف المقطعات)، كما هي الأولى في مجموعة سور مكية سبعة متتالية هي: (ق-الذاريات-الطور-النجم-القمر-الرحمن-الواقعة) تبحث في الغيبيات،

ارتباط السورة بما قبلها

بعد أن انتهت مجموعة السور المدنية الثلاثة (محمد-الفتح-الحجرات) من التعامل مع تنظيم المجتمع الإسلامي خارجياً لجهة الدفاع عنه: (سورة محمد)، وعالمياً لجهة نشر الإسلام والتبشير به: (سورة الفتح)، وداخلياً لجهة أخلاقيات أفراده: (سورة الحجرات)، وبتعبير آخر التعامل مع أحوال الحياة الدنيوية، تبدأ سورة ق المكّية في بحث مستقبل الإنسان المتمثل في الموت والبعث والجزاء، وتفتتح كما افتُتحت سور الحواميم السبعة ببيان منزلة القرآن المجيد.

محور السورة

تبدأ السورة وتنتهي بالتذكير بالقرآن المجيد، وتركّز على الموضوعين التوأمين: الموت والبعث، وعجب الكفار من ذلك: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ

رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [٣/٥٠]، واختلاط الأمور عليهم فيما يظنون من عشوائية الأقدار وقسوتها وغياب العدالة الدنيوية: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ [٥/٥٠]، ما لا يمكن فهمه إلا على خلفية الدار الآخرة، فالأمور لا تنتهي بموت الجسد، وبالتالي وجود مغزى من الخليقة: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [٤/٥٠].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

تدعو السورة لتدبر رسالة القرآن المجيد الذي لا يماثله كتاب في العلو والإعجاز: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ (١)

ورغم نزول القرآن المجيد الذي يخاطب العقول والإدراك السليم يتعجب الكفار من إنذارهم بواسطة رجل منهم، وتختلط عليهم الأمور، لأنهم يتوهمون أن الرسول يجب أن يكون فوق جنس البشر، والرسالة عندهم يلزم أن تكون معجزات مادية وشعوذات: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (٢)

وتهرباً من مسؤوليتهم الأخلاقية يردّون استبعاد حقيقة البعث والحساب: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ (٣)

مع أنّ الإنسان لا ينتهي بفناء الجسد كما يظنون: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ بل إنّ عمل المرء في دنياه يسجّل له أو عليه: ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ (٤)

لكنّ هذه الحقائق اضطربت في أذهانهم واختلطت عليهم الأمور، لأن مَن ينكر الآخرة والحساب تُداخله الحيرة في مغزى الحياة وما يَظنّ من عشوائية الأقدار وقسوتها: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ (٥)

مع أن التفكر في معجزة خلق السماء والأرض جدير بأن يفتح بصيرتهم ويذكّرهم بالحقيقة ويعيدهم للصواب: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ (٦-٨)

وكذلك التفكر في معجزة تجدد الخلق في النبات: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ (٩-١١)

والتفكر في تاريخ الأمم البائدة يفيد أن تكذيبها بالحقيقة أوردها موارد الهلاك: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ (١٢-١٤)

فكيف يشكّون في البعث مع أنه تعالى خلقهم أول مرة: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٥)

والله تعالى غير محدود بالزمان والمكان، حتى أنه محيط بوساوس الإنسان: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (١٦-١٨)

وأن طول الأمل والتسويف سبب غرور الإنسان ممّا يؤدي إلى مباغتة المنية له قبل أنْ يستعدّ لها: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (١٩)

ثم يُبعث فيشهد عليه عمله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (٢٠-٢١) وشبيه بذلك قوله: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤/١٧].

وتُكشف حجب الغيب فلا يبقى عند المكابرين -بعد فوات الأوان- أي شك في حقيقة الحساب: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (٢٢) وحديد بمعنى حادّ،

وأن قرين السوء -الشيطان- يورد صاحبه مورد الهلاك: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ (٢٣) وهو شبيه بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف ٣٦/٤٣]، وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف ٣٨/٤٣].

فيُلقى في جهنم الذين كابروا وأصرّوا على الكفر والشرك، وارتابوا في الآخرة وفي الثواب والعقاب: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ (٢٤-٢٦)، وخطاب المثنّى في ﴿ألقيا﴾ إلى السائق والشهيد، الآية ٢٠، فعمَل المرء يشهد عليه، ويسوقه إلى عاقبته الطبيعية.

وأن ليس باستطاعة الشيطان إجبار أحد على الغواية إلا مَن كان عنده ميل إلى الضلال فيزيّن له ضلاله: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (٢٧)، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم ٢٢/١٤].

كما الأعذار لا تفيد أحداً بعد كشف الحُجُب: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ * يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ (٢٨-٣٠)

وبعد أن بينت الآيات (١-٣٠) إصرار الكفار على تكذيب الوحي ومنعهم الخير وارتيابهم في البعث وسوء مآلهم في الآخرة، تبين الآيات (٣١-٣٥) بالمقابل حسن مآل المتقين الذين آمنوا بالغيب: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ

بِقَلْبٍ مُنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (٣١-٣٥)

ثم تعود السورة لموضوع الآيات (١٢-١٤) فتُبرز العبرة من هلاك الحضارات السابقة مهما بلغت قوتها وجبروتها: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٣٧) والعِبَر لا يعيها إلاّ مُنفتحو الذهن.

وتنفي زعم اليهود في كتبهم "المقدسة" أن الله تعالى بعد أن خلق الكون في ستة حقب زمنية استراح بعدها من التعب، تعالى الله عمّا يقولون علوّاً كبيراً: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (٣٨) والخلق في ستة أيام أي في ستة أطوار أو ستة حقب زمنية.

فتحضّ على الصبر عليهم والاستعانة على ضلالهم بالتسبيح والصلاة: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ (٤٠) وقالوا إن الأمر بالتسبيح كناية عن الأمر بالصلوات المكتوبة.

فلا يلبث أن يحين يوم البعث فيسمع الإنسان النداء من مكان قريب، وليس أقرب إليه من داخله، فلا يملك سوى أن يسارع إلى الإجابة: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ (٤١-٤٤)

أما في الحياة الدنيا فما على المؤمن سوى تذكير مَن يُرجى إيمانه: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ وهنا تعود السورة للنقطة التي بدأت منها: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (٤٥)،

سورة الذاريات -٥١-

مكية

نزلت في أواخر الفترة المكية، واشتق اسمها من كلمة الذاريات، أي الرياح، المذكورة في أول السورة.

ارتباط السورة بما قبلها

ختمت سورة ق المتقدمة بوصف البعث والحشر، الآيات [ق ٥٠/٤١-٤٥]، وتبدأ هذه السورة بتأكيد وقوعهما: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات ٥١/٥-٦]، وأن الإيمان بالبعث طبيعي في فطرة الإنسان وفي عقله وشعوره، بخلا من يؤفك عن ذلك فتفسد فطرته: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات ٥١/٨-٩]

محور السورة

أن ما يلقاه الإنسان من عواقب إن في الدنيا أو في الآخرة ليس سوى نتيجة طبيعية لعمله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [٥١/٤٠]، وأن نجاة الإنسان لا تكون إلاّ باللجوء إليه تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [٥١/٥٠] وكيفية اللجوء تفسرّه الآية [٥١/٥٦]، وأن طغيان البشر هو الذي يؤدي بهم إلى تكذيب

الرسل: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [٥١/٥٣]، ولكن ما على المؤمنين سوى البلاغ وترك الحساب على الله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ [٥١/٥٤]،

وتبلغ السورة أوجها بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [٥١/٥٦] بمعنى أن الغاية من الخلق أن يعرف الإنسان خالقه وأن يكيّف وجوده الدنيوي بحسب إرادته تعالى المبيّنة فيما نزل على الأنبياء والرسل من الوحي، وهذا المفهوم المزدوج المتمثّل في معرفة الله والتكيف بحسب مشيئته في الخلق يفسر المعنى الحقيقي للعبادة، ولأن العبادة لا يستفيد منها سوى المخلوق: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ [٥١/٥٧]، وأن كل عمل شر يحمل في طياته بذور عواقبه إن في الدنيا أو في الآخرة: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ [٥١/٥٩].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

تبدأ السورة بتذكير الإنسان بواحدة من عجائب الخلق، وهي الرياح التي تذرو الغبار وتحمل الغيوم وتجري بها بسهولة وتوزّع الأمطار على البلاد، فتتحقق معجزة الحياة، مما يؤكد وجود خالق مُدبّر، ومغزى للمخلوق: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ (١-٤)

وبالتالي حتمية البعث: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ (٥)

وحتمية الحساب: ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ (٦)، والدين بمعنى الحساب، ومنه الحديث: "كما تدين تدان".

وتحضّ على التفكر في معجزة خلق السماوات الهائلة: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ (٧) والحُبُك مسارات الكواكب والنجوم،

ومع ذلك فهنالك من البشر مَن يختلف مع هـذا الواقـع فيشـكك في الوحـي والبعـث والحسـاب، ويذهبـون في ذلـك نظريـات متعـددة: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَـوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ (٨)

رغم أن الإيمان بالله والتصديق بالبعث بعد المـوت مغـروس طبيعيـاً في فطرة الإنسان وفي عقله وشعوره، لكن من الناس من تفسد فطرته فيؤفَك عـن ذلـك: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ (٩)

وفساد الفطرة يؤدي بالضرورة إلى هلاك أصحابها بسبب الغفلة والتشـكيك بيوم الحساب: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْـأَلُونَ أَيَّـانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ (١٠-١٢) والخراصون الكذابون القائلون تخميناً بما لا يصحّ، فهـم يسألون تهكماً: متى يوم الحساب؟

فذلك يوم يُعَذّبون على النار التي كانوا يتهكمـون باسـتعجالها: ﴿يَـوْمَ هُـمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (١٣-١٤)

بخلاف المتقين ذوي الفطرة السليمة الموصوفين بالإحسان في كـل شـيء: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِـنِينَ * كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (١٥-١٨)

وفي إيتاء جزء مـن أموالهـم للسـائل والمحـروم كحـقّ مـن حقـوق السـائلين والمحرومين: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (١٩)

والآيات التي عمي عنها الخرّاصون كثيرة في الأرض وفي الأنفـس، وجديـرة أن يبصرهـا كـل فـرد: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِـكُمْ أَفَـلا تُبْصِرُونَ﴾ (٢١-٢٢)

ومن الآيات أيضاً أنه تعالى يرزق العبـاد الـرزق المـادي والـرزق الروحـاني: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (٢٠-٢٢)

كل ذلك ما يؤكد حقيقة البعث: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ (٢٣)

ومن هذه الآيات قصة إبراهيم عليه السلام ومجيء الملائكة له مبشرين بولادة إسحاق وبنزول العقاب بالمجرمين من قوم لوط وما يؤول إليه أمثالهم من العذاب الأليم: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ * فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٢٤-٣٦)

لكن المنتفع من الآيات هو الذي يأخذ العبر منها فيخاف سوء العاقبة: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ (٣٧)، والآية المشار لها هي الدمار التام لأرض قرى لوط،

ثم قصة موسى وبعثته إلى فرعون الذي أدّى به سلطانه واستكباره إلى عمى القلب حتى اتّهم موسى بالسحر أو الجنون، فكانت عاقبة أمره أن غرق في اليم مع جنوده: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ (٣٨-٤٠)، فما يلقاه الإنسان من عواقب سيئة إن في الدنيا أو في الآخرة ليس سوى نتيجة طبيعية لعمله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ (٤٠)

ومثل ذلك كانت قصص قوم عاد وثمود ونوح الذين تمتعوا في الحياة الدنيا لأمدٍ معلوم: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ

عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ * وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ﴾ (٤١-٤٣) فمتاع الدنيا لا يدوم.

حتى لقوا عاقبة أمرهم: ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ * فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ (٤٤-٤٥)

ومثلهم قوم نوح من قبلهم: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٤٦)

ثم تعود السورة لتضرب مثلاً بعض معجزات الخلق الباهرة كمعجزة خلق الكون الذي يتسع باستمرار: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٤٧)

ومعجزة خلق الأرض بما فيها من موارد صالحة لتمهيد حياة البشر: ﴿وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ (٤٨)

ومعجزة خلق زوجين من كل شيء، كخلق الذكر والأنثى في الإنسان والحيوان والنبات، والليل والنهار، والحار والبارد، والموجب والسالب في الكهرباء والمغناطيس وشحنات البروتون والالكترون: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٤٩)

والنتيجة: أنّ من يبصر كل ذلك يفهم أن النجاة لا تكون إلاّ باللجوء إليه تعالى وحده دون غيره: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٥٠)

ولذا فإنّ الشرك أعظم الكبائر: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٥١)

وأن من البشر مَن دأبَ على تكذيب الرسل، ومَرَدّ ذلك يعود إلى الطغيان والتكبر: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (٥٢-٥٣)

ولكن ما على المؤمنين سوى تذكير مَن تنفعه الذكرى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ * وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٤-٥٥)

وأن مغزى خلق الجن والإنس هو العبادة، بمعنى معرفة الله عز وجل والإقرار بالتوحيد، والاستسلام لمشيئته تعالى في الخليقة المتمثلة في قبول الرسالات المتتالية التي نزلت على الأنبياء والرسل وختامها الإسلام، وتكييف الحياة والمعيشة وفق ذلك: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦)

فالعبادة تعود بالسعادة وبالنفع على العباد وحدهم، لأنه تعالى غني عن العالمين: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (٥٧-٥٨)

وأن أعمال الشر تحمل في طياتها بذور العواقب الوخيمة لمرتكبيها، إن في الدنيا أو في الآخرة، فماذا يستعجل منها المجرمون: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ * فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (٥٩-٦٠).

سورة الطور -٥٢-

مكية

نزلت في أواخر الفترة المكية، واشتق اسمُها من ذكر كلمة الطور -جبل سيناء- بأول السورة، إشارةً إلى بدء الرسالات السماوية الثلاث الأخيرة.

ارتباط السورة بما قبلها

تبدو أول السورة وكأنها استمرار لآخر الخطاب في سورة الذاريات المتقدمة حيث يتهكم المجرمون باستعجال العذاب: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الذاريات ٥١/٥٩]، فتبدأ سورة الطور بتأكيد وقوعه لأمثالهم لا محالة: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [الطور ٥٢/٧-٨]،

كما أن تركيز سورة الذاريات على قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات ٥١/٥٦] يتبعه في سورة الطور أن المكذّبين يشكّون في صحة الوحي دون دليل عقلي، بل إن طغيان عقولهم يزيّن لهم الشعور بالاكتفاء الذاتي وعدم حاجتهم إلى الوحي: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الطور ٥٢/٣٢]، مع أنهم قاصرون عن خزائن العلم والغيب والقدرة الإلهية: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ [الطور ٥٢/٣٧].

محور السورة

تحشد السورة البراهين الواضحة على صدق الوحي الذي نزل على الرسل مفهوماً لِمن أراد أن يفهم، ما لا يترك عذراً للمكابرين، وبالتالي العاقبة الوخيمة التي تحيق بهم بما هو ضرورة متلازمة مع سلوكهم في الحياة الدنيا: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [١٦/٥٢]، وأن الطغيان أول ما يطغى على عقل صاحبه: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [٣٢/٥٢]، وأنهم عاجزون كل العجز عن الإتيان بمثل القرآن: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [٣٤/٥٢]، بل إنهم قاصرون عن خزائن العلم والغيب والقدرة الإلهية: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ [٣٧/٥٢]، وأن الصبر وانتظار حكم الله واجب: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [٤٨/٥٢].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

تبدأ السورة بالإشارة لجبل الطور بسيناء حيث نزل الوحي على موسى عليه السلام: ﴿وَالطُّورِ﴾ (١)

وإشارة أيضاً إلى كتب الوحي التي نزلت على الأنبياء: ﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾ (٢)

والوحي واضح ومنشور لمن أراد الفهم: ﴿فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾ (٣)

وإشارة إلى بيوت العبادة، وقيل إلى المسجد الحرام خاصةً المعمور بزوّاره: ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ (٤)

وإشارة أيضاً إلى معجزة خلق السماوات التي تبهر العقول: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ (٥)

والبحار التي تموج وما فيها من مخلوقات: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ (٦)

كل ذلك الإعجاز ما يشير أن الخلق ليس عبثاً، بل إلى حتمية الحساب والمسؤولية الأخلاقية تجاه الخالق: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ (٨)

وأنّ النظام الكوني والدنيوي الذي نعرفه محدود في الزمان والمكان، وبعده تبدأ مرحلة جديدة من الخلق: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ (٩-١٠)

كل ذلك ما ينذر المكابرين المكذّبين بالوحي، الخائضين فيما لا يعلمون: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ (١١-١٢)

أن لا مفر من تحمل جزائهم المترتب على سلوكهم: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (١٣-١٤)

فيوقنوا وقتئذ بما كانوا يظنونه عبقرية وسحراً: ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ﴾ (١٥)

وأن العذاب الذي ينتظر أمثالهم ليس سوى نتيجة طبيعية ومنطقية لسلوكهم خلال حياتهم الدنيا، فيستوي إذن أن يصبروا أو لا يصبروا عليه: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٦)

كما أن النعيم الذي ينتظر المتقين نتيجة طبيعية أيضاً لما كانوا عليه في حياتهم من عمل واستبصار: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ (١٧-٢٠)

ومن ذلك أنّ تربية الذرية على الصلاح ما يودي لتقواها تزيد من حسنات الآباء: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ

عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ غير أن المسؤولية فردية، فتقوى الآباء لا تعفي الأبناء من المسؤولية في حال ضلّوا عن الطريق السوي: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (٢١)

وأنهم ينعمون بالرضا الداخلي التام وبالسلام الروحي: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لا لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ (٢٢-٢٤)

وإقبال بعضهم على بعض في الآخرة يتساءلون عما كانت عليه أحوالهم في الدنيا دليل على أن الآخرة استمرارٌ للدنيا ونتيجة طبيعية لها: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ (٢٥-٢٨)

وأن ليس على الرسول -وبالتالي المؤمنين- سوى التذكير لا الإكراه: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ﴾ (٢٩)

لأن المكابرين في حالة ريب وتخبط في أقوالهم وأفكارهم بسبب قصور فكرهم على الحياة الدنيا، وهُم يتربصون أن يتضح زيف الرسالة بزعمهم، في حين الرسول والمؤمنون يتربصون تحقق صدقها على وجه اليقين: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ (٣٠-٣١)

وأن الطغيان أول ما يطغى على عقل صاحبه: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (٣٢) والأحلام هي العقول.

فيؤدي به إلى التكبر والشعور بالاكتفاء الذاتي وإلى الزعم أن القرآن ليس سوى قول البشر: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣)

في حين أنهم عاجزون كل العجز عن الإتيان بمثله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (٣٤)

وأن ضعف اليقين يقود إلى التخبط في حقيقة الخلق: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لا يُوقِنُونَ﴾ (٣٥-٣٦)

وأن لله وحده خزائن الغيب والعلم النهائي والقدرة المطلقة ما لا يستطيعون الإحاطة به: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ * أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (٣٧-٣٨)

ومن تخبط المشركين في الجاهلية أن زعموا الأصنام بنات الله، فنسبوا لله ما يكرهون لأنفسهم: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ (٣٩)

وأن النبي كان بصدد تصحيح مفاهيمهم المغلوطة وليس بصدد نفع مادي شخصي يثقل كاهلهم: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ (٤٠)

وبكل تأكيد لا يحيطون بشيء من علوم الغيب التي خارج النطاق البشري، وإنما يجرون وراء الأوهام التي تزيّن لهم أنهم محور الكون وقادرون على السيطرة عليه كما هي حال الكثيرين اليوم ممن أصابهم غرور التكنولوجيا: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ (٤١)

وإن كانوا يترصدون السيرة النبوية والقرآن الكريم لاستنباط ما يتوهمون أنه تناقضات كما يفعل بعض المستشرقين اليوم، فقد غفلوا عن وقوعهم هُم في التناقضات: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ (٤٢)

ويظنّون أنّ بإمكانهم الاعتماد على حولهم وقوّتهم مع أنّ القوة لله جميعاً: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٤٣)

وأنهم يفسرون إشارات العذاب بصورة سطحية: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ (٤٤)

ومع ذلك فعلى المؤمن الصبر عليهم حتى تعين العاقبة: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٤٥-٤٦)

وأن العذاب لا بد أن يقع بهم في الحياة الدنيا قبل الآخرة فيبقى أكثرهم غمون عن سببه: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٧) ومن عذاب الدنيا شعورهم بالوحدة والتيه والضياع.

ولذا فإن الصبر وانتظار حكم الله واجب وجوب التسبيح والحمد على الدوام: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ (٤٨-٤٩).

سورة النجم -٥٣-

مكية

من أوائل السور المكية، غير أن بعضاً من آياتها (١٣-١٨) -كالتي تشير إلى حادثة المعراج- نزلت في وقت مكّي متأخر أي حوالي سنة واحدة قبل الهجرة النبوية، واشتق اسم السورة من كلمة النجم المذكورة في أولها والتي تشير إلى بداية نزول القرآن منجّماً.

ارتباط السورة بما قبلها

تبدو الاستمرارية بين هذه السورة وسورة الطور التي قبلها إذ تحض سورة الطور في آخرها المؤمنين على الصبر على الكفار وتأمرهم بالتسبيح وقت الصبح -إدبار النجوم-: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور ٥٢/٤٩]، ثم بداية هذه السورة بقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ [النجم ٥٣/١]، إشارةً إلى ابتداء نزول القرآن منجّماً على النبي ﷺ.

وإذ حشدت سورة الطور البراهين الواضحة على صدق الوحي، وأن المكابرين عاجزون كل العجز عن الإتيان بمثل القرآن: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور ٥٢/٣٤]، تُظهر سورة النجم الإعجاز القرآني في نزوله منجّماً على النبي ﷺ على مدى بعثته النبوية بترتيب مختلف عن ترتيب النزول.

محور السورة

الإعجاز في نزول القرآن منجّماً على مدى ٢٣ عاماً من البعثة النبوية دليل قاطع على استحالة ضلال النبي، ودليل أيضاً على أنه وحي عن طريق جبريل الذي رآه النبي بصورته الحقيقية مرتين: الأولى في بداية الوحي كما في قوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [٥٣/٦ ٩]، والثانية ليلة المعراج عندما رأى بعضاً من مظاهر الحقيقة الغيبية المطلقة: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [٥٣/١٨]

وفي مقابل تلك الحقيقة الغيبية المطلقة تلفت السورة النظر إلى رموز زائفة يسبغ عليها بعض الجهلة صفات وقدرات إلهية مزعومة كما كانت العرب تفعل في الجاهلية مع أوثانها، وكما يفعل البعض في كل زمان ومكان اتّباعاً للظن والهوى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [٥٣/٢٣] وأن الظن لا يغني عن العلم اليقيني: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [٥٣/٢٨]

والنتيجة أن السورة تأمر المؤمنين بالإعراض عن أمثال هؤلاء الغافلين اللاهين، لأن تولّيهم عن الذكر جعلَ الحياة الدنيا واستغراقهم بها منتهى علمهم: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [٥٣/٢٩] ولأنه تعالى يجازي كلاً بعمله: ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [٥٣/٣٨]،

وتختم السورة بنهي المؤمنين عن الفخر والإعجاب بالنفس غروراً، وتحشد شواهد المعجزات الكونية وعِبراً من نماذج الأمم البائدة والسنن الكونية، وبالتالي تنذر الناس بقرب وقوع الساعة والحساب، وتحذرهم من الغفلة: ﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ [٥٣/٦١] وتدعوهم لعبادة الله الواحد الأحد والسجود له.

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

تبدأ السورة بالتنبيه على زاوية من زوايا الإعجاز القرآني المذهلة وهي تنزُّل القرآن نجوماً على مدى ثلاثة وعشرين عاماً من البعثة النبوية الشريفة، لأنّ ترتيب النزول بالآيات والسور غير ترتيب القرآن، فهو كلوحة من الفسيفساء هائلة، كان النبي الأميّ يأمر بوضع كل آية وقت نزولها في مكانها الصحيح من تلك اللوحة ولم يكن لديه مجال للتنقيح أو التعديل أو التغيير كما لم يكن لديه من مرونة وتكنولوجيا وسائل الكتابة والطباعة ما نعرفه اليوم، ومع ذلك يكتمل الوحي بعد ثلاثة وعشرين عاماً من البعثة بقرآن متكامل متماسك معجز، كل سورة من سُوَره متسلسلة الآيات من أولها لآخرها بنظم فائق الإحكام، وكل سورة في ترتيبها القرآني متصلة مع ما قبلها وما بعدها من السُّوَر كأن القرآن كلُّه سورة واحدة، كل ذلك ما يفيد قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ (١)، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة ٥٦/٧٥]، ما يدلّ أن ترتيب السور والآيات توقيفي من الله عزّ وجلّ.

فيستحيل إذن اتهامهم للنبي بالضلال مع هذا الإعجاز، فهو قطعاً لم يضل ولم يعتقد باطلاً: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ (٢)، وتعبير "صاحبكم" إشارة لسيرته الشريفة في قومه وما عُرف عنه طيلة حياته من الاستقامة والأمانة.

ويستحيل أن يكون الوحي من عنده، فهو لا يتّبع هواه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ (٣)

وما القرآن الذي ينطق به سوى وحي من الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ (٤)

والذي علّمه القرآن هو واسطة الوحي جبريل عليه السلام: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ (٥)، وجبريل شديد القوى لما به من قوى خارقة كما سيرد وصف بعضها بالآيات التالية.

وقد استوى جبريل للنبي في الأفق الأعلى بمنظر وهيبة عظيمين: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى﴾ (٦-٧)

ثم اقترب من النبي متدلّياً من الأفق حتى صار شديد القرب منه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (٨-٩)

فأوحى تعالى إلى عبده محمد، بواسطة جبريل، ما قضى تعالى بإبحائه: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ (١٠) وفي الآية إشارة ضمنية أن الله تعالى لا يكشف حُجُبَ الغيب كاملةً حتى لأنبيائه المختارين.

وإذ كان النبي واعياً تمام الوعي لما رأى فلم يكن لديه أدنى شك في حقيقته، بل إن ما رآه الفؤاد -روحانياً- تطابق مع الواقع فلم يكذّبه: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ (١١)

ولّما لم يكن ما رآه النبي ضلالاً فأنّى للمشككين أن يجادلوا فيما لا يعلمون: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ (١٢)

ولقد رأى النبيُّ جبريلَ مرة أخرى ليلة المعراج عندما نزل إليه جبريل، كما سبق أن نزل إليه في غار حراء عندما دنا فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ (١٣-١٥) ووصف السدرة بالمنتهى قد يكون إشارة لأنها منتهى ما يمكن أن يعرفه البشر -عن فيهم الأنبياء- عن الحقيقة المطلقة التي احتفظ بها الخالق عزّ وجل لنفسه.

وقد غشيَ السدرة ما يغشى من الجلال والهيبة والروعة ما لا يمكن لوصف أن يعبّر عنه أو يحيط به: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ (١٦)

ولم يكن هنالك من زيغ في بصر النبي إذ لم ينحرف عن حقيقة ما رآه، ولا طغى عن الواقع فما زاد عليه: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ (١٧)

فرأى النبي ﷺ بعضاً من آيات ربه: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (١٨) بمعنى أنه لم يرها جميعاً تأكيداً لما سبق ذكره بالآية (١٠)

ومن قمة الحقائق الغيبية السامية التي رآها الرسول ﷺ ابتداءً من نزول الوحي القرآني عليه في غار حراء ثم ما شاهده ليلة المعراج، تنتقل السورة فتقارن ذلك مع حضيض الأوهام والرموز الزائفة التي كان يتعلق بها مشركو مكة كأصنام اللات والعزّى ومناة التي زعموا أنها والملائكة بنات الله ونسبوا إليها قدرات إلهية مزعومة: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ (١٩-٢٠)

وهذا الزعم من طرفهم في منتهى السخافة والتناقض، إذ هم يحتقرون الأناث ويعدون البنات ثم ينسبون إلى الله تعالى ما يكرهون: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ (٢١-٢٢) أي قسمة جائرة،

كما أن أصنامهم في منتهى العجز فهي لا تعدو كونها أسماء فارغة، وعلى النقيض من الهدى اليقيني الذي جاءهم به الرسول، فإنهم من قبيل الظنّ يعتقدون أن الأصنام تقربهم إلى الله زلفى: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ (٢٣)

ومن قبيل التمنّي أيضاً يظنون أنّ أوثانهم تشفع لهم عند الله تعالى: ﴿أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ (٢٤)

مع أنّ مقاليد الحياة الآخرة والحياة الدنيا بيده تعالى وحده فليس بحاجة إلى شفعاء: ﴿فَلِلّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى﴾ (٢٥)

وإن كانت الملائكة لا تغني شفاعتها شيئاً فمن باب أولى أن آلهتهم المزعومة لا تقدر على شيء: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (٢٦) وحتى الملائكة لا تشفع إلا لمن يشاء تعالى أن تشفع له ويراه سبحانه أهلاً للشفاعة.

وإن تسميتهم الملائكة بنات الله من الشناعة بحيث لا يجترىء عليها إلاّ كمَن لا يؤمن بالآخرة أصلاً ويأمَن عقابها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى﴾ (٢٧)

وهم يتخبّطون في أمور الغيب، ويستخدمون الظنّ في مواضع اليقين: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (٢٨)

فلا على المؤمن المبالغة في الحرص على هداية مَن أصرّ على التولّي عن القرآن وانهمك في الجري وراء الدنيا: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٢٩)

والسبب في الأمر بالاعراض عنهم أنّ منتهى علمِهم مقتصر على الحياة الدنيا دون الآخرة فلا فائدة من المبالغة في الحرص على هداهم، ولا يقابلهم المرء بصنيعهم، وأمرُهم إلى الله: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ (٣٠)، وأنه تعالى أعلم بمن يؤول به استعداده السيء وفطرته التي فسدت إلى الضلال، وأعلم أيضاً بمن يؤول به استعداده الحسن والفطرة السليمة إلى الهداية.

وأن الله تعالى يجازي كلاً بعمله، وفي حين أن المسيء يلاقي جزاء إساءته تطبيقاً للعدالة، فإن المحسن يلاقي أضعاف إحسانه: ﴿وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ

وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ (٣١)، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام ٦/١٦٠].

أما الذين أحسنوا الموصوفون باجتناب الكبائر والفواحش: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ فليس من إنسان معصوم عن الخطأ: ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ لأن الإنسان خُلقَ ضعيفاً، انظر [٢٨/٤]، وقد خلق تعالى البشر من سلالةٍ من طين، انظر آية [١٢/٢٣]: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ﴾ ثم خلقهم أجنّة ضعافاً في بطون أمهاتهم: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ فهو أعلم بهم من أنفسهم فلا يفخرنّ أحدٌ بصلاحه ولا يعجب بنفسه: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى﴾ (٣٢)، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء ٤/٤٩].

وهنا تعود السورة لموضوع الآيات (٢٩-٣١): ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ (٣٣)، أي الذي تولّى عن الذكر المشار إليه بالآية (٢٩).

ولم يتصدّق إلاّ بالقليل على مضض واتّبع شحّ نفسه: ﴿وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى﴾ (٣٤)

فأنّى له التأكد أن ليس من آخرة ولا حساب؟ ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ (٣٥)

رغم أنه سبق بعث الرسل، كإبراهيم وموسى، بحقيقة الآخرة والحساب: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (٣٦-٣٧)

وأنّ المسؤولية فردية، فآلهتهم المزعومة كاللات والعزّى ومناة وأمثالها لا تفيد شيئاً ولا تشفع لأحد، كما لا يفيد أحداً الزعم أن المسيح افتدى خطايا البشر بالنيابة عنهم: ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (٣٨)

بل إن الإنسان يُحاسب على ما قدّم من عمل في دنياه، وما أخّر أي ما ترك من عمل فلم يقم به: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى﴾ (٣٩-٤١)

وأنْ ليس من شيء في الوجود إلاّ وينتهي أمرُه إليه تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ (٤٢)

وقد أودع في الإنسان قابلية الضحك والبكاء وأوجد سنن السعادة والشقاء: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ (٤٣)

وخلقَ في الدنيا معجزة الموت والحياة، ومعجزة الذكر والأنثى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ (٤٤-٤٦)

ثم يكمل ذلك بنشأة الآخرة: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى﴾ (٤٧)

ومنه وحده العطاء الذي يغني الإنسان فيقتني ما يحلو له: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ (٤٨)

ومع ذلك كان من العرب في الجاهلية مَن يعبد نجم الشعرى المضيء وينسبون له تأثيرات معينة فالآية تنفي ذلك: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ (٤٩) والآية أيضاً مجاز أنه تعالى رب الكون بأكمله ومدبّر أموره.

وأن من سننه تعالى في الحياة الدنيا أن الظلم والطغيان يؤديان إلى هلاك أصحابه كما حدث لعاد وثمود وقوم نوح والمؤتفكة -قوم لوط- كلّهم هلكوا بظلمهم وطغيانهم: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَى * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى * وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ (٥٠-٥٢)

وجعلَ مصير قرى قوم لوط إلى الهاوية إذ انقلب عاليها سافلها وغشّاها من العذاب ما لا يُعرف مداه: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾ (٥٣-٥٤)

فكيف للإنسان، الآيات (٣٣-٣٥)، أن يشكك في عظمة الخلق والقدرة الإلهية: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ (٥٥)

فهذا القرآن ليس سوى استمرار للرسالات الأولى التي سبقتهُ في الإنذار بالقيامة والحساب: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولَى﴾ (٥٦) وفي الآية عودة ضمنية إلى أول السورة التي تشير لنزول القرآن منجّماً.

فالساعة قريبة وهي تقترب أكثر فأكثر: ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ (٥٧)

ولا يكشف ساعة وقوعها إلا الله: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ (٥٨) والمعلوم أنّ اقتراب وقوعها لا علاقة له بالمفهوم البشري للزمن.

فكيف يعجبون من آيات القرآن الكريم وإنذاره لهم بوقوع الساعة: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ (٥٩) وهنا أيضاً إشارة ضمنية لإعجاز القرآن وعودة لموضوع أول السورة.

فالآخرة المحتومة والحساب القادم يستحقان البكاء وليس الضحك: ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ﴾ (٦٠)

ومع ذلك فإنّهم لاهون غافلون يضيعون أوقاتهم في أعمال دنيوية ليست في واقعها سوى خيلاء فارغ: ﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ (٦١) في إشارةإلى المذكورين بالآيات (٢٨-٣٠) و (٣٣-٣٧).

في حين من الخير لهم معرفة خالقهم واتباع قرآنهم وتكييف حياتهم وفق ما خُلقوا لأجله والسجود والعبادة لخالقهم قولاً وفعلاً: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ (٦٢)

سورة القمر -٥٤-

مكية

نزلت في أوائل الفترة المكية.

ارتباط السورة بما قبلها

هنالك استمرارية واضحة بين آخر سورة النجم: ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ [النجم ٥٣/٥٧]، وبين بداية هذه السورة: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر ٥٤/١]،

وأيضاً الإشارة لإعراض المعرضين في سورة النجم: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ [النجم ٥٣/٣٣]، والإشارة لإعراضهم في هذه السورة: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ [القمر ٥٤/٢]،

وإخبار سورة النجم عن معراج النبي ورؤيته جبريل ما يقابل قوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ [القمر ٥٤/٤]،

وقوله تعالى في سورة النجم: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ [النجم ٥٣/٥٩]، ثم قوله في هذه السورة: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر ٥٤/١٧]،

وقوله تعالى في سورة النجم: ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ﴾ [النجم ٥٣/٦٠] في إشارة لقوله في سورة القمر: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ [القمر ٥٤/٤٦]،

وقوله تعالى في سورة النجم: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَى * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى﴾ إلى قوله: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ [النجم ٥٣/٥٣]، ثم تفصيل هلاكهم في سورة القمر.

وإنْ فسّرنا قولَه تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ [النجم ١/٥٣] على ظاهره، فتكون هنالك علاقة بين الإشارة لهُويّ النجم في السورة السابقة والإشارة لانشقاق القمر في هذه السورة، ما يفيد اختلال النظام الكوني عند وقوع الساعة.

محور السورة

تقرر السورة اقتراب الساعة وحتمية وقوعها وعندها يختل النظام الكوني الذي نعرفه: ﴿اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [١/٥٤] ومع ذلك فالناس في إعراض وتكذيب واتّباع للهوى، مع أن الأحداث زاخرة بالعبر وبالحكم البالغة: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ الأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ [٤/٥٤] والقليل من الناس مَن يتواضع ويعتبر: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [٥/٥٤] ما يوجب على العاقل التولّي عن المستكبرين: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ [٦/٥٤]،

ثم تضرب السورة أمثلة على ذلك قصصاً من سنته تعالى في خلقه كأخبار قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط والعبر منها والعواقب الوخيمة التي انتهت إليها هذه الأقوام كنتيجة طبيعية لما كانت عليه من الاعتداد بالنفس والتولّي عن الذّكر، وأن الكفار في كل وقت لا يشذّون عن هذه القاعدة: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [٥١/٥٤]، وأن كثرة مَن هم على الباطل ليست بالضرورة مؤشراً أنهم على صواب: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ [٤٤/٥٤]، بل على النقيض من ذلك فإن نهايتهم المحتومة لا مفر منها: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [٤٥/٥٤]،

وأنه تعالى لم يكن ليهلك قوماً قبل إنذارهم بمعايير الصواب من الخطأ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [٥٤/٥٢]، وأنه ختَمَ الرسالات السماوية بالقرآن الكريم ميسّراً لمن أراد أن يتذكر الحقائق ومعايير الأخلاق والعبر، ويتذكر الميثاق الفطري المأخوذ عليه في الأصلاب: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [٥٤/٤٠].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

تبدأ السورة بتأكيد اقتراب الساعة، وعندئذٍ يختل النظام الكوني من قمر وغيره، واستخدام الفعل الماضي لبيان تحقق وقوعها لا محالة فكأنها وقعت فعلاً، وقيل إنهم رأوا القمر منشقاً وقت بعثة النبي ﷺ: ﴿اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (١) والواضح من آيات قرآنية عديدة أن لا علاقة لاقتراب الساعة بالمفهوم البشري للزمن.

ومع ذلك فالكفار مكابرون معرضون يعزون الآيات الباهرة من حولهم إلى السحر والصنعة: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ (٢)

وتوضح السورة أن سبب التكذيب يعود إلى اتّباع الهوى، ولكن لا بد للحقيقة أن تستقر وتظهر للمكذّبين، إنْ عاجلاً في الدنيا أو آجلاً في الآخرة: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ (٣)

والحِكَم البالغة فيما جاء من إخبار الوحي عن الحياة الآخرة، وأنّ أعمال المرء في هذه الدنيا يترتب عليها نتائج معينة في الآخرة، وما سبق من العبر في تاريخ الأمم البائدة، وما يُشاهَد في الكون من آيات الخلق وتجدده، كل هذه الأنباء تزجر منفتحي الذهن غير أنها لا تفيد المصرّين على التكذيب: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ الأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ (٤)

فالنُذُر وما فيها من الحكم البالغة لا تنفع المكابرين ولا تزجرهم لأنهم في حالة من التشنج الفكري واتخاذ القرار المسبق: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ (٥)

ولا سبيل للمؤمن في هذه الحالة سوى التولّي عنهم فليس عليه إلجاء غيره إلى الإيمان قسراً: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ (٦)

فلا سبيل إلى إيمان المصرّين على الكفر إلاّ يوم الحشر، عندما لا ينفعهم إيمان المعاينة: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ (٧-٨)

وأن مثلهم كمثل قوم نوح من قبلهم كذّبوا بالبعث والجزاء، كما كذّبوا نبيّهم ونسبوه إلى الجنون وزجروه بدلاً من أن تكون بعثته زجراً لهم عما كانوا عليه من الضلال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ (٩)

فلما أيسَ منهم ومن إيمانهم دعا ربّه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ (١٠)؛ ونظيره دعاؤه عليهم بآية [نوح ٢٦/٧١].

فلاقوا جزاءهم في الدنيا قبل الآخرة: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ (١١-١٢) عندما التقت مياه السماء بينابيع الأرض.

ونجا نوح والمؤمنون على سفينة أعدّوها سلفاً من ألواح خشبية ومسامير أو رباطات من ليف، ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ (١٣)

وقوله ﴿ذات ألواح ودسر﴾ دلالة على ضعف التدبير البشري لولا أنّ السفينة تجري بعناية الله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ (١٤)

فبقيت السفينة، أو جنس السفن عامةً، آية من آيات الخلق إذ هي دليل على ما أودعه تعالى في عقول البشر من إمكانات الإبداع: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (١٥)

وهذا المثال يتكرر في المجتمعات التي تظلم نفسها بتكذيب النذر السماوية: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ (١٦)

وفي القرآن الكريم الكثير من العِبَر لمَن أراد أن يتذكّر الفطرة السليمة التي فطره الله عليها، ولمن أراد أن يتذكر العهد المأخوذ عليه في الأصلاب (الأعراف ١٧٢/٧): ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (١٧)

وتضيف السورة مثلاً ثانياً قصة عاد، وكيف هلكوا بنتيجة استكبارهم وتكذيبهم بعثة نبيهم هود: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (١٨-٢٢)

وقصة ثمود مثلاً ثالثاً حيث زعموا -كما يزعم الكثيرون في كل وقت- استحالة نزول الوحي على بشر، وهو سبب كافٍ عندهم لتكذيب الرسالة: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ (٢٣-٢٤)

فظلموا عقولهم وعموا عن تقييم بعثة هود من حيث جدارتها: ﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ * سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ﴾ (٢٣-٢٦) وقوله ﴿غداً﴾ ما يفيد المستقبل إن في الدنيا أو الآخرة.

وقد فتنهم تعالى بناقة سائبة لا مالك لها، فأمرهم نبيهم صالح أن يذروها تأكل في أرض الله وأن يشاطروها مورد الماء، وهو أضعف تعبير عن فعل الخير مع مخلوقات الله الضعيفة، فقابلوه بعقرها إمعاناً في إبداء سوء استعدادهم

وإظهاراً للشر الكامن في نفوسهم وسوء سريرتهم، فحقّ عليهم العذاب: ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ * فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ (٢٧-٣١)، والمغزى أنّ الله تعالى لا يعاقب الناسَ بما يعلمه من سوء سرائرهم ولكن حتى تظهر أفعالُهم إلى حيز التنفيذ.

والقرآن بما فيه من أمثال هذه الحكم والعبر ميسّر لكل ذي عقل سليم أن يتذكّر الفطرة السليمة: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (٣٢)

ثم تنتقل السورة إلى قصة قوم لوط مثلاً رابعاً: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ (٣٣)

وقد استغرقوا في الفحش الشاذ وكذّبوا بالنذر استكباراً وعتوّاً فكان عاقبة أمرهم حجب إدراكهم السليم وطمس قلوبهم بميولهم الشريرة وفساد فطرتهم كما هي سنته تعالى في أمثالهم: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ * نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ * وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ * وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ * فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ (٣٤-٣٩)

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (٤٠) بأمثال هذه العبر.

ومثلاً خامساً قصة قوم فرعون وبعثة موسى إليهم: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ (٤١)، وقبل موسى جاءتهم بعثة يوسف فتشكّكوا بها ثم بعد موته أيقنوا على ضلال أن ليس من رسل: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ [غافر ٤٠/٣٤].

حتى أخذهم تعالى أخذ عزيز مقتدر ولم ينفعهم ما كانت عليه دولتهم من قوة وجبروت عظيمين في عصرهم: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ (٤٢)

فإن كانت هذه سنة الله في خلقه منذ الأزل فما بال الكفار بعدهم وفي كل زمن يظنون أنفسهم خيراً من سابقيهم عاقبةً، أو يظنون أنفسهم شعب الله المختار جاهليةً واستعلاءً ويفترون على الله في الكتب التي يسمونها "مقدسة": ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ (٤٣)

وإن كانوا مغترين بكثرتهم وغالبيتهم فالعبرة ليست بالأكثرية التي قد تكون على ضلال، كما أنّ الأكثرية لا تجعل الباطل حقاً: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ (٤٤)

والباطل مهما كثر واجتمع فهو إلى زوال في الدنيا قبل الآخرة: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (٤٥)

أما في الآخرة فعاقبة المغترين بالباطل أدهى وأمرّ: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ (٤٦)

والمجرمون اليوم في ضلال، وغداً في السُّعُر: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ (٤٧-٤٨)

وأنه تعالى خلق كل شيء بقَدَرٍ موزون، وعجائب هذا التقدير نراه حولنا في دقائق الكون التي لو كانت على غير ما هي عليه لما قامت حياة ولاختلّ النظام الكوني: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (٤٩)

وأن وقوع قضائه تعالى في خلقه أسرع من لمح البصر: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (٥٠)

وأن إهلاك أشياعهم من الأمم البائدة جدير بالتذكر: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (٥١)

وأن ما ارتكبوه من شرور لا عذر لهم فيه فالكتب المنزلة سبق أن بيّنت لهم معايير الحق من الباطل: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ (٥٢)، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ﴾ [الشعراء:٢٦/٢٠٨].

وأنه لا يغيب عن علمه تعالى من عمل الإنسان شيء، صغيراً أم كبيراً: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ (٥٣)

فيجازي كلاً بعمله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ (٥٤-٥٥).

سورة الرحمن -٥٥-

مكية، وقيل مدنية، وقيل فيها مكي ومدني

الاكثرون على أن هذه السورة مكية، لكن البعض ينسبها إلى الفترة المدنية، وقيل بعض آياتها مكية والبعض الآخر مدنية، وقيل أيضاً أنها نزلت بعد سورة الرعد، والنتيجة أنه مختَلَف في كونها مكية أو مدنية.

ارتباط السورة بما قبلها

بعد أن ختمت سورة القمر المتقدمة بقوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر ٥٤/٥٥] تبدأ هذه السورة بقوله: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ [الرحمن ٥٥/١]؛

وبعد أن أشارت السورة السابقة في أكثر من موضع إلى أن القرآن مُيسّر لمن أراد الذكرى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر ٥٤/٤٠]، تبين هذه السورة أنّ الرحمن تبارك اسمُه علّم القرآن -لمنفتحي الذهن-: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن ٥٥/١-٢]؛

وإشارة السورة السابقة أن الكتب السماوية بينت للناس معايير الصواب من الخطأ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر ٥٤/٥٢]، ما يفيد قوله تعالى في هذه لسورة: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن ٥٥/٧]؛

وقوله تعالى في سورة القمر: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ [القمر ٥٤/٥٣]، ما يفيد قوله في هذه السورة: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ﴾ [الرحمن ٥٥/٣٩]؛

وقوله تعالى في سورة القمر: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر ٥٤/٤٧]، يقابله قوله في هذه السورة: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ﴾ [الرحمن ٥٥/٤١]؛

وقوله تعالى في سورة القمر: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر ٥٤/٥٤]، وتفصيله قوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن ٥٥/٤٦].

محور السورة

تقرر السورة أنّ الرحمن تبارك اسمه أنزل على الإنسان علم القرآن -لِمَن أراد أن يتعلّم-: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [٥٥/١]، وكرّمَ الإنسان بأن أمكَنَهُ من التعبير عن المسمّيات والفكر المجرّد: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [٥٥/٤]، ووَضع القوانين والسنن لتنتظم بها الأكوان والخلق، وأمر بتحقيق العدالة: ﴿أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ [٥٥/٨]، وخلق الإنس والجان، وسخّر الأرض ومعجزاتها للكائنات، وكتب عليها ألاّ يكون لها خلود على الأرض: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [٥٥/٢٦]، وأنّ جلالَه تعالى وتدبيره العجيب في الخلق دائمُ الظهور: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [٥٥/٢٩]، وأن لا بد لكل مخلوق أن يواجه الحساب يوماً: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ﴾ [٥٥/٣١]، حيث لا مفر يومئذٍ من ملك الله تعالى ولا من قضائه وسلطانه: ﴿لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ [٥٥/٣٣]، وتجدُ كل نفسٍ ما عملت مُحضراً: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ﴾ [٥٥/٣٩]، فيُجزى

المجرمون بأعمالهم، ويُجزى الذين خافوا مقام ربهم بجنان ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [٤٦/٥٥] من بعدها جنان ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [٦٢/٥٥]، لا يحيطُ بنعمائها مفهوم البشر، وبنتيجة كل ذلك يتكرر الخطاب في السورة موجّهاً إلى الذكور والأناث من البشر -كما قال الرازي- أو إلى جنس البشر والجانّ: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي يستحيل إنكار أيٍّ من نعمائه تعالى أو قدرته في الدنيا والآخرة.

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الرَّحْمَنُ﴾ (١) الذي أنزَل القرآنَ رحمةً للناس، وجعلَ من سننه في خلقه أن يتعلّمه منفتحو الذهن: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ (٢)

وكرّم الإنسان فوق غيره من الخلق بأن أقدَرَه على الفهمِ والفكر المحرّد، والتعبير عنه: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (٣-٤)

وأن جعلَ الأكوان تسير وفق قوانين منتظمة ثابتة وسنن ذات مغزى بلا فوضى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ (٥-٦)

وأقام أسس العدالة بين البشر لئلاّ يطغوا على بعضهم البعض: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ (٧-٨)

وأمر بتحقيق العدالة بينهم: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (٩)

وسخّر الأرض لمعاشهم: ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾ (١٠)

بما فيها من عجائب ومعجزات مدهشة: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ (١١-١٢)

فأنّى لجنس الإنس والجن أن يكذّب بمقدرته تعالى ونعمائه: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١٣)

وقد خلقهما تعالى من ضعف: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١٦)

وخلق معجزة المشرقين والمغربين، فعندما يتقدم المشرق على أحد أطراف الكرة الأرضية يتقدم المغرب على طرفها الآخر في حركة مستمرة من الشرق إلى الغرب، وبعد دوران الكرة ١٨٠ درجة يصبح المشرق مغرباً والمغرب مشرقاً: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١٨)، وفي آية المعارج: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ [المعارج ٧٠/٤٠] لأن كل خطوط الطول للكرة الأرضية تصبح مشارقاً ومغاربا على مدار الأربعة وعشرين ساعة.

ومعجزة التقاء المياه العذبة مع المياه المالحة عندما تصب الأنهار الضخمة في البحار فتجري مياه الأنهار العذبة في المحيط مخترقة مياه البحر لمسافات طويلة دون أن تختلط معها فلا يبغي أحدهما على الآخر كما لو كان هنالك حاجزٌ بينهما: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١٩-٢١)

ومعجزة تشكل اللؤلؤ والمرجان: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٢٢-٢٣)

ومعجزة السفن الضخمة تجري في المحيطات والبحار بما كرّم اللهُ تعالى الإنسانَ على سائر المخلوقات وما حباه من مقدرة على الإبداع والاختراع ليس فقط للسفن وإنما لسائر أنواع التقانة التي نراها اليوم، وقد نسب تعالى السفنَ إلى ذاته العليّة لكونه هو الذي أودع في البشر مقدرةَ الإبداع: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٢٤-٢٥)

وكتب على المخلوقات أن يكون لبثها في الدنيا قليلاً فلا يتمكن أحدُهم من الخلود فيها رغم كل العلوم والتقانة: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [٢٦-٢٨]

بل إنّ كل مَن في السماوات والأرض يستمدّ وجودَه من الله، فلا موجود بحق غيرُه: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وأن مظاهر جلاله وعظمته تتجلّى في الخليقة بلا انقطاع: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٢٩-٣٠)

وأن لا مفر للمخلوقات من مواجهة المسؤولية والحساب يوم الدينونة: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٣١-٣٢) وقيل معنى الثقلين أنهما مثقلان بالمسؤولية، بل بالذنوب.

كما لا مفر ولا ملجأ لمخلوق من ملكه تعالى وقضائه إلاّ لقضائه: ﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاّ بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٣٣-٣٤)

ولا مفر من أهوال الساعة: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٣٥-٣٦)

وأن النظام الكوني ينتهي وينقطع يوم الحساب: ﴿فَإِذَا انشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٣٧-٣٨)

فتمثُل ذنوب المخلوقات أمامهم: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٣٩-٤٠)، ونظيره قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء ١٧/١٤]،

ولا يكون هنالك أي لبس في سيماء المجرمين من غيرهم فيكبلون بحالة من

الإذلال جزاء استكبارهم وغرورهم اللذين كانا يدفعانهم إلى الكفر: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٤١-٤٢)

ثم يلاقون عياناً ما كانوا يكذّبون به من العذاب ويعانون الحسرة والندم: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٤٣-٤٥)

وينعم المتّقون بجنان من بعدها جنان لا نهاية لها، وفي الحديث: "لا عَيْنٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر":

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ(٤٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ(٤٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ(٥٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ(٥٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ(٥٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ(٥٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ(٥٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٥٩) هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ(٦٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٦١) وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ(٦٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٦٣) مُدْهَامَّتَانِ(٦٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ(٦٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ(٦٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ(٧٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٧١) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ(٧٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ(٧٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ(٧٨)﴾

وذلك شبيه بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة ١٧/٣٢]، في إشارة لأنّ الأوصاف المذكورة مجازية بالضرورة -فهي من الآيات المتشابهات [آل عمران ٧/٣]- لاستحالة أن يستوعب العقل البشري حقيقة النعيم في الآخرة، وكذا حقيقة العذاب.

سورة الواقعة -٥٦-

مكية

نزلت خلال الفترة المكية الأولى حوالي السنة الرابعة بعد البعثة، واشتق اسمها من كلمة الواقعة المذكورة في الآية الأولى التي تذكر حتمية وقوع الساعة، وهي آخر مجموعة السور المكية السبع: (ق-الذاريات-الطور-النجم-القمر-الرحمن-الواقعة) وموضوعها في الغيبيات وعلاقة الحياة الدنيوية بالآخرة،

ارتباط السورة بما قبلها

بعد أن وصفت سورة الرحمن وقوع الساعة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن ٣٧/٥٥] تبدأ هذه السورة بتأكيد ذلك بقوله: ﴿إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة ١/٥٦]،

وبعد أن ذكرت سورة الرحمن أنّ: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن ١/٥٥-٢]، تقرر هذه السورة أن المطهّرون فقط يمسّون معاني القرآن: ﴿لا يَمَسُّهُ إِلاّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة ٧٩/٥٦]،

وبعد أن أوضحت سورة الرحمن مآل المجرمين في الآخرة: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ﴾ [الرحمن ٤١/٥٥]، ومآل المتقين في الجنان ومراتبها: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن ٤٦/٥٥]، تفصّل هذه

السورة مراتب ثلاثة أصناف من الناس في العاقبة، وهم السابقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال.

محور السورة

تؤكد السورة وقوع الساعة لا محالة: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ [٢/٥٦]، فترفع وقتئذٍ مَن ترفع، وتخفض مَن تخفض، وينقسم الناس أمام الحساب أصنافاً ثلاثة: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [٧/٥٦]، وهم المتّقون أصحاب الميمنة: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [٨/٥٦]، والمجرمون أصحاب المشأمة: ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ [٩/٥٦] والمقرّبون السابقون بالخيرات: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [١٠/٥٦-١١]، وتصف مآل كلّ من هذه الأصناف يوم الدين،

ثم تتحدى السورة المجرمين بمعجزة الخلق والموت والبعث: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٦١/٥٦]، بدليل معجزة إنبات الزرع من العدم: ﴿أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [٦٤/٥٦]، ودورة الماء في الطبيعة ونزول المطر: ﴿أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ [٦٩/٥٦]، ومعجزة الطاقة ومنشأ الوقود: ﴿أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾ [٧٢/٥٦]، ومعجزة تنزيل القرآن منجّماً لمدّة ٢٣ عاماً من بعثة النبي ﷺ خالياً من الاختلاف سليماً من التناقض: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [٧٥/٥٦]، فلا يفقه معناه إلاّ المطهّرون سليمو القلب منفتحو الذهن: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [٧٩/٥٦]، أما المكذّبون الذين يزعمون أنهم مكتفون بذواتهم غير معتمدين على الذات الإلهية في شيء فيظهر عجزُهم سافراً بيّناً وقت الموت وخروج الروح: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٨٦/٥٦-٨٧].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

تبدأ السورة بتأكيد حتمية وقوع الساعة لضرورة تحقق العدالة: ﴿إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ (١-٢)

وباعتبار الدنيا مزرعة الآخرة فتكون الساعة خافضة للمجرمين إلى الدرك الأسفل، ورافعة للمؤمنين إلى المنازل العليا: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ (٣)

يوم تهتز الأرض وتزول الجبال، ويختفي العالم المادي أمام الخلق الجديد: ﴿إِذَا رُجَّتْ الأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتْ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ (٤-٦)، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا﴾ [طه ٢٠/١٠٥-١٠٧].

وتصف السورة حساب ثلاثة أصناف من الناس: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً﴾ (٧)

كما تصف مآل كل من هذه الأصناف في الآخرة: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ (٨) وهم المتّقون أهل الجنّة، وسُمّوا أصحاب الميمنة لكون اليمين عند العرب ترمز إلى الخير، والعرب تقول: ميمون وأيمن، تفاؤلاً.

وفي مقابلته وضعوا المشأمة من الشؤم: ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ (٩) وهم المجرمون أهل النار.

أما الصنف الثالث فهم السابقون: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (١٠-١٢) أي السابقون بالخيرات في الدنيا، كما هم السابقون إلى النعيم والمنازل العليا في الآخرة، مقرّبون بين يدي الله جلّ شأنه.

وإن السابقين في الخيرات في تناقص عن الزمن الأول: ﴿ثُلَّةٌ مِنْ الأَوَّلِينَ *

وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾ (١٣-١٤)، وربما يكون ذلك لقرب الأوّلين من البعثة النبوية، أو لكثرة مشاغل الحياة وتعقيداتها لدى الآخرين.

وما يعيش به السابقون من نعيم الآخرة ما لا يمكن وصفه والإحاطة به إلا بالمجاز: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ (١٥-٢٣)، فهو تمثيل لما غاب عنّا بما نعرف من الدنيا.

ويكون ذلك نتيجة طبيعية لما كانوا عليه في دنياهم من السبق بالخيرات والسمو الروحي: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٤)

ومنتهى السلام الذي يعيشون فيه أنهم لا يسمعون لغواً من القول ولا سفسطة، فلا يخاطب أحدٌ صاحبَه بما لا فائدة منه من الكلام، لأنهم في حالة سامية من العيش الفكري والروحي: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا * إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا﴾ (٢٥-٢٦)

ونعيم أصحاب اليمين: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ (٢٧-٣٨)

وهم كثرة في الجيل الماضي الذي عاصر البعثة النبوية ومَن بعدَهم، وكثرة في الأجيال اللاحقة التي التزمت الإسلام: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾ (٤٠)

في مقابل جحيم المجرمين أصحاب الشمال: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ * لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ﴾ (٤١-٤٤)

الذين أدّى بهم ترفُهم في الحياة الدنيا إلى التكبر والاعتداد بالنفس والغرور، بلا أدنى اعتبار للقيم الروحية والأخلاقية: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ (٤٥)

فأنكروا الوحي والأنبياء وانهمكوا في الشرك والكبائر: ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ (٤٦)

وكذّبوا بالبعث والآخرة: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ (٤٧-٤٨)

فوجب إنذارهم بالحقيقة قبل الفوات: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ * هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٤٩-٥٦)

ثمّ تتحدّاهم السورة بالمعجزات التي غفلوا عنها، كمعجزة خلقهم من ماء مهين: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ (٥٧-٥٩)

وتتحداهم بحتمية الموت فلا يستطيعون منه فكاكاً، فما الذي يؤكد لهم أن لن يبعثوا ويُنشؤوا مرة أخرى في عالم الغيب: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٠-٦١)

مثلما أنشأهم تعالى أول مرة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٦٢) وهي النشأة التي هم عنها عَمون.

ثم تواجههم السورة بالمعجزة التي تتكرر في إنبات الزرع من العدم: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (٦٣-٦٤)

وفي حين أنهم يرون إنبات الزرع شيئاً بديهياً مفروغاً منه وأنه حق طبيعي لهم، لكنه في الحقيقة إعجاز لو منعه تعالى منهم لندبوا حظهم: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ (٦٥-٦٧)

وكذا معجزة نزول المطر العذب من السماء: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ (٦٨-٦٩)

فلو شاء تعالى لجعله ماءً شديد الملوحة: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ (٧٠) وهنا أيضاً يغفلون عن الإعجاز في دورة الماء في الطبيعة وتبخر المياه العذبة من البحار المالحة.

ومعجزة النار -الوقود- المتجدد الذي لولاه لكانت حياة الإنسان مستحيلة: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ (٧١-٧٢) فهذه الأشجار التي يحرقون منها حطباً، وتتحول على مر الزمن إلى أشكال أخرة من الطاقة كالنفط.

وأنّ النار أو الطاقة على الأرض بجميع أشكالها والتي هي مصدر النور ليلاً ذكرى بنور الله عزّ وجلّ وهديه لِمَن كان حائراً تائهاً يبحث عن نور الهدى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ (٧٣)

فكل هذه المعجزات ممّا يوجب التسبيح بحمده تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٧٤)

ثم تضيف السورة معجزة كبرى تضاهي كل ما سبق ألا وهي معجزة نزول القرآن منجّماً -مفرّقاً- على مدى ثلاثة وعشرين عاماً من بعثة النبي ﷺ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ (٧٥-٧٨)

فيأمر الوحي بوضع كل آية وكل سورة في مكانها الصحيح من الترتيب القرآني الذي نعرفه، وهو ترتيب غير ترتيب النزول التاريخي، فكان من الإعجاز بقاء القرآن خالياً من الاختلاف سليماً من التناقض شاهداً على قوله تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء ٤/٨٢]؛

ثم تشير السورة إلى معنى لطيف جداً وهو أن المعنى الحقيقي للقرآن لا يصل إليه ولا يستفيد من هديه إلاّ من هو منفتح الذهن سليم النية مطهّر من التحيّز والتشنج والتقليد والفكر المسبق: ﴿لا يَمَسُّهُ إِلاّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧٩)

فيعلم على وجه اليقين أنه وحي من الله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٠)

فأنّى لهم الكفر بالقرآن بعد كل هذا الإعجاز: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾ (٨١)

ومع ذلك فمنهم مَن يجعل دِيْدَنه تكذيب القرآن: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (٨٢) أي في الصدّ عنه كما هي حال بعض المستشرقين اليوم أو مَن يدّعون "العلمانية".

ثم تتحداهم السورة أن يتغلبوا على الموت إن استطاعوا: ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتْ الْحُلْقُومَ﴾ (٨٣) أي الروح: ﴿وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ (٨٤) لأنهم ينظرون إلى المشرف على الموت وهم في حالة من العجز التام: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ﴾ (٨٥)

فإن كانوا مكتفين بذواتهم كما يزعمون، وغير مدينين بالحياة لله سبحانه فليتغلّبوا على الموت وقت وقوعه ويعيدوا الروح إلى صاحبها: ﴿فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٨٦-٨٧) لكن الموت الذي يفرّون

منه فإنه ملاقيهم، وذلك دليل على منتهى عجزهم وزيف شعورهم بالاكتفاء الذاتي.

وهنا تعود السورة إلى الموضوع الذي بدأت منه: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ (٨٨-٩٤)

فمرجعهم جميعاً إلى الله عز وجل يقيناً: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ (٩٥)، ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٩٦) الذي تجلّت عظمته فيما تجلّت بأن تحققت العدالة للجميع.

سورة الحديد -٥٧-

مدنية

يظهر من الإشارة إلى فتح مكة بالآية (١٠) أنّ السورة نزلت ابتداء من أواخر العام ٨ للهجرة، فهي مدنية على قول الجمهور وقيل بعض آياتها مكية، واشتق اسمها من ورود كلمة الحديد في (الآية ٤٢) بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، وهي الأولى في مجموعة سبع سور مدنية متتالية: (الحديد-المجادلة-الحشر-الممتحنة-الصف-الجمعة-المنافقون) تتناول تطبيقات عملية حياتية لتنظيم المجتمع الإسلامي داخلياً، وتوجيه هذا المجتمع أيضاً لجهة التعامل مع أعداء الإسلام خارجياً.

ارتباط السورة بما قبلها

تبيّنَ مِنَ السور المكية السبع السابقة (ق-الذاريات-الطور-النجم-القمر-الرحمن-الواقعة) أن الأمور مختلطة على الكفار فيما يظنون من عشوائية الأقدار وقسوتها وغياب العدالة الدنيوية، إذ غاب عنهم أن كل عمل يحمل في طياته بذور عواقبه، وأنّ العاقبة الوخيمة التي يتحتّم أن تحيق بالكفار هي ضرورة متلازمة مع سلوكهم في الحياة الدنيا، وأنّ ما يلقاه الإنسان من عواقب إن في الدنيا أو في الآخرة ليس سوى نتيجة طبيعية لعمله، وأنّ نجاة الإنسان لا تكون إلاّ باللجوء إليه تعالى، وأنهم قاصرون عن خزائن العلم والغيب والقدرة الإلهية،

وأنّ الرحمن تبارك اسمه أنـزل على الإنسـان عِلـم القـرآن لِمَـن أراد أن يتعلّـم، والإعجاز في نزول القرآن منجماً على مدى ٢٣ عاماً من البعثة النبوية دليل قاطع على استحالة ضلال النبي، وأنه تعالى ختَـمَ الرسالات السماوية بالقرآن الكريم ميسّراً لمن أراد أن يتذكر الحقائق ومعايير الأخلاق والعبر ويتذكر الميثاق الفطري المأخوذ عليه في الأصلاب، وأن الله جل شأنه لم يكن ليهلك قوماً قبل إنذارهم بمعايير الصواب من الخطأ، حتى تصير معروفة عندهم، أما الظن والتخمين فلا يغنيان عن العلم اليقيني، والساعة اقتربت وتحتّمَ وقوعُها، ومع ذلك فالناس في إعراض وتكذيب واتّباع للهوى، ولكن لا بد لكل مخلوق أن يواجه الحساب عندما تقع الواقعة.

وبعد أن أمرت الآية الأخيرة في سورة الواقعة بالتسبيح: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة ٥٦/٩٦]، تبدأ سورة الحديد بقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الواقعة ٥٧/١]،

ثم توضح أنه كما الله تعالى هو الظاهر والباطن، كذا الإيمان بالله والإنفاق لا ينفكّان، لذا وجب تجنب الغرور، والتماسك وقت المصيبة، وعدم الانعزال عن الدنيا كما فعل الرهبان، وحضّ النصارى على الإيمان، لأن الوحي لم يكن مقتصراً عليهم.

ونلاحظ أن السور المدنية السبعة التالية: (الحديد-المجادلة-الحشر-الممتحنة-الصف-الجمعة- المنافقون) تتناول تطبيقات عملية حياتية لتنظيم المجتمع الإسلامي داخلياً، وتوجيه هذا المجتمع أيضاً لجهة التعامل مع أعداء الإسلام خارجياً.

ثم تليها سورة (التغابن) -المختلف في كونها مدنية أم مكية- التي تعود فتذكّر الإنسان أن خلق السماوات والأرض لم يكن عبثاً وإنما خَلَقَها تعالى بالحق، كما خلقَ الإنسانَ في أحسن تقويم، وكرّمه بحرية الخيار وبعث له الرسل

بالبيّنات، فاقتضى أن يكتمل مغزى الخلق يوم القيامة يوم يُجمع الناس ليوم التغابن فيخسر الكفار أنفسهم ويربح المؤمنون، أما الدنيا فهي دار ابتلاء للمؤمن والكافر معاً، سوى أن قلب المؤمن يكون مطمئناً على الدوام لا تفتنه مشاغل الدنيا.

ويلي سورة التغابن سورتان مدنيتان: (الطلاق-التحريم) تتناولان مزيداً من التطبيقات العملية الحياتية في تنظيم المجتمع الإسلامي.

محور السورة

الله تعالى جلّ شأنه مستمرّ الوجود، ظاهرٌ بحسب الدلائل، وباطنٌ عن الحواس، محتجبٌ عن الأبصار: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [٣/٥٧]،

وأن الإيمان والإنفاق لا ينفكّان: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [٧/٥٧]، وقد أوجد تعالى في العقول من الدلائل ما يوجب قبول دعوة الرسل: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾، في حال أراد الإنسانُ الإيمانَ والعملَ على أسس من البراهين القاطعة: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [٨/٥٧]، وإن معرفة الله عزّ وجل، والعمل بمقتضى الإيمان، يشكلان النور الذي يفيد المؤمنين يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [١٢/٥٧]، ولذا وجب على المؤمنين تجنّب الكِبَر الزائف وتجنّب الإعجاب بالنفس والرضا عنها: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [١٦/٥٧]، وتجنّب اعتبار الحياة الدنيا غاية المُنى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [٢٠/٥٧]،

وأن كل شيء في الكون يسير وفق علم الله الأزلي وحكمته الخافية بما هو كائن وما سيكون: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي

كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [٢٢/٥٧]، وبالتالي تحضّ السورة المؤمنين على الثبات والتماسك وقت المصائب والرضا بما كتب الله: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ [٢٣/٥٧]، وتحذّرهم من نسب النعم التي يتمتعون بها إلى جدارتهم و"حسن حظّهم": ﴿وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [٢٣/٥٧]،

وأنه تعالى أرسل الرسلَ بالبينات لتمكين الإنسان من تمييز الحق من الباطل ولتحقيق العدالة: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [٢٥/٥٧]، وزوّده بالوسائل الكافية لاستخدام موارد الطبيعة -ومنها الحديد- لبناء حضارته: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [٢٥/٥٧]، ولذا تحذّر السورة من الانعزال عن الدنيا، وأنه تعالى لم يفرض الرهبانية على النصارى وإنما كتب عليهم ابتغاء رضوانه: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ [٢٧/٥٧]، ولكنّ أكثرية النصارى فسقت عن رسالة عيسى وأفسدتها: ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [٢٧/٥٧]، وبالتالي تحضّهم السورة على الإيمان بخاتم الأنبياء والرسل وعلى التخلّي عن الاعتقاد أن الرسالات السماوية والوحي مقتصرة عليهم: ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [٢٩/٥٧].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

التسبيح تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق به: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) حقيقةً ومجازاً، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء ٤٤/١٧] فالمعنى عام حقيقي ومجازي شامل.

هو المتصرّفُ بملكوته، خالقُ الحياةِ والموت، لا حدودَ لقدرته: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢)

كان منذ الأزل قبل كل شيء، وباقٍ بعد كل شيء، مستمرّ الوجود في الماضي والحاضر والمستقبل، خالق الزمن الذي خارج إدراك البشر، ظاهرٌ لعباده بالدلائل، وباطنٌ غيرُ مُدركٍ بالحواس، محيطٌ بكل شيء: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٣)

خلقَ الكون في ستة مراحل زمنية وهو مهيمنٌ عليه، عالمٌ بدقائقه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٤)

لا شريك له في الملك، ترجع إليه أمور الخلائق: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ (٥)

ومن آياته أن الليل يدخل على النهار شيئاً فشيئاً فيُظلمه، وفي الوقت نفسه وعلى الطرف الآخر من الكرة الأرضية يدخل النهار في الليل شيئاً فشيئاً فيضيئه، فمَن كانت هذه قدرته لا يخفى عليه شيء: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٦) وهذه الآية من دلائل كروية الأرض.

كل ذلك مما يوجب الإيمان وقرن الإيمان بالفعل: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (٧) فالإنسان مستخلف في مال الله، والإنفاق يصدّق الإيمان.

وقد أوجد تعالى في الإنسان مَلَكةَ العقل والمنطق فلم يترك له عذراً بالجهالة: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ

مِيثَاقَكُمْ﴾ أي ما دام الإيمان مستنداً على الأدلة: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨) فأي شيء يمنعه من الإيمان؟

ومع أن الإنسان يلزم أن يكون مؤمناً بالفطرة، وبمجرد استخدامه العقل والتفكر في معجزة الخلق، فقد أنعم تعالى على البشر بإنزال الوحي على رسوله حتى تطابقت الدلائل العقلية والنقلية: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٩) فلا يترك العباد يتخبطون بلا هدي.

والإنسان بمنزلة الوكيل المؤقت فيما يملك إذ لا يلبث أن يذهب ويترك ماله، وأن الإنفاق قبل تحقق النصر أكثر ثواباً من الإنفاق بعده، فأي شيء يمنعه من الإنفاق؟ ﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١٠)

ومن إحسانه تعالى وفضله على العباد أن جعل الإنفاق في سبيل الله بمثابة قرض يؤتي ثماره في الآخرة، مع أن المال هو مال الله أصلاً: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (١١)

وأن معرفة الله عزّ وجلّ والعمل بمقتضى الإيمان، يكونان نوراً لصاحبهما يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٢)، وقوله: ﴿وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ إشارة ضمنية إلى صالح العمل الذي أنجزوه في دنياهم.

في حين يُصاب المنافقون والمنافقات بالخذلان، فيقولون للمؤمنين انتظرونا أو انظروا إلينا حتى نقتبس من نوركم، وهو كلام ينمّ عن جهل ويأس، لأن تلك

الأنوار نتيجة طبيعية للأعمال الصالحة لأصحابها، فَمَن لم يعمل صالحاً لا يتأتّى له ذلك النور: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ فيقال للمنافقين والمنافقات كان عليكم اقتباس هذا النور في دنياكم وقد فات الأوان، فإن هذه الأنوار تتولد من اكتساب المعارف الإلهية والأخلاق الفاضلة: ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ فيفصل بينهما حاجز له باب، باطنه الرحمة من جهة المؤمنين، وظاهره العذاب من قبل المنافقين والمنافقات: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (١٣)

فالمنافقون المرتابون في البعث، المغترّون بمكاسب الدنيا، لا تنفعهم يوم القيامة الأموال التي كانوا مستخلفين فيها، ولم يؤدوا حق الله بها، فينادي المنافقون المؤمنين قائلين: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ فيقولون لهم نعم كنتم معنا في الظاهر، ولكن فتنتم أنفسكم بالنفاق والمعاصي، وتربصتم بغيركم دائرة السوء، وغرّتكم الأماني الكاذبة في الدنيا حتى وافتكم المنية وأنتم على حالكم من الغرور: ﴿قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (١٤)

فالتوبة والندم لا ينفعان بعد الفوات: ﴿فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١٥) ونلاحظ أن الآية تضع المنافقين بمنزلة الذين كفروا.

وهنا تحذّر السورة المؤمنين من الرضا عن النفس والاغترار والإعجاب بها: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ وتنهاهم أن يكونوا كاليهود من قبلهم إذ اغترّوا باعتقادهم أنهم شعب الله المختار فجمدت عقولهم على الجاهلية والعصبية والاستعلاء: ﴿وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وفسقت أكثريتهم

عن الدين، كما فسقت النصارى بابتداعهم التثليث وتأليه المسيح: ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (١٦)

وإن الله تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها فكذلك بيده إحياء القلوب القاسية التي ماتت بالجهل وبالغفلة والضلال إن كان بها بقية من فطرة: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١٧)

وأن على الذين يسمّون أنفسهم مؤمنين أن يُشفِعوا القولَ بالعمل ولا سيما لجهة الصدقات والإنفاق: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (١٨)

وتقارن الآية بين مآل المؤمنين الذين هم على استعداد للتضحية (الشهداء) وبين مآل الكفار المكذّبين: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١٩)

ثم تنبه السورة على أن الكافر يشتغل طيلة حياته بطلب زينة الحياة الدنيا وفي اللهو والتفاخر والتكاثر في الأموال ولا يعمل شيئاً للآخرة، وتشبّه الدنيا بالنبات الذي ينمو بنزول المطر ثم لا يلبث أن يصفرّ وينتهي: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (٢٠)

فالمطلوب أن يعمل الإنسان لآخرته كما يعمل لدنياه: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢١)

والمطلوب أيضاً أن يصبر الإنسان على مصائب الدنيا لأنّ كل شيء يتم وفق علم الله الأزلي بما هو كائن وما سيكون وفق حِكَم بالغة كثيراً ما تخفى على الخلق: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ﴾ (٢٢)

وكما يصبر المؤمن على المصائب عليه أنْ لا يغتر بالنعم فينسبها فقط "لجدارته واستحقاقه" وينسى المُنعِم بها: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ فيقع ضحية لغروره وإعجابه بنفسه: ﴿وَاللّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (٢٣)

لأن المغرور المعجب بنفسه ينأى عن عمل الخير ويسخر ممّن يقوم به: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ فتعود عاقبة البخل عليه لأن الله غنيّ عنه: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٢٤)

وأن الله تعالى بعثَ الرسل وأنزل عليهم الوحي مبيّناً للناس معايير العدالة كي لا يظلم بعضهم بعضاً: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٢٥) ومكّن الناس من استخدام موارد الطبيعة ومن ذلك الحديد لتسهيل معيشتهم، في إشارة إلى صنع الأدوات والآلات والوصول إلى مستويات من التقانة التي تمتع بها الإنسان في الماضي والحاضر: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ وقد يستعمله الإنسان للعدوان والتخريب إذ ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أو للدفاع ولما ينفع البشر: ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ وأن الذين يستفيدون من نِعم الله بالطريق الإيجابي الصحيح هم المؤمنون حقاً، فيحاسبهم تعالى بظهور أعمالهم إلى حيّز العلَن وليس بمجرد علمه المسبق بهم: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ﴾ وهم مؤمنون بما غاب عن إدراكهم ﴿بِالْغَيْبِ﴾ فلا يفوته تعالى من حسابهم شيء: ﴿إِنَّ اللّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٢٥)

ومن بعث الرسل، نوح وإبراهيم، والأنبياء من بني إسحاق وبني إسماعيل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٢٦)

ومنهم عيسى آخر أنبياء بني إسرائيل، والمعلوم أن الإنجيل الذي نزل عليه غير الكتاب الذي بين أيدي النصارى اليوم: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ وتنهى الآية عن الرهبنة ونبذ الدنيا كما فعل بعض النصارى في عصورهم الأولى مع أنه تعالى لم يكتبها عليهم: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ وإنما كتب عليهم ابتغاء رضوان الله: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ ومع ذلك لم يرعوا الرهبنة التي ابتدعوها، انظر آية [التوبة ٩/٣٤]: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ وأن النصارى الذين اتبعوا رسالة عيسى على حقيقتها لا يفوتهم الأجر إذ دخلوا الإسلام بعد الفتوحات الإسلامية: ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ ولكن فسق الأكثرون منهم باختلاق التثليث والزعم بألوهية المسيح: ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٢٧)

وهنا تخاطب السورة أهل الكتاب وتحضّهم على الإيمان بخاتم الأنبياء والرسل: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ وتعدهم ثواب إيمانهم الصحيح بعيسى وموسى، ثم ثواب إيمانهم بخاتم الإنبياء: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ وتعدهم بالنور، كالمشار له في (الآية ١٣): ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٨)

ثم تدعوهم السورة إلى نبذ اعتقادهم بأنهم الوحيدون المحوّلون بنزول الوحي الإلهي عليهم، لأنه تعالى يؤتي الفضل العظيم -أي الوحي- من يشاء من عباده: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٩)، انظر آيات [الجمعة ٦٢/٤] و [البقرة ٢/١٠٥-١٠٦] و [آل عمران ٣/٢٦].

سورة المجادلة -٥٨-

مدنية

نزلت بين السنة الخامسة حتى السابعة للهجرة، واشتق اسمها من الإشارة لمجادلة المرأة للرسول عليه الصلاة والسلام بخصوص عادة الظهار، وهو طلاق جائر كان شائعاً في الجاهلية.

ارتباط السورة بما قبلها

هذه السورة الثانية في مجموعة السور المدنية السبع المتتالية: (الحديد-المجادلة-الحشر-الممتحنة-الصف-الجمعة-المنافقون) التي تتناول تطبيقات حياتية عملية في تنظيم المجتمع الإسلامي.

محور السورة

تشير السورة إلى أحقية المرأة برفع قضيتها إلى ولي الأمر وجداله لعلاج حالات مستعصية من زواجها: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [١/٥٨]، وتبين فساد عادة الظهار في الجاهلية: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [٢/٥٨] وتُبطِلها وتحدد كفّارتها، ثم تنهى السورة عن نجوى السوء كونها سبباً للتباغض والتنافر بين المؤمنين وتأمر بنجوى الخير: ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [٩/٥٨]، كما تأمر المؤمنين بتوسيع أبواب الخير والراحة على عباد الله: ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [١١/٥٨]، ونحضّ من يريد التعمّق في دراسة

السنة النبوية أن يبدأ بعمل الخير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ [١٢/٥٨]،

وتذم السورة المنافقين المشككين الذين غلبت عليهم مصالح الدنيا فيخدعون أنفسهم ويبررون لها الانحياز إلى أعداء المسلمين: ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [١٥/٥٨]، وأن مخادعتهم أنفسهم لن تفيدهم شيئاً لأنه تعالى غالبٌ على أمره: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [٢١/٥٨]، أما المؤمنون حقاً فإنه تعالى يؤيدهم بروح منه: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [٢٢/٥٨] لأنهم لا يوادّون مَن يعمل ضد المسلمين مهما كانت درجة قرابتهم أو المصلحة معهم: ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [٢٢/٥٨].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

تبدأ السورة ببيان أحقية المرأة في رفع مظلمتها إلى وليّ الأمر ومجادلته لرفع الظلم عنها بخصوص الظروف السيئة لزواجها: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ فإن كان الله تعالى يسمع التحاور بهذا الموضوع فمن باب أولى أن يسمعه وليّ الأمر: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (١)

وتُبطِل عادة الجاهلية في الطلاق الجائر المسمّى ظِهاراً إذ كان يترتب عليه تجريد المرأة من كل حقوقها بالإضافة لمنعها من الزواج ثانيةً ولذا وصفه تعالى بالزور والمنكر: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ (٢) وكان الرجل في الجاهلية يقول لزوجته أنتِ عليَّ كظهر أمي، أي محرّمة عليّ جنسياً كحرمة أمّي عليّ.

وتفرض كفّارة الظِهار بحال حدوثه لأن الندم وحده لا يكفي فلا بد من خطوات عملية لتأكيده: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٣) ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ ومبرر الكفارة: ﴿ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي بإظهار نبذكم عادات الجاهلية باتباع إجراءات عملية ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤)

وتبيّن مآل الذين يختارون تجاهل ومعاداة أحكام الله المنزلة في الآيات البينات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي يكون الخذلان عاقبتهم ﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (٥) ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٦)

وأنه تعالى محيط بجميع أحوالهم فلا تخفى عليه مكائدهم السرية ضد الإسلام: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٧) والنجوى هو الحديث السري بين أكثر من اثنين.

وأنّ المنافقين والكفار يكيدون للإسلام فيأتمرون سراً فيما بينهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ ويشككون في نبوة محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي إن كان محمد نبيّاً حقّاً فلماذا لا يعذّبنا الله؟ فيأتيهم الجواب: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (٨) والإشارة إلى يهود المدينة وقت البعثة، وإن كانت تنطبق على المشككين في كل زمن.

وتأمر السورة المؤمنين أن تكون مداولاتهم السرية فيما بينهم في سبيل البرّ والتقوى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٩)، ونظيره قوله تعالى: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء ٤/١١٤]،

وأن النجوى بالإثم والعدوان من شأن مَن استحوذ عليهم الشيطان من شرار الناس: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٠)، مع أنّ الشيطان ليس له من سلطة حقيقية على البشر: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم ١٤/٢٢].

ثم تأمر السورة المؤمنين بأن يوسّع بعضهم على بعض في مجالسهم أو في مجتمعاتهم بإيصال الخيرات إلى المحتاجين منهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وأن لا يكونوا سلبيين بل يبادروا ويجيبوا إلى ما يرفع منازلهم من العمل الصالح: ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا﴾ وخصّصت من العملِ الصالح طلبَ العلم إذ يرفع تعالى المؤمنين من الذين أوتوا العلم درجات على باقي المؤمنين: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١١) والرفعة هي في درجات الثواب والرضوان.

ومن ذلك تحدد السورة آداب مناجاة الرسول عليه السلام في حياته والتعامل مع السنة الشريفة بعده بتقديم الصدقات أو عمل الخير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢)

ولكن لا يأثم من لا يستطيع الإنفاق على الخير بأكثر مما يترتب عليه من الزكاة: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٣)

ثم تذمّ السورة المنافقين، أنصاف المؤمنين، الذين يحرصون على منافعهم الدنيوية العاجلة بموالاة المغضوب عليهم من الذين وصلتهم الرسالة ومع ذلك يكابرون ويجتهدون في إنكارها ومقاومتها ومحاربتها، وهم اليهود خاصة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿وَلا مِنْهُمْ﴾ أي ولا اليهود يعتبرون المنافقين منهم ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤-١٥)

يستخفون بالأيمان الكاذبة كي لا يظهر نفاقهم: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ ويبذرون الشبهات في قلوب الناس: ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (١٦)

فما تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم يوم القيامة: ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٧)

ولشدة خداعهم أنفسهم يعتقدون أن الجري وراء مكاسب الدنيا المادية أمر طبيعي له ما يبرره وهو بنظرهم مقدّم على الدين والعقيدة: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ وهذا هو قمة الكذب وخداع النفس: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (١٨)

ولذا تصفهم السورة بأنهم حزب الشيطان: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٩)

وعلى النقيض من خداعهم أنفسهم وظنهم أنهم على صواب فإن مآلهم في الآخرة إلى الذل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ﴾ (٢٠)

فمن سننه تعالى في خلقه أن الغلبة للحق: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٢١)

وأنه يستحيل على المؤمنين بالله واليوم الآخر أن يتولوا الكفار أو يوادّوهم ولو كانوا على درجة من القرابة منهم، فمن باب أولى أنهم لا يتولّون اليهود ولا يوادّوهم: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ ولذلك تصير عاقبتهم إلى الفلاح: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٢٢)

وقد لاحظنا في سورة الممتحنة أن القرآن الكريم يستثني الكفار المسالمين ويأمر بمحاهم بالبر والعدل: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة ٦٠/٨].

سورة الحشر -٥٩-

مدنية

الخلفية التاريخية

معظم سورة الحشر (الآيات ٢-١٧) متعلقة بالنزاع الذي حدث بين مجتمع المدينة المسلم وبين يهود المدينة من بني النضير والذي انتهى بطردهم منها، وتسمى أيضاً (سورة بني النضير)، فبعد هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة عقد النبي مع يهود بني النضير اتفاقاً تعهدوا بموجبه الوقوف على الحياد في نزاع المسلمين مع كفار قريش، ثم بعد ظفر المسلمين على قريش في غزوة بدر العام ٢ للهجرة أعلن زعماء بنو النضير من تلقاء أنفسهم أن محمداً عليه السلام هو حقاً النبي المنتظر المذكور في كتبهم (سفر التثنية ١٨/١٨)، ثمّ بعد عامٍ من ذلك عندما انتهت غزوة أحُد بشبه هزيمة للمسلمين، راجع سورة [آل عمران ١٢١/٣-٧٥]، خانَ بنو النضير عهدَهم مع الرسول ﷺ وتآمروا على قتله، وعقدوا حلفاً مع قريش بهدف التخلص من المسلمين نهائياً بحسب زعمهم، فكان أن أنذرهم النبي عليه السلام بأحد أمرين: إما الحرب، أو مغادرة المدينة بجميع ممتلكاتهم، وفي الحالة الثانية يسمح لهم بالعودة إلى المدينة سنوياً لقطف ثمار نخيلهم بمعنى أن تبقى مزارعُهم ملكاً لهم، فتظاهر اليهود بقبول العرض الثاني وطلبوا مهلة عشرة أيام للمغادرة وافق عليها النبي فاتصلوا خلالها مع

منافقي المدينة وزعيمهم عبد الله بن أبيّ الـذي وعـدَ أن يدعمهم بـألفي رجـل يقاتلون إلى جانبهم إن أرادوا البقاء في حصونهم بضواحي المدينة، كما وعد أن يخرج من المدينة معهم في حال هزيمتهم، وفي ذلك نقرأ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [٥٩/١١]، فقبل اليهـود عـرض ابن أبيّ وحملـوا السـلاح ضـد المسلمين، فكان أن حاصرهم النبي عليه السـلام في حصونهم واحـداً وعشرين يوماً دون قتال، وعندما أيقنوا بعدم وفاء زعيم المنافقين عبد الله بن أبـيّ بوعـده لهم بالدعم العسكري، وهو مصداق قوله تعالى والآية نبوءة بـالغيب-: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [٥٩/١٢]، استسلموا للنبي عليه الصلاة والسلام في ربيع الأول بالعام ٤ هجرية فأمرهم بالخروج من المدينة، وسمح لهم أن يحملوا معهم كافة ممتلكاتهم، فخرجوا بها إلى بلاد الشام في قافلة مـن سـتمئة بعير، واسـتقر القليـل منهم في خيبر، والبـاقون في أريحـا بفلسـطين، وأصبحـت أراضيهـم وزراعتهم ملكاً للمسلمين، تم توزيع معظمها على فقرائهـم كمـا تبـين الآيـات (٧-٨) من السورة.

وكما هو دأب القرآن الكريم تفيد الإشـارات التاريخيـة فيـه دروسـاً وعـبراً، وفي هذه الحالة يستفاد من السورة حتمية انتصار المسلمين على عدوهم حتى لـو كانوا قليلي العدد والعدّة بشرط التزامهم بروح الإسـلام وشـريعته، وقـد نزلـت السورة بالعام الرابع الهجري واشتق اسمها من كلمة الحشر المذكـورة بالآيـة ٢ واختلفوا في مغزاها، وقد رأى بسام جرار في كتابـه (زوال إسـرائيل) أنّ ذلـك كان أول حشر اليهود إلى أريحا في فلسطين بعد البعثة النبويـة، أمـا آخـر الحشـر فهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء ١٧/١٠٤].

وفي هذه الفترة أيضاً نزلت سورة الجمعة التي تنص على نسخ الديانة اليهودية بالإسلام، أنظر آيات [الجمعة ٦٢/٢-٥]، وقد يكون ذلك سبب نكوص بني النضير عن عهدهم مع الرسول عليه الصلاة والسلام.

ارتباط السورة بما قبلها

تبدو سورة الحشر في وصفها لقصة يهود بني النضير وتحالف منافقي المدينة معهم وغدرهم بالمسلمين [الحشر ٥٩/٢-١٧]، وكأنها مثال عملي على ما ورد في سورة المجادلة [المجادلة ٥٨/ ٨-١٠ و ١٤-٢٢] من نهي المؤمنين عن نجوى الإثم والعدوان ومعصية الرسول، وذمّ المنافقين الذين يتولّون أعداء الإسلام: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة ٥٨/١٤]، ثم في سورة الحشر: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر ٥٩/١١]،

وقد وصفت سورة المجادلة المنافقين بأنهم حزب الشيطان إذ نسوا ذكر الله: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة ٥٨/١٩] وفي سورة الحشر نقرأ قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر ٥٩/١٦]، وقوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر ٥٩/١٩].

محور السورة

إصرار اليهود على الكفر: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [٥٩/٤] وأن المنافقين إخوان للكفار: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ

نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [٥٩/١١]، ولكن الغلبة تكون للمخلصين من المؤمنين: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾ والسبب أن المنافقين لا يحسنون استخدام مداركهم العقلية ولذا فإنّ حلّ اهتمامهم مرتكز على أمور الدنيا: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [٥٩/١٣] والمغزى أن المؤمنين بخلاف المنافقين- يحسنون استخدام مداركهم ومَلَكاتهم العقلية، ولذا تحذرهم السورة أن يكونوا مثلهم: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [٥٩/١٩].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

تبدأ السورة وتنتهي بأن كل ما في السماوات والأرض يسبّح لله تعالى، والتسبيح ليس بمجرد القول، ومعناه تنزيه الله تعالى وتبعيده عن كل نقص وسوء: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١)

وتصف اليهود بأنهم مصممون على الكفر مما كان سبباً لإخراجهم من الديار، في إشارة لوصفه تعالى في الآية السابقة بأنه العزيز الحكيم: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ في حين ظنّ المؤمنون أن لا سبيل لإخراجهم: ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾ كما كان ظنّ اليهود بمنعتهم المادية: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ بأن تبطَ عنهم حلفاءهم المنافقين ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ وبسبب خيانتهم الإسلام ونقضهم العهد كانوا كمَن يخرب بيته بيده: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ مما هو عبرة لذوي الفكر والبصيرة: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (٢)

وأنه تعالى منحهم فرصة أخرى للتوبة بأن كتب عليهم الجلاء عن جزيرة العرب: ﴿وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ لكي تظهر معصيتهم وإصرارهم على الكفر إلى حيّز العلن فيستحقّوا عذاب الآخرة: ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ (٣)

كل ذلك لأنهم جعلوا أنفسهم في شقّ وجعلوا الهدي الإلهي في شقّ آخر فكأنهما على طرفي نقيض: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٤)

ومع أنّ الشرع الإسلامي في الحالة العامة يحرّم تخريب المحاصيل الزراعية وقطع الأشجار، كما هو معروف من وصية أبي بكر الصدّيق الشهيرة لأمراء الجيوش، إلاّ أن الضرورات تبيح المحظورات، فاضطر المسلمون أثناء حصارهم بني النضير أن يقطعوا بعض نخيلهم لضرورة الحرب، وهو من قبيل ارتكاب أخفّ الضررين: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٥)

وأنه خلافاً للقاعدة العامة المذكورة بآية [الأنفال ٤١/٨] أن يكون خمس الغنائم لله والرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، والباقي للمقاتلين، فإن الفيء، وهو ما غنمه المسلمون من بني النضير بلا قتال، يكون بأكمله للأصناف الخمسة المذكورة فيوضع بتصرف الرسول أو الإمام: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ أي من بني النضير ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٦) والسبب تفسره الآيات التالية:

لأن العبرة من توزيع الفيء بكامله على الأصناف الخمسة المذكورة أن لا يكون تداول المال محصوراً بين الأغنياء: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ

الْقُرَى﴾ أي من جميع البلدان التي تُفتح بلا قتال فحكمها حكم أموال بني النضير ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٧)

فيوزّع على فقراء المهاجرين الذين يدافع الإيمان تركوا ممتلكاهم في مكة وقت الهجرة: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٨)

كما يوزّع على فقراء الأنصار في المدينة الذين استقبلوا المهاجرين وآثروهم على أنفسهم رغم فقرهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ وتبيّن أن الشحّ يقف عائقاً أمام صاحبه في الوصول إلى السعادة والفلاح: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٩)

والقاعدة عامة في كل وقت بأن يستقبل المسلمون إخوانهم المهاجرين إليهم من البلاد التي يعانون فيها الاضطهاد الديني: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٠)

والآية التالية إشارة لعرض منافقي المدينة أن يدعموا يهود بني النضير ويتكافلوا معهم، وهي تصف المنافقين بأنهم إخوان الكفار: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ وأنّ المنافقين لا يملكون الشجاعة المعنوية الكافية كي يعلنوا كفرهم: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١١)

كما ليس لديهم أدنى قدر من الالتزام الروحي أو المعنوي أو الأخلاقي للوفاء بوعدهم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ﴾ وأنهم يتخلّون عن حلفائهم في أول فرصة: ﴿وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ﴾ (١٢)

ولضعف إيمانهم بالله والبعث والجزاء فإنّ خوفهم من حاضرهم أكثر من خوفهم من آخرتهم: ﴿لأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ (١٣)

وأن اعتمادهم بالكامل على مادية الدنيا: ﴿لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ ولذا ينقلب بعضهم على بعض تهافتاً وراء المصالح الدنيوية المباشرة: ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ كل ذلك لأن عقولهم قاصرة عن حقيقة الدنيا والآخرة: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾ (١٤)

فمَثَل فريقيْ المنافقين ويهود بني النضير كمَثَل مَن قبلهم من كفار قريش الذين ذاقوا مرارة الهزيمة في وقعة بدر في رمضان العام ٢ هجرية، وكمَثَل يهود بني قينقاع ذاقوا عاقبة خيانتهم في شوال من العام نفسه: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٥) والقاعدة عامة في كل الأوقات لأمثالهم.

ومثَل المنافقين مع الكفار شبيه بموقف الشيطان من الإنسان يغرّر به ثم يخذله: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦) ونظيرُه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم ١٤/٢٢].

فكانت عاقبة المنافقين والكفار واحدة في النار: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ (١٧)

فما يفعله المرء في دنياه يلقاه في الآخرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٨)

وتحذّر الآية المؤمنين أن يكونوا كالمنافقين والكفار أعمتهم الدنيا عن حقيقة الآخرة: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١٩)

فَمَن اقتصر همّه على الدنيا ليس كَمَن وضع الآخرة نصب عينيه: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٢٠)

وأنه لو كان للجبال عقل -كما للإنسان- فنزل عليها القرآن لعقلته وخشعت وتصدّعت: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ فكانّ المصرّين على الكفر لا عقول لهم: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢١)

وأنه تعالى محيط بعالم الغيب وبما يضمر المنافقون من مكائد، كما هو محيط بعالم الشهادة: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٢٢)

وتختم السورة بأسماء الله الحسنى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٣-٢٤).

سورة المُمتَحَنَة -٦٠-

مدنية

نزلت في العام ٧ هجرية بعد صلح الحديبية.

ارتباط السورة بما قبلها

السورة استمرار لسورتي المجادلة والحشر لجهة تحريم موالاة الكفار الناشطين في حرب المسلمين، ففي سورة المجادلة قرأنا قولَه تعالى في ذمّ المنافقين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة ٥٨/١٤]، وفي سورة الحشر أنّ المنافقين إخوانٌ للكفار: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر ٥٩/١١]،

ثم تنتقل سورة الممتحنة هذه إلى صيغة الأمر صراحةً بنهي المؤمنين عن موالاة أعداء الإسلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة ٦٠/١]، ثمّ تنهى عن موالاة اليهود بالذات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [الممتحنة ٦٠/١٣].

محور السورة

تحريم موالاة الكفار الناشطين في حرب المسلمين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [٦٠/١]، وأن الله تعالى مقلّب القلوب، فالكفار قد ينقلبون مؤمنين: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٦٠/٧]، والأمر بالبر والقسط تجاه المسالمين منهم: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [٦٠/٨]، وبيان القواعد الاجتماعية للتعامل مع الكفار الذي حرمت السورة موالاتهم [٦٠/١٠-١١]، وتحريم موالاة اليهود خاصةً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [٦٠/١٣]، وفي ذلك تأكيد على آيات [آل عمران ٣/٢٨، ١١٨ والمائدة ٥/٥١].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد أن ذمّت سورة المجادلة المنافقين لموالاتهم الكفار، ووصفت سورة الحشر المنافقين بأنهم إخوان للكفار، ترقى هذه السورة إلى درجة تحريم موالاة أعداء الإسلام الناشطين في حرب المسلمين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾، والسبب أنهم ناشطون في حرب الإسلام والمسلمين لدرجة إخراجهم من الديار: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (١) أي إن كانت هجرتكم في سبيل الله حقّاً فكيف توادّوهم وقد أخرجوكم من دياركم؟

وهُم يتربّصون الشر بالمسلمين ويودّون لو ترتدّوا عن دينكم: ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ (٢)

ونحدد أن روابط الإيمان أقوى من روابط القربى مع الكفار: ﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٣)

وتضرب في ذلك مثلاً قصة إبراهيم وصحبه إذ تبرؤوا من قومهم ما داموا على الكفر: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (٤)

ودعاء إبراهيم وأصحابه: ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي لا تسلط الكفار علينا فيفتنونا، أي نصبح مفتونين منصرفين عن هذا الدين الحق بظلمهم وقهرهم، ولا تفتنهم بنا فيزدادوا كفراً وعناداً لظنهم أن لو كنّا على الحق لما استطاعوا أن يظهروا علينا ﴿وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٥) والمعروف أنّ الدعاء يجب أن يقترن باتخاذ الأسباب.

فالآية تحث المسلمين أن يكونوا كإبراهيم وصحبه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٦)

غير أن عداوة الكفار للمسلمين ليست نهائية فقد يهتدي البعض منهم للإسلام: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً﴾ إذا تابوا وأسلموا ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧) فالله تعالى قادر على تقليب القلوب وتغيير الأحوال وتسهيل أسباب المودة.

وتأمر السورة المسلمين بالبر والقسط تجاه المسالمين من الكفار الذين لم يشتركوا في القتال والاضطهاد: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨)

وإن تحريم موالاة الكفار قُصِدَ به حصراً الذين يشتركون في قتال المسلمين واضطهادهم وبإخراجهم من الديار وكلّ مَن ينصرهم على ذلك: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٩)

وهنا تبين الآيات (١٠-١٢) بعض التفاصيل الاجتماعية للتعامل مع الكفار الذين حَرّمت السورة موالاتهم: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ أي إذا جئنَ مهاجرات إليكم من أرض العدو فيجب امتحانهنّ لمعرفة إن كانت هجرتهن لأغراض دنيوية أم في سبيل الله، والامتحان أنْ يقسمْنَ أنّ هجرتهنّ ليست لدنيا وإنما حبّاً بالله ورسوله: ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ في الظاهر، والله تعالى يتولّى السرائر، فالشريعة الإسلامية تقتضي الاكتفاء بظاهر الإيمان، ما لم يظهر برهان يناقض ذلك: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ وإن حَلَفْنَ أنهنّ مؤمنات فلا يجوز إعادتهنّ إلى أزواجهنّ الكفار: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ لأنّ كفر أحد طرفي الزواج يكون سبباً لفسخه: ﴿لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ وعندئذٍ يجب إعادة مهر المرأة التي أسلمت إلى الكافر: ﴿وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا﴾ ويحلّ لها الزواج من جديد: ﴿وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ كما أنّ على المسلم أنْ يطلّق زوجته الكافرة: ﴿وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ ويحق له أن يطالب بمهرها، مثلما يطالب الكفار بمهور زوجاتهم اللواتي أسلمنَ: ﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٠)

وفي حال انحازت بعض زوجات المسلمين إلى الكفار فمن واجب المجتمع المسلم تعويض الأزواج ما أنفقوا من مهور الزوجات اللواتي تخلّين عنهم: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (١١)

والآيتان (١٠-١١) نزلتا بعد صلح الحديبية لأنه كان من شروط الصلح أن يعيد المسلمون إلى قريش من يلجأ إليهم من أغرار قريش ومواليها، ولكن النبي ﷺ رأى أن ذلك الشرط لا ينطبق على النساء المتزوجات كونهنّ بالغات عاقلات.

بعد امتحان المؤمنات المهاجرات، الآية ١٠، والتأكد من إخلاصهنّ بحسب الظاهر، فلم يبقَ سوى أن يبايعنَ الرسول، أو الإمام من بعده: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ﴾ كما كانت عادة وأد البنات في الجاهلية ﴿وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ أي لا يسعينَ إلى البهتان عمداً ﴿وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢) لأنّ الإسلام يجبّ ما قبله.

وكما بدأت السورة بالنهي عن موالاة أعداء الإسلام الناشطين في الصدّ عنه، فهي تختم بالنهي عن موالاة اليهود خاصةً، إذ غضب الله عليهم لإنكارهم الآخرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ والدليل في آية [المجادلة ٥٨/١٤] أن اليهود هم المقصودون بهذا الخطاب، فلشدّة مادّيتهم وتكالبهم على الدنيا أنكروا الآخرة: ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ﴾ مثلما يئس الكفار من بعث الأموات: ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ (١٣)،

وفي إنكار اليهود للآخرة نقرأ أيضاً قولَه تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان ٤٤/٣٤-٣٥].

سورة الصف -٦١-

مدنية

نزلت سورة الصفّ على الأغلب بعد وقعة أُحُد أواخر العام ٣ هجرية حتى أوائل العام ٤ هجرية واشتُق اسمُها من كلمة الصف بالآية ٤،

ارتباط السورة بما قبلها

بعد أن ذمّت سورة المجادلة المنافقين الذين يتولّون الكفار الناشطين في الصد عن الإسلام، وأكّدت سورة الحشر أن المنافقين بمنزلة إخوان للكفار، ثم حرّمَت سورة الممتحنة على المؤمنين صراحةً أن يكونوا موالين لأعداء الإسلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة ١/٦٠]، وبالذات اليهود منهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [الممتحنة ١٣/٦٠]، توضح هذه السورة أن اليهود دأبوا على تكذيب كبار أنبيائهم كموسى وعيسى عليهم السلام [الصف ٥/٦١-٦]، فمن باب أولى أن لا يأمن المسلمون جانبَهم، ثم تحثّ السورة المؤمنين أن يكون عملُهم، بخلاف اليهود، مطابقاً لعقيدتهم: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف ٢/٦١]،

محور السورة

وجوب اجتماع كلمة المؤمنين على العمل والنظام والتضحية في سبيل عقيدتهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [٤/٦١] في مواجهة الكفار الذين يختلقون الأكاذيب للافتراء على الإسلام: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ حتى يكون الفوز للمؤمنين: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [٨/٦١]، بانتشار رسالة القرآن: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٣/٦١]، وأنه تعالى أيد نصارى المسيح -الحقيقيين- بظهور الإسلام على اليهودية وعلى المسيحية المنحرفتين عن رسالتي موسى وعيسى عليهما السلام: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [١٤/٦١]، أي ظاهرين عليهم بالحجة الصحيحة والمنطق السليم، وأما السلطان فيجعله تعالى في الدنيا لمن يتبع سننه في خلقه، مؤمناً كان أم كافراً.

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

كما افتتحت سورة الحشر تفتتح هذه السورة بأنّ كل ما في السماوات وما في الأرض يسبّح لله تعالى، والتسبيح ليس بمجرد القول، ومعناه تنزيه الله تعالى وتبعيده عن كل ما لا يليق به من نقص أو سوء: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١)

والقول يجب أن يصدّقه العمل والاستعداد للتضحية بما يتطلبه الإيمان، لذا تنهى السورة المؤمنين عن ازدواجية المعايير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ (٢)

فغاية البغض عند الله تعالى أن يكون قول المؤمن مغايراً لفعله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ (٣)

وتحثهم على جمع الكلمة تجاه العدو: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ (٤)

وأن سبب فشل اليهود أنهم صدّقوا رسالة موسى قولاً ولم يعملوا بمقتضاها: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ فالنبي موسى لم يترك عند اليهود أدنى شك أنه رسول الله إليهم حتى أقرّوا بذلك، لكن سلوكهم وعصيانهم المتكرر كان مغايراً لإقرارهم، وهذا الأمر واضح جداً ليس فقط في القرآن الكريم، بل في كتبهم "المقدسة"، والنتيجة الطبيعية لهذه الحال أن ينعكس الإصرار على المعصية سلباً على العقيدة: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٥)

ثم تكررت معصيتهم على أشنع حال مع آخر أنبيائهم عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ إذ جاءهم ليصدّق ما تبقى بين يديه، وقت بعثته، من الوحي الصحيح الذي بقي في التوراة، بعد أن كتبوا وأضافوا الكثير من عندهم وزعموا أنه وحي، انظر آية (البقرة ٧٩/٢): ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ وليبشّرهم بمقدم النبي الأحمد المذكور في كتبهم (سفر التثنية ١٨/١٨)، وهو خاتم الأنبياء والرسل المخلّص المنقذ من الضلال الذي كانوا يستعجلون قدومه: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ ولكنهم لعصبيتهم كانوا يتوقون أن يُبعث النبي الأحمد من بين ظهرانيهم، لاعتقادهم أن الرسالات السماوية حكر عليهم، وقد فنّد القرآن الكريم دعواهم باقتصار الرسالات السماوية عليهم، انظر آية (الحديد ٢٩/٥٧)، كما حذّرهم عيسى عليه السلام من هذا الاعتقاد بل أنذرهم أن عبء الرسالات السماوية سوف ينزع منهم ويعطى لأمة تؤتي ثمارها، أنظر كتابهم المقدس سفر (متى ٤٣/٢١)، فزعموا أنه ساحر، ثم لما جاءهم النبي الأحمد بمعجزة القرآن الكريم نسبوه أيضاً إلى السحر: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٦)

وهذا غاية الظلم والشرور أن يجحدَ الإنسانُ الفضلَ المطلق وهو نعمة الهداية الإلهية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ﴾ فمن شأن هؤلاء أن يُمعنوا في الضلال: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٧)

وأن الكفار لم يكتفوا بإنكار بعثة النبي ﷺ الذي بشّر به عيسى بالاسم، بل كانوا وما زالوا منكبّين على اختلاق الافتراءات ضد الرسالة الإسلامية: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وبالطبع دون جدوى: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨)

وأن الله تعالى بعث النبيَّ الأحمد خاتم الأنبياء والرسل بالهداية إلى البشرية كي يظهر الحق واضحاً من الباطل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ ولكي يظهر على الأديان التي انحرفت عن مسارها كاليهودية والمسيحية: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ مهما كره ذلك المشركون وعارضوه: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٩)

وهنا تعود السورة إلى موضوع الآيات (٢-٣) من حيث إن المؤمن يلزم أن يكون مستعداً للتضحية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (١٠) أي في الدنيا والآخرة، والتجارة المشار إليها موضحة في آية [التوبة ١١١/٩] أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.

فلا بدّ للمؤمنين، الجديرين بهذا اللقب، أن يكونوا على استعداد للتضحية: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١١)

حتى يكون الفوز لهم في الآخرة: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٢)

والفوز في الدنيا عندما ينتشر الإسلام بالقناعة والقدوة الحسنة بين أناس لم يسبق لهم معرفة الرسالة القرآنية: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٣)

فيكونون كما كان الحواريون وأتباعهم النصارى في نصرة عيسى عليه السلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ وقد أظهرهم تعالى بمبعث الإسلام رغم قلتهم وتعرضهم للاضطهاد من قبل اليهود والأكثرية المسيحية: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ (١٤)

سورة الجمعة -٦٢-

مدنية

نزلت في أوائل الفترة المدنية واشتُق اسمُها من ذكر يوم الجمعة بالآية (٩).

ارتباط السورة بما قبلها

بعد أن عصى اليهود كبارَ أنبيائهم موسى وعيسى عليهما السلام، انظر آيات [الصف ٦١/٥-٦]، وبعد أن بشّر عيسى المسيح اليهودَ في سورة الصف السابقة بمقدم النبي الأحمد: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف ٦١/٦]، تذكر هذه السورة مبعث النبي ﷺ وانتقال الرسالة من بني إسحاق إلى بني إسماعيل: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ [الجمعة ٢/٦٢]، والسبب ارتكاس اليهود المتكرر عن رسالة موسى وتشويه التوراة وتأليف كتب "مقدسة" من عندهم: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة ٥/٦٢]،

محور السورة

اقتضت الحكمة الإلهية انتقال عبء الرسالة السماوية من بني إسحق إلى بني إسماعيل بنزول الوحي على النبي ﷺ: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [٤/٦٢] بعد فشل اليهود في حمل رسالة التوحيد: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [٥/٦٢]،

والإسلام دين وسطية، لا رهبانية كما في المسيحية، ولا انكباب على الدنيا كما عند اليهود، فالمسلمون يبتغون نصيبهم من الآخرة كما يطلبون نصيبهم من الدنيا: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [١٠/٦٢]، وبلا مبالغة في طلب الدنيا: ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ اللَّهْوِ وَمِنْ التِّجَارَةِ﴾ [١١/٦٢].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

التسبيح تنزيه الله تعالى وتبعيده عن كل ما لا يليق به، واستخدام الفعل المضارع بما يفيد الحاضر والمستقبل، وفي سورة الصف الفعل الماضي، ما يفيد أنّ كل ما في السماوات وما في الأرض يسبح الله تعالى على الدوام: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١)

والقرآن الكريم نزلَ على أُمّةٍ أُمّية لا كتابَ لها فأنقذها من الضلال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ والرسول من هذه الأمة الأمّية، فهو أيضاً أمّي لم يطّلع على الكتب السابقة ولم يعلم عنها إلاّ بطريق الوحي: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (٢)

لكن الرسالة الإسلامية غير مقتصرة على العرب وحدهم وإنما لتنتقل منهم إلى العالم أجمع في كل وقت وعصر: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٣)

وقد منّ الله تعالى على العرب بنزول رسالة القرآن عليهم وذلك هو الفضل المطلق: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٤) وهذا الفضل أيضاً يؤتيه تعالى كلّ مَن يشاء الاستفادة من رسالة القرآن في كل زمن.

وأن اليهود كانوا مكلفين بحمل رسالة التوحيد ففشلوا فيها بارتكاسهم المتكرر إلى الوثنية ممّا هو مسطّر في كتبهم قبل غيرهم: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ وبعصيانهم كبار أنبيائهم كموسى وعيسى عليهم السلام: ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥) وظنّوا ويظنّون أنهم شعب الله المختار عصبيةً واستعلاءً وتفضيلاً على غيرهم من الأمم فقد قصر فهمهم وإدراكهم عن كون الرسالة عبئاً ومسؤولية، وليست تمييزاً لهم عن باقي البشر، انظر آية [البقرة ٢/٩٠].

وأن خوفهم من الموت يفضح زعمَهم أنّهم شعب الله المختار: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٦)

خاصة بما ارتكبوا من مخازي ومعصية الرسل ما هو موثّق في كتبهم: ﴿وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٧)

وأن تكالبهم على الدنيا وتعلقهم بها، على النقيض ممّا يأملون، قصير الأمد فلا يلبثوا أن يواجهوا حسابهم: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٨)

وأنّ سبت اليهود قد نُسخ بيوم الجمعة: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٩)

وأنّ النسخ اقتضى إبطال تشدّدهم في منع أي عمل حتى عمل الخير خلال العطلة الأسبوعية: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ

اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٠) ونظيره قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (القصص ٢٨/٧٧).

وأنّه يجدر بالمسلم أن لا يتهالك على الدنيا كما فعل اليهود: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (١١)

سورة المنافقون -٦٣-

مدنية

نزل معظم هذه السورة بعد وقعة أُحُد أي أواخر العام ٣ وخلال العام ٤ هجرية، والبعض من آياتها (٧-٨) نزل بعد غزوة بني المصطلق العام ٥ هجرية،

ارتباط السورة بما قبلها

هنالك استمرارية في سُوَر (المجادلة-الحشر-الممتحنة-الصف-الجمعة-المنافقون) لجهة ذمّ المنافقين، ونهي المؤمنين أن يكونوا مثلهم، انظر آيات [المجادلة ٢٢/٥٨] و [الممتحنة ١/٦٠]، ونهي المؤمنين من تولّي المغضوب عليهم من اليهود، انظر آيات [المجادلة ١٤/٥٨-١٦] و [الصف ١٣/٦٠]، ثم أوضحت سورة الجمعة أن رسالة القرآن نسخت الديانة اليهودية، انظر آيات [الجمعة ٢/٦٢-٥]، فارتدّ اليهود في المدينة، أنظر الخلفية التاريخية لسورة الحشر، ثم إن المنافقين لم يكتفوا بالتعاون مع يهود المدينة، انظر آيات [الحشر ١١/٥٩-١٢]، بل حاولوا تحريض الأنصار ضد النبي عليه الصلاة والسلام: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون ٧/٦٣].

محور السورة

تعرُض السورة لظاهرة النفاق بين ضعاف النفوس في المدينة بعد الهجرة النبوية، غير أن العبرة منها تنسحب على كل زمان ومكان.

فتبيّن بعض سمات المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ [٤/٦٣]، وتصفهم بالاستكبار: ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [٥/٦٣]، وهم يُظهرون الإيمان في حين أنهم يحرّضون الناس على الكفر ويأمرون الناس بعدم الإنفاق: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾ [٧/٦٣]، والله تعالى يأمر المؤمنين أن يصدّقوا إيمانهم بالإنفاق قبل فوات الأوان: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [١١/٦٣].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

المنافقون يقولون بألسنتهم خلاف ما يُبطِنون: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (١)

ويستترون وراء أيمان كاذبة للصد عن الإسلام: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢)

وهم قد آمنوا بالقول، وكفروا بالفعل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ وأنّ من شأن أمثالهم أن تُعمي عادةُ النفاق بصيرتَهم حتى لا يفقهوا الحق من الباطل: ﴿فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾ (٣) والطبع من الله تعالى بنتيجة سوء أفعالهم وإعراضهم فيخلّيهم تعالى لأنفسهم.

والمنافق يكون مظهره وقوله خدّاعاً وإن كان مستساغاً في الظاهر: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ ولكنهم لقلة جدواهم كأعمدة الخشب المسنّدة إلى الحائط: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ كما هم في حالة من الذعر والترقّب الدائمين: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ﴾ ولكن يجب الحذر من مظهرهم المخادع وألسنتهم المعسولة: ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ فقد لعنهم الله وأبعدهم من رحمته: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ بالنظر لإعراضهم وانصرافهم عن الحق: ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٤)

وهم في الصدّ عن سبيل الله مستكبرون في باطنهم، يعتقدون في أنفسهم المكر والدهاء: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (٥)

فمن شأن أمثالهم أن يتركهم تعالى في تخبطهم ولا يجبرهم على الهدى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَاسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٦) أي لسوء استخدامهم مداركهم العقلية.

وهم لجهالتهم وضيق أفقهم ينهون الناس عن الإنفاق في سبيل الله، ولا يفقهون أن الله غالبٌ على أمره، إذ بيده وحده خزائن السماوات والأرض: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ﴾ (٧)

ومغترّون بواقعهم الزائف لا يستوعبون أن العزة الحقيقية لله ولرسوله وللمومنين: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٨)

ولذا تحذّر السورة المؤمنين من الانخداع بمتاع الدنيا الزائل كالمال والبنين، وتحضّهم على النظر في القرآن والتفكر والتأمل فيه كي لا يخسروا أنفسهم: ﴿يَا

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٩)

لكنّ ذِكر الله وحده بلا إنفاق لا يكفي إذ هو دليل النفاق، فعليهم المسارعة إلى الإنفاق قبل فوات الأوان: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٠)

ولذا وجَبَ الحذَر من التسويف وطول الأمل: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١١).

سورة التغابن -٦٤-

مدنية، وقيل مكية، وقيل بها مكّي ومدني

اشتق اسم السورة من كلمة (التغابن) المذكورة بالآية (٩)، يوم يخسر الكفار أنفسَهم ويربح المؤمنون.

ارتباط السورة بما قبلها

بعد أن بيّنت السور المدنية السبعة السابقة: (الحديد-المجادلة-الحشر-الممتحنة-الصف-الجمعة-المنافقون) قواعد هامة لتطبيقات عملية حياتية داخل المجتمع الإسلامي وخارجه، تعود سورة (التغابن) -المختلف في كونها مكية أو مدنية- لبحث مغزى الخلق وبعث الرسل والجزاء، وابتلاء البشر في الدنيا، ثم تختم في الآيات [التغابن ٦٤/١٤-١٨] بوجوب تقديم الروابط الدينية على الروابط العائلية والدنيوية، وتحضّ على الإنفاق.

محور السورة

خلْق السماوات والأرض لم يكن عبثاً وإنّما خلَقَها تعالى بالحق، وكرّم الإنسان بحرية الخيار: ﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

[٢/٦٤]، كما خلقَهُ في أحسن تقويم: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [٣/٦٤]، وبعث له الرسل بالبيّنات: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [٦/٦٤]، فاقتضى أن يكتمل مغزى الخلق يوم القيامة يوم يُجمع الناس ليوم التغابن فيخسر الكفار أنفسهم ويربح المؤمنون: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [٩/٦٤]، أما الدنيا فهي دار ابتلاء للمؤمن والكافر معاً. سوى أن قلب المؤمن يكون مطمئناً على الدوام لا تفتنه مشاغل الدنيا: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [١١/٦٤]،

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

التسبيح تنزيه الله تعالى وتبعيده عن كل ما لا يليق به، وكل ما في السماوات وما في الأرض يسبح الله تعالى على الدوام، فله الحمد على نعمائه، يفعل ما يشاء بقدر ما يشاء: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١)

كرّمَ الناس بحرية الخيار، فكان منهم الكافر ومنهم المؤمن: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢)

والخلق لم يكن عبثاً: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ خلق الناسَ في أحسن تقويم، ووهبهم نعمة العقل، ثم إليه يكون المعاد والحساب: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (٣)

لا يخفى عليه من عباده شيء: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٤)،

وأنّ العاقل يعتبر بعاقبة مَن سبق من الأمم الكافرة، لأنّ سنّته تعالى في الخلق لا تتغير فيمَن يرفض الهدي الإلهي والمسؤولية الأخلاقية، فتلك الأمم ذاقت

وبال أمرها في الدنيا قبل الآخرة: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٥)

وسبب الكفر أن الرسل كانت تأتيهم من بين ظهرانيهم فاستكبروا اعتقاداً منهم أن لا فضل للرسل عليهم لكونهم بشراً: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا﴾ في حين أن الله غني عنهم وعن العالمين: ﴿وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (٦)

فالذين كفروا ظلموا عقولهم وأنكروا المسؤولية والبعث والحساب: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٧)

فوجب على كل عاقل أن يؤمن بالله والرسول والقرآن: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ ويوقن بالمسؤولية والحساب: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٨)

يوم يجمع تعالى الناسَ فيحاسبهم على ما سبق منهم في دنياهم، فيفوز المؤمنون الذين عملوا صالحاً: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٩)

ويخسر الكفار أنفسهم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١٠)

وأنّ الدنيا دار ابتلاء للمؤمن والكافر معاً، ولو كان الإيمان يقي صاحبه من البلاء في الدنيا لَبَطُل التكليف والاختبار ولصار الإيمان قسرياً، غير أن المؤمن بخلاف الكافر يكون قلبُه مطمئناً على الدوام: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١١)

والمطلوب أن يعرف الإنسان خالقه فيكيّف وجوده بحسب الهدي الإلهي، غير أنّ الإيمان ليس قسرياً بل يترك لخيار المرء: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ (١٢)

والله تعالى وحده المهيمن على أمور خلقه المتصرف بشؤونهم: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٣)

وأن طاعة الله والرسول، والعمل بمقتضى القرآن، مقدّمان على الروابط الزوجية والعائلية، فإن حصل تناقض يصبح الطرف غير الملتزم عدواً من الناحية الروحية والعملية - للطرف المؤمن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا﴾ في حال توبتهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤)

كما أن طاعة الله والرسول مقدّمة على الروابط الدنيوية التي قد تكون سبباً للفتنة: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٥)

وأنه تعالى لا يكلّفُ نفساً إلاّ وسعها: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٦)

وتختم السورة كما ختمت سورة (المنافقون) قبلها بالحض على الإنفاق: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ (١٧)

فلا يفوته تعالى شيء من أمور خلقه: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨)

سورة الطلاق -٦٥-

مدنية

نزلت في أواسط الفترة المدنية

ارتباط السورة بما قبلها

كما في السُوَر المدنية السبعة: (الحديد-المجادلة-الحشر-الممتحنة-الصف-الجمعة-المنافقون)، وبعد أن أوضحت سورة التغابن -المختلف في كونها مكية أم مدنية- مغزى الخلق وبعث الرسل والجزاء وابتلاء البشر في الدنيا، تعود سورتا (الطلاق-التحريم) المدنيّتان المتتاليتان لمواضيع تطبيقات حياتية عملية أخرى في تنظيم المجتمع، وتبدأ هذه السورة بموضوع الطلاق، وتداخل آيات التشريع مع آيات الإيمان والغيب شائع في التنزيل، في إشارة للارتباط الوثيق في الإسلام بين الإيمان وبين انعكاسه العملي في تنظيم الحياة.

محور السورة

السورة مكرّسة في معظمها لبيان أحكام الطلاق وتفصّل ما سبق ذكره في آيات [البقرة ٢/٢٢٦ ٢٣٣]، كما تبين العاقبة الوخيمة التي تحل بالمجتمعات نتيجة اتباعها تشريعات وضعية ولمعصيتها التشريع الربّاني.

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

تخاطب الآية الأولى مجتمع المسلمين -من خلال النبي ﷺ- بوجوب العدة في الطلاق، وقد أجمعوا أن طلاق النساء يجب أن يقع في فترة طُهر من غير جماع: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ وأنه يجب إحصاء العدة: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ كما هو مفصل بآية [البقرة ٢/٢٢٨]، وأنه خلال مدة العدّة لا يحق للرجل إخراج المرأة من بيتها: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ ولا يكون الرجل سبباً لإخراجها من تلقاء نفسها: ﴿وَلا يَخْرُجْنَ﴾ إلاّ أنه يحقّ له إخراجها في حالات استثنائية دامغة: ﴿إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ وأنّ من مقاصد مدة الانتظار -العدّة- أنها تتيح الفرصة لتهدئة خواطر الطرفين والمراجعة الهادئة وتفادي اتخاذ قرارات متسرّعة: ﴿لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ (١)

وأن اتخاذ القرار بالصلح أو الفراق بنهاية العدّة يجب أن يكون عن حسن نية بعيداً عن مشاعر الكراهية أو الانتقام، بلا ضرر ولا ضرار: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ والشهادة أن لا يكون القرار مُتّخذاً عن جهالة وحماقة: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وأن تقوى الله تقي المرء مواقع الضيق والكرب: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ وأن أمر الله حلّ وعلا نافذٌ لا محالة فلم يبقَ إلاّ التوكل عليه: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (٢-٣)

ثم تحدد السورة مدة العدّة لمن لا حيضَ لهنّ: ﴿وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ ومدة العدة

للحوامل: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ (٤)

وإن العمل بنصوص الشرع من شأنه تكفير السيئات وتعظيم الثواب: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ (٥)

وإن سكن المطلقة خلال مدة العدة يجب أن يستمر بذات المستوى المعيشي المعتاد للزوج بلا مضايقة ولا تضييق عليها: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ وأن على الزوج الإنفاق على مطلقته الحامل حتى تضع حملها: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، ولها الخيار في إرضاع الولد مع استمرار النفقة لها خلال فترة الرضاعة: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، وأن يكون التفاهم بينهما مستمراً بالمعروف: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ وقد لا تستطيع المطلقة الإرضاع لأسباب صحية أو نفسية أو لكونها تريد الزواج من آخر: ﴿وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾ (٦)

وإن إنفاق الزوج خلال كل هذه المدة يجب أن يكون بحسب طاقته المادية: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ وأنه تعالى يجعل اليسر بعد العسر: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (٧).

ثم تنتقل السورة إلى التعميم أن المجتمعات الإنسانية التي تعتمد على التشريع الوضعي بدلاً عن التشريع الرباني تزول عاقبتها إلى الخسران: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا * ذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ وأن المؤمنين المتقين هم الذين يستفيدون من عقولهم في فهم القرآن: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ (٨-١٠)

فيخرج الذين صدّقوا إيمانهم بالعمل الصالح من ظلمات الجهالة إلى نور العلم والإيمان، وذلك هو الرزق المطلق: ﴿رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ (١١)

وأن الله تعالى الذي خلق السماوات السبع ومن الأرض مثلهنّ متكفّل بأمور عباده ومخلوقاته، حتى بأدق تفاصيلها كما سيرد في موضوع السورة التالية: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (١٢).

وفي كتاب (الخصائص) لابن بابويه عن النبي ﷺ: "إن لله تعالى اثني عشر ألف عالَم، كل عالَم منهم أكبر من سبع سماوات وسبع أرضين، ما يرى عالَم منهم أن لله عز وجل عالَماً غيرهم".

وقد نقل الرازي في تفسير آية [الحجر ٢٦/١٥] عن كتب الشيعة عن محمد بن علي الباقر عليه السلام أنه قال : قد انقضى قبل آدم الذي هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر، انظر أيضاً آية [الشورى ٢٩/٤٢].

سورة التحريم -٦٦-

مدنية

نزلت خلال النصف الثاني من الفترة المدنية، وقيل حوالي العام ٧ هجرية، وقيل إن الآيات (١٠-١٢) منها مكية.

ارتباط السورة بما قبلها

هي استمرار للسورة السابقة من حيث تنظيم الشرع الإسلامي لحياة البشر، فبعد أن ختمت سورة الطلاق المتقدمة بأنّ أمرَه تعالى يتنزّل في شؤون مخلوقاته وعباده بين السماوات والأرض، تبين هذه السورة أحد جوانب تنظيم هذه الشؤون ومنه التأكيد على عدم جواز تحريم ما أحل الله تعالى في سبيل إرضاء البشر.

محور السورة

عدم جواز تحريم ما أحل الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [١/٦٦]، ووجوب التكفير عن الأيمان المعارضة للشرع: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ [٢/٦٦]، وأنّ الندم لا يفيد صاحبَه يوم الحساب فالعقاب نتيجة طبيعية ملازمة للعمل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٧/٦٦]،

وعدم جواز التوصل لحلول وَسَط في شؤون العقيدة مع الكفار: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [٩/٦٦]، وأن قرابة الأنبياء والصالحين لا تنفع الخاطئين يوم القيامة [١٠/٦٦].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

التأكيد على عدم جواز تحريم ما أحل الله تعالى في سبيل إرضاء البشر: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١) لأن النبي عليه الصلاة والسلام كان قد حلف أن لا يقرب أزواجه لمدة شهر، واختلفت الروايات في سبب ذلك، غير أنها لا تخرج عن عاطفة الغيرة بين بعض أزواج النبي ﷺ، ومن العبر في القصة أن النبي بشر معرّض للخطأ سوى أن الوحي سرعان ما يرشده إلى الصواب، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة ٤٣/٩]،

فتبيّن السورة في هذه الحالة وجوب التحلل من اليمين المناقض للشرع، والكفارة عنه: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٢)، وكفّارة الأيمان مذكورة في آية [المائدة ٨٩/٥].

وتسرد جانباً من قصةالنبي عليه الصلاة والسلام مع بعض أزواجه، وبحسب بعض الروايات فقد تنبأ لزوجته حفصة بخلافة أبي بكر وعمر، ثم أعرض عن إعلان ذلك وكتمه لكي يبقى الأمر شورى بين المسلمين: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (٣)

وتنتقل السورة لمخاطبة زوجتي الرسول عائشة وحفصة فتعاتبهما، لأن حفصة أفشت السر إلى عائشة فلم تكتمه: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ﴾ فالتوبة أجدر

بكما، فقد مالت قلوبكما عن حق الرسول عليه السلام: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي مالت عن الصواب، وإن تعاونا عليه: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ فليس ذلك بضائره شيئاً لأن الله تعالى ناصره، وكذا جبريل وكل مَن صَلَحَ من المؤمنين، والملائكة أيضاً تنصره: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (٤)

ثم لموعظة أزواج الرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ (٥)

وتأمر السورة المؤمنين أن يبادروا -قبل فوات الأوان- لنشر الدعوة بين أهليهم، بالمعنى الضيق والأعمّ لكلمة الأهل: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٦)

وأن اعتذار الكفار بالجهالة لن يفيدهم يوم الحساب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾ لأن الجزاء نتيجة طبيعية وعاقبة ملازمة لجنس العمل: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧)

وتحث المؤمنين على التوبة لأن كل ابن آدم خطّاء حتى المؤمنين منهم: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٨) والتوبة النصوح التي تنصح صاحبها بعدم العودة إلى ما تاب منه.

ثم تأمر النبي -والمؤمنين من بعده- بمجاهدة الكفار والمنافقين معاً، وحيث لا يجوز قتال المنافقين لأنهم يظهرون الإسلام، فالمقصود أن تكون مجاهدة الفريقين

بالحجة والفكر والإقناع: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ وتنهى الآية عن التوصل لحلول وسط معهم: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ وتبين مآلهم في حال عدم توبتهم عن الكفر: ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (٩)

وتبيّن أن الروابط العائلية مع الصالحين، وحتى مع الأنبياء، لا تفيد الكفار شيئاً إن لم يتوبوا: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ (١٠)

وبالمقابل فإن المؤمن الحقيقي لا يُلزم نفسه بكفر أفراد عائلته بل ينفرد بإيمانه عنهم: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١١)

وتضرب مثلاً بمريم عليها السلام وصلاحها وإخلاصها: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ أي في عيسى عليه السلام ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ (١٢)

سورة المُلك -٦٧-

مكية

نزلت في أواسط الفترة المكية، وفي الحديث: "وددتُ لو أنّها في قلبِ كلّ مؤمن"، ذكره القرطبي.

ارتباط السورة بما قبلها

استكملت السور المدنية السبعة المتقدمة: (الحديد-المجادلة-الحشر-الممتحنة-الصف-الجمعة-المنافقون) ثم السورتان المدنيتان (الطلاق-التحريم) تشريعات حياتية للمجتمع المسلم داخلياً بين أفراده، وخارجاً تجاه الغير، وقد تخللتهما سورة التغابن -المختلف في كونها مدنية أم مكية- التي بحثت في مغزى الخلق وبعث الرسل والجزاء، وابتلاء الناس في الدنيا، ثم ينتقل القرآن الكريم في السور المتبقية في الجزأين التاسع والعشرين والثلاثين -ومعظمها مكية- إلى بحث مواضيع الإيمان والغيب وحث الإنسان على استخدام العقل في التوصل إلى الفلاح.

محور السورة

مهما بلغت علوم الإنسان على الأرض يستحيل عليه الإحاطة بأسرار الكون: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾

[٤/٦٧]، وهو معتمد بشكل كلّي وقاطع على الهداية الإلهية التي تنزّلت على البشر من خلال الوحي، ومع ذلك فإنّهم يرجمون بالغيب: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [٥/٦٧]، ويفضّل الكفار الرجم بالغيب على السمع والعقل السليم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [١٠/٦٧]، ولقصر فكرهم على دنيا المادة لا يرون أبعد من أنوفهم: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [٢٢/٦٧].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعُل من البَرَكة، وقيل تقدّسَ، وقيل دامَ، فهو الدائم لا أولَ لوجودِه ولا آخرَ لدوامِه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) ومن دلائل قدرته أنه خلق الموت والحياة، وخلقَ الكونَ خلقاً محكماً يحيّر العقول:

وقد خلقَ الموت كما خلقَ الحياة، بمعنى أنّ الموت له حقيقة إيجابية بذاته، فالموت ليس معناه العَدَم إذ يشمل حالة البرزخ قبل الآخرة كما يشمل حالة الكُمون قبل الحياة الدنيا: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (٢)، ومنه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر ١١/٤٠]، وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان ١/٧٦]،

وخلقَ الكون مُحكَماً متجانساً بلا تفاوت: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ (٣)

لا يستطيع الإنسان -مهما بلغ- أن يحيط بأسراره: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (٤)

ومع ذلك فشياطين الإنس ترجم بالغيب زاعمةً أنّها تعتمد على النجوم، أو تظن أن بإمكانها الإحاطة بأسرار الكون بالتنجيم: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ لكن الرجم بالغيب يؤدي بصاحبه لأسوأ العواقب: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ (٥)

والزعم بمعرفة الغيب والمستقبل من النجوم -ما لا يعلمه إلا الله وحده- بمثابة كفر: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ (٦-٧)

وأن جهنم تكاد تميّز من الغيظ لبلادة الكفار وعجزهم عن الإفادة من مداركهم العقلية ما أدّى بهم إلى ورودها: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (٨) فقد زعموا في دنياهم أن لا حقيقة في الوحي الإلهي.

واتهموا رسلهم بالضلال: ﴿قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ﴾ (٩)

فلم يدركوا أهمية السماع للرسل والوحي وقيمة العقل إلاّ بعد فوات الأوان: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (١٠)

ولم يفدهم الاعتراف بالذنب بعد كشف الحجب: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (١١)

في حين أن استخدام العقل على الوجه الصحيح يقود صاحبه يقيناً بأن هنالك مغزى وراء الخلق، ومن ذلك تتالي بعث الرسل وتنزّل الوحي الإلهي عليهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١٢)

وفي كل الأحوال فالله تعالى يعلم ما يخفون من معتقدات وما يبدون منها: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٣-١٤)

وأنه قد وهبهم العقل والذكاء لاستخدام موارد الأرض حتى صارت تحت تصرفهم: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ ثم يحاسبهم على حسن أو سوء استخدامها: ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (١٥)

فكيف يأمن أحدُهم عواقبَ عمله فيعتقد أن لا مسؤولية ولا حساب: ﴿أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ (١٦-١٧)

والأمثلة التاريخية كثيرة في عاقبة الأمم البائدة: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (١٨)

ومعجزات الكون محيطة بهم من كل جانب: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ﴾ ما لا يعقل أن يكون مصادفة: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ (١٩)

وإنهم في منتهى العجز باعتمادهم على ذواتهم: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَكُمْ يَنصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ فلا يدعمهم مؤقتاً سوى الغرور: ﴿إِنْ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ﴾ (٢٠)

وهم معتمدون على رزقه تعالى في أبسط أمور معاشهم: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ ما يناقض استكبارهم ونفورهم من الهدي الإلهي: ﴿بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ (٢١)

بل إنهم لانغماسهم في الحياة المادية كمن لا يرى أبعد من أنفه: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢٢)

مع أنه تعالى وهبهم نعمة السمع والبصر والفكر السليم: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ فقليلاً ما استفادوا منها: ﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ (٢٣)

ونشرهم في الأرض: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ ثم يحشرهم للحساب: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٤)

وهم مصرّون على إنكار الحشر وعلى المكابرة والتحدي في تعارض فاضح مع المنطق السليم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٥)

مع أنّ علم الساعة مما استأثر به تعالى لنفسه: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٢٦)

وعند تحقق وعدها يغشى وجوه الذين أصرّوا على الكفر الذل والكآبة: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيقال لهم هذا ما كنتم تستعجلونه في الدنيا: ﴿وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ﴾ (٢٧)

وسواء انتشرت رسالة الإسلام كما هو مقدّر لها، أم لم تنتشر كما يتمنّون، ففي الحالين لن يفيدهم ذلك شيئاً من عذاب الجحيم: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٨)

فالمؤمنون في حالة من الاطمئنان والتوكل على الله حتى يأتي الوقت الذي تنكشف فيه الحُجُب: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (٢٩)، وذلك الجواب على قولهم لرسلهم في الآية ٩: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ﴾ (٩).

ومع أنّ الكفار في منتهى العجز، فإنهم عن عجزهم عَمون: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ (٣٠) والمعين العذب النقي، أي إن غار الماء العذب في الأرض من يأتيكم به؟

سورة القلم -٦٨-

مكية

من أوائل السور المكية، الثالثة في ترتيب النزول بعد سورتي العلق والمدّثر، وقيل بل الثانية -في معظم آياتها- بعد سورة العلق.

ارتباط السورة بما قبلها

أوضحت سورة المُلك المتقدمة أنه رغم الإعجاز الهائل في خلق الموت والحياة، وخلق الكون خلقاً محكماً بلا تفاوت ما هو مثال على مقدرته تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك ٦٧/١]، فإن الكفار يرجمون بالغيب في محاولة لتلمس الواقع: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك ٦٧/٥]، ومن رجمهم بالغيب أنهم أنكروا الوحي واتهموا النبي ﷺ بالجنون في حين أن الجنون واقع بهم: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ [القلم ٦٨/٥-٦]،

وقد أوضحت سورة المُلك أن الكفار يدركون ضلالهم بعد فوات الأوان: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك ٦٧/١٠]، وفي سورة القلم هذه يدرك الطغاة في دنياهم -قبل آخرتهم- مدى الضلال الذي تاهوا فيه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [القلم ٦٨/٢٦-٢٧]،

وفي سورة المُلك أن الكافر كَمَن يمشي مكبّاً على وجهه: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المُلك ٦٧/٢٢]، وفي سورة القلم أن الكفار لشدة بغضهم وعداوتهم وحسدهم وجهلهم وحيرتهم في أمر النبي ﷺ يحاولون تنفير الناس عن القرآن: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (القلم ٦٨/٥١-٥٢).

محور السورة

تشير السورة إلى معجزة القلم الذي بواسطته تناقلت البشرية معرفتها التراكمية: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [٦٨/١]، وأن الكفار يظنّون الجنون بالنبي عليه السلام ولكن المستقبل يكشف لهم العكس: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ [٦٨/٥-٦]، وأن لا حلول وسطاً معهم في شؤون العقيدة: ﴿فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [٦٨/٨-٩]، والأجدر بالمكذّبين أن لا يغتروا بأموالهم وبنفوذهم: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ [٦٨/١٤]، إذ يحكمون بأهوائهم: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [٦٨/٣٦]، فالله وحده يحاسبهم بعد إمهالهم: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ [٦٨/٤٤]، وأنّ القرآن، على النقيض من ظنّهم، ليس سوى ذكر للعالمين: ﴿وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [٦٨/٥٢]، فهو يذكّر الناس بفطرتهم السليمة وبالميثاق الفطري المأخوذ عليهم، انظر آية [الأعراف ٧/١٧٢].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

تبدأ السورة بالإشارة للقلم وما يسطرون، كرمز لفن الكتابة وتسطير السجلات وبالتالي للمعرفة التراكمية، وإلى مقدرة الإنسان الفريدة لنقل المعرفة والفكر بواسطة القلم -ومشتقاته- من فرد لآخر ومن ثقافة لأخرى ومن جيل لآخر حتى صارت المعرفة والعلوم تراكمية على مرّ العصور: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (١) وفيه إشارة أيضاً إلى أوّل ما نزل من الوحي على النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق ٩٦/٣-٤] في إشارة لتعلم الإنسان من الوحي.

ورغم معجزة الوحي والقلم فقد اتهموا النبي ﷺ عند نزول الوحي عليه بالجنون، وهذا الاتهام لم يكن مقتصراً على النبي في عصره، بل هو شائع في كل وقت بين الكفار إذ يتهمون كل مؤمن بالله واليوم الآخر بالجنون، وهو ما تفنّده الآية: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ (٢)

بل إن اتهامهم للنبي بنقيض ما هو عليه يستوجب له الأجر العظيم لعلوّ منزلته عند الله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ (٣) وأن أجره عليه السلام لا انقطاع فيه ولا منّة.

وأن الدين الذي جاء به دين الخلق العظيم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (٤) وفي حديث عائشة أنّ النبي ﷺ كان خُلُقُه القرآن.

وما دام الأمر بهذا الوضوح فإن الجنون واقعٌ بهم وليس بالنبي، وإن هذا الأمر من الوضوح بحيث لا يلبث أن يظهر: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ (٥-٦)

وأنّ علمَه تعالى قد سبق فيمَن يميل إلى الضلال وفيمَن يميل إلى الهدى: ﴿إِنَّ

رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٧) فليس على المؤمن سوى البلاغ.

وأن المكذّبين يحاولون التوصل لحلول وسط مع المؤمنين: ﴿فَلا تُطِعْ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (٨)

في حين لا مجال لحلول وسط في شؤون العقيدة: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ (٩)

وأن أهواء شرار الناس -المذكور نموذج منها في الآيات التالية- غير جديرة بالاتّباع، ومن هؤلاء مَن هو كثير الحلف في الحق والباطل متجرىء على اسمه تعالى، فهو حقير الرأي والتدبير: ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾ (١٠)

والذي من شأنه الطعن في الغير، والمشي بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم: ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ (١١)

والبخيل، الظالم، كثير الآثام: ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ (١٢)

المؤذي، الذي لا يفيد المجتمع بشيء: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ (١٣)

والذي يظنّ في نجاحه الدنيوي وكثرة المال والولد والأتباع دليلاً على مصداقيته: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ (١٤)

وبالتالي فهومستغنٍ عن الوحي بزعمه: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ (١٥)

في حين أنّ عاقبة أمثاله تصير إلى الخنوع: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ (١٦) وقوله ﴿الْخُرْطُومِ﴾ إشارة لأن مثل هذا الشخص كالحيوان غير مستفيد من نعمة العقل.

وتضرب السورة مثلاً على شرار الناس بأصحاب جنة -بستان- صمّموا سلفاً على حصاد المحصول دون إعطاء الفقراء حقهم منه، مع أن الله تعالى

أغدق عليهم من النعم الكثيرة -على سبيل الابتلاء- ما لا يُقارَن مع نظرتهم الدنيوية المادية المحضة: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ أي الكفار ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ (١٧)، والمفترض أن يأخذ الفقراء حقهم أولاً، لقوله تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام ٦/١٤١]، فلم يأبهوا لذلك، وفيه إشارة لقوله: ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ (١٢).

وصمموا أن لا يستثنوا للمساكين أي جزء من الحصاد: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ (١٨) وقيل بل المعنى أنهم عندما عزموا على فعلتهم لم يعلّقوا الأمر بالمشيئة العليا فلم يقولوا "إن شاء الله تعالى" وتلك كانت خطيئتهم الثانية، لقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف ١٨/٢٣-٢٤]، وفي سلوكهم أيضاً إشارة للمذكور بالآيات (١٤-١٥) لجهة اعتدادهم بالدنيا وإنكارهم الوحي.

فأحاط البلاء بجنتهم ليلاً: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (١٩)

ولم تلبث أن أصبحت كالبستان الذي صُرمت ثماره وأشجاره بحيث لم يبقَ منها شيء: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ (٢٠) أي صُرم عنها الخير إذ يبست وذهبت خضرتها، فالصريم بمعنى المصروم.

ثم أصبحوا وهم غافلون تمام الغفلة عما جرت به المقادير: ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ﴾ (٢١-٢٢)

فانطلقوا مصمّمين على فعلتهم الشنيعة: ﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ (٢٣-٢٥) والحرد الانفراد أي أرادوا الانفراد بالجنة وغلّتها.

فلمّا رأوها كالصريم ظنّوا أنهم ضلّوا الطريق إليها: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ (٢٦) أو أنهم أدركوا خبث نفوسهم وضلالهم عن الصواب وأقرّوا

به بدليل الآية التالية.

أقرّوا أنهم حُرموا الخير بسبب منع الفقراء نصيبهم: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ (٢٧)

فقال لهم أحسنهم وأرجحهم عقلاً: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ﴾ (٢٨) إذ لا شيء يمكن أن يتم إلاّ بمشيئة الله.

﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ عن أن يجري في ملكه شيء إلاّ بإرادته ومشيئته، ثم اعترفوا بسوء فعلهم ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٢٩)

وصار يلوم بعضُهم بعضاً: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ﴾ (٣٠)

فلم يدركوا الحقيقة إلا بعد معاينة عذاب الدنيا: ﴿قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا﴾ وليس خيراً منها إلاّ مغفرته تعالى: ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ (٣١-٣٢)

﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ في الدنيا ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٣) أي لو كانوا من أهل العلم لعلموا أن عذاب الآخرة أكبر من عذاب الدنيا، وهو بمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة ٣٢/٢١].

وفي مقابل شرار الناس تصف السورة حال خيارهم: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (٣٤) أي النعيم الخالص من شوائب الدنيا،

إذ يستحيل أن تكون عاقبة المسلمين كعاقبة المجرمين: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣٥)

ثم تقرّعهم الآية: ﴿مَا لَكُمْ﴾ أيها الخاطئون، إذ ليس من دليل عقلي يؤيد ما ذهبتم إليه، فعلى ماذا تبنون أحكامكم؟ ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٣٦)

وتختارون لأنفسكم بصورة كيفية مقاييس الحق من الباطل: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ (٣٧-٣٨) وليس من دليل نقلي يناسب هواكم؟

وكيف تضمنون أن ما توصلتم إليه بالتخمين والظن هو الصحيح؟ ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ (٣٩)

ومَن منكم قادر على الزعم بذلك؟ ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ (٤٠)

أم مَن يشاركهم في هذا القول حتى يزعمون تقليده؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (٤١) وليدعوا هؤلاء الشركاء، يوم الشدّة، لنصرتهم إن كانوا حقاً على الصواب:

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ يوم يشتدّ الأمر ويتفاقم، وقد يحصل ذلك في الدنيا، أو في الآخرة، وفي الحالتين يفوتهم أوان الاستجابة بعد المعاينة: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٤٢)

لشدة ما يرهقهم الذل والهوان: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ وقد فاتتهم الاستجابة وقتما كانوا في أحسن تقويم: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ (٤٣)

وأن حساب الذين يكذّبون القرآن على الله وحده، فهو وحده يحدد متى وكيف يحاسبهم: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ وإنهم يظنون ما بهم من النعم الكثيرة تفضيلاً لهم على المؤمنين: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٤) فلا يشعرون أنها ابتلاء في واقعها، كما في قصة أصحاب الجنة.

وأن الخطة والحكمة الإلهية البالغة في إمهال الكفار لا يحيط بها بَشَر: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (٤٥) فليس من مصادفة في شيء، ولا يغتر أحد بما قد ينعم به شرار الناس في الدنيا.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ على البلاغ والإرشاد ﴿أَجْرًا﴾ دنيوياً ﴿فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ﴾ من غرامة مالية ﴿مُثْقَلُونَ﴾ (٤٦)، أي مرهقون بثقل الغرامة؟ والمعنى أنك -أيها النبي أو أيها المؤمن- لا تسألهم أجراً على البلاغ والدعوة.

أم يظنون أنهم محيطون بعلوم الغيب، أم أنهم لغرورهم يظنون أن أسرار الكون قاربت أن تكون في متناولهم بنتيجة تقدمهم العلمي والتقني: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ (٤٧)

ثم تحض السورة النبي عليه الصلاة والسلام -ومن ثَمّ كل مؤمن- أن لا يستسلم لليأس من سلوك الكفار، كما يئس يونس عليه السلام من دعوة قومه: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ (٤٨) ونداؤه قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء ٢١/٨٧-٨٨].

﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٤٩-٥٠)، وفيه إشارة لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات ٣٧/١٤٣-١٤٥].

وأن الكفار كلّما سمعوا القرآن الكريم يُتلى عليهم من النبي عليه السلام يكادون يزلقونه عن ثباته بعين الشر والبغضاء والعداوة: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ ويتهمونه عليه السلام بالجنون: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ (٥١)

في حين أن القرآن الكريم ليس سوى النقيض الأكبر لذلك: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٥٢) يذكّر الناس بالفطرة السليمة،

فالجنون الحقيقي في المكذّبين: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ (٦) وهي النقطة التي بدأت منها السورة.

سورة الحاقّة -٦٩-

مكية

نزلت خلال الفترة المكية الأولى، واشتق اسمُها من ذكر الحاقة، وهي الساعة التي تحقّ فيها الأمور فتُعرف على حقيقتها.

ارتباط السورة بما قبلها

بعد أن ختمت سورة القلم أمثولة أصحاب الجنة بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم ٦٨/٣٣]، ووصفت تخبط الكفار في أحكامهم وظنونهم: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ [القلم ٦٨/٣٦-٣٧]، تبدأ هذه السورة بذكر الحاقة، أي الساعة التي تحق فيها الأمور وتظهر على حقيقتها فتبطل ظنون الكفار ويبطل تخبطهم: ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة ٦٩/١-٣]،

وبعد أن أكدت سورة القلم أن على الله وحده حساب الكفار المكذّبين بالقرآن: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم ٦٨/٤٤] تؤكد هذه السورة أن القرآن يكون يوم الحساب حسرة على الكافرين: ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الحاقة ٦٩/٥٠]، وتصف يوم الحساب: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة ٦٩/١٨]،

وبعد أن ذكرت سورة القلم زعم الكفار بعلوم الغيب: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ [القلم ٤٧/٦٨] تبين هذه السورة أنهم عن علم الغيب عَمون: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة ٣٨/٦٩-٣٩].

محور السورة

حتمية وقوع الحاقّة، ما يقطع الشك باليقين: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [٣/٦٩]، وأن عذاب الكفار قد يقع في الدنيا قبل الآخرة كما حدث للأمم البائدة: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ [١٠/٦٩]، وأن ما يلقاه المرء من عاقبة في آخرته ليس سوى نتيجة طبيعية لأعماله في دنياه: ﴿إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [٣٣/٦٩-٣٤]، وأن القرآن الكريم يفوق بكثير كل ما يمكن للبشر أن يتوصّل إليه من تلقاء نفسه: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ [٥١/٦٩].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

تبدأ السورة بالتذكير بالحاقّة أي القيامة التي تحقّ فيها الأمور فتُدرَك على حقيقتها، عندما تزول عن الإنسان الأوهام وخداع النفس ويبدو له على وجه اليقين مغزى حياته الدنيوية وآخرته: ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ﴾ (١-٢)

وأنّ إدراكها المفاجيء ساعة وقوعها خارج أي تصور بشري ممكن: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ (٣)

لكنَّ عذاب الدنيا قد يقع قبل عذاب الآخرة، وتضرب مثلاً بما نزل من عذاب المكذّبين من الأمم البائدة: كذّبت ثمودُ رسولَها صالح، وكذّبت عادٌ رسولَها هود: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ (٤) لأنّ رسلَهم أنذرتهم

بالقارعة وهي اسم للقيامة لأنها تقرع الناس، والمعنى أنهم رفضوا التصديق بالقيامة اعتقاداً منهم أن لا مسؤولية ولا حساب إذ يتصرفون في دنياهم كما يشاؤون.

حتى جاءهم العذاب في الدنيا قبل الآخرة: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ (٥) والطاغية الزلزلة، أنظر آية [الأعراف ٧/٧٨].

وهلكت عاد بعواصف رملية شديدة استمرت سبع ليال وثمانية أيام بلا انقطاع فلم تبق منهم أحداً: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ (٦-٨)

وقد أنكر فرعونُ ومَن قبله من الأمم رسالات الرسل، وكذا قوم لوط الذين ائتفكت أي انقلبت بلادهم عاليها سافلها: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾ (٩)

فعقاب معصية الرسل قد يأتي في الدنيا: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ (١٠)

وينجّي الله تعالى المؤمنين كما نجّا العباد الذين استجابوا لدعوة نوح: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ (١١)، والجارية السفينة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾ [الرحمن ٥٥/٢٤]،

لكي يكون في كل ذلك عبرة لمن يعي مجريات الأمور: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ (١٢)

وقصص ثمود وعاد وقوم لوط وقوم نوح مذكورة بتفصيل في آيات [الأعراف ٧/٥٩-١٠٢]، وكذلك قصة موسى وفرعون في آيات [الأعراف ٧/١٠٣-١٣٦].

غير أن العواقب ليست مقتصرة على الدنيا، فالإنسان يتحمل عواقب عمله في الآخرة: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتْ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ * وَانشَقَّتْ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ (١٣-١٧)،

عندما تعرض أعمال الدنيا على أصحابها: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (١٨)،

فيكون الحساب يسيراً على مَن قدّمَ مِن إيمان وعمل صالح، وكان موقناً بالآخرة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيه * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيه * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ (١٩-٢٤)،

في حين يعاني الهول كلّ مَن أنكر الآخرة والحساب واتّبع الهوى في دنياه، فيتمنّى لو كانت ميتته في الدنيا نهائية: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيه * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيه * يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيه * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيه * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ (٢٥-٣٢)

وتكون عاقبته الأخروية نتيجة طبيعية لكفره وإحجامه عن عمل الخير في دنياه: ﴿إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ * لا يَأْكُلُهُ إِلا الْخَاطِئُونَ﴾ (٣٣-٣٧)

ثم تنتقل السورة لتأكيد مصدر الوحي القرآني الذي يشكّك به المكذّبون: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ (٣٨) وهو ما يبصر الإنسان من عالم الشهادة ومعجزة الخلق والأكوان.

وما لا يبصر الإنسان من عالم الغيب: ﴿وَمَا لا تُبْصِرُونَ﴾ (٣٩)

أن القرآن وحي نزل على الرسول الكريم محمد : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (٤٠)

يفوق بكثير كل ما يمكن أن يتوصّل إليه البشر من شعراء وكهّان، مهما التبست الأمور على ضعاف الإيمان: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ * وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤١-٤٣)،

وهو من الإعجاز بحيث يستحيل على الرسول عليه السلام أن يتقوّله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (٤٤-٤٧)،

وأن القرآن ليس سوى تذكِرة لِمَن عنده استعداد للفهم واتّقاء العواقب السيئة: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٨)،

ولأنه تعالى كرّم بني آدم بحرية الخيار فمنهم المؤمن ومنهم المكذّب: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ﴾ (٤٩)،

فتكون عاقبة التكذيب حسرة على صاحبه لأنه تمّ بمحض اختياره: ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٥٠)،

وأن القرآن يُخبر عن الحقيقة المطلقة: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ (٥١)،

فلذلك وجَب التسبيح لله تعالى إذ خلقَ الإنسانَ في أحسن تقويم، وأنزل عليه الوحيَ والميزان، وكرّمه بحرية الخيار: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٥٢).

سورة المعارج -٧٠-

مكية

نزلت خلال النصف الثاني من الفترة المكية، واشتقّ اسمها من كلمة المعارج المذكورة بالآية (٣)، إشارةً للوسائل المتعددة التي يمكن للمرء التوصل بها إلى معرفة الله عزّ وجلّ.

ارتباط السورة بما قبلها

في سورة الحاقّة أنّ العقاب نتيجة لازمة للمعصية: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ [الحاقة ٦٩/١٠]، ثم في هذه السورة أن عذاب الكافرين واقع بهم لا محالة: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ [المعارج ٧٠/١-٢]،

وفي سورة الحاقّة أن الكافر لا يلبث أن يتمنى لو كانت ميتته نهائية: ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة ٦٩/٢٧]، ولذا تحض سورة المعارج المؤمنين على الصبر لأن العدالة لن تلبث أن تتحقق: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج ٧٠/٥-٧].

محور السورة

العدالة لا بد لها من التحقق يوماً: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [٧٠/١]،

والزمن الدنيوي ذو حقيقة ظاهرة فقط: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [٧٠/٤]، ولكن الإنسان خُلق هلوعاً جزوعاً أنانياً: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [٧٠/١٩-٢١]، إلا المصلّين، المتصفين منهم بصفات الأخلاق السامية: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [٧٠/٢٢]، وفي حين يرفض الكفار إبصار حقيقة الوجود الإلهي ويحاولون إيجاد مفهوم للخليقة خاص بهم: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ * عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ * أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ [٧٠/٣٦-٣٨]، فإنّ الحكمة الإلهية اقتضت إمهالهم حتى يوم الدين: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [٧٠/٤٢]،

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

الكثرة من الكفار ترتكب الشرور والجرائم كونها تنكر حقيقة الآخرة أو تستبعدها، ثمّ إنّ أمور بعضهم قد تزدهر في الحياة الدنيا، ممّا يجعل البعض الآخر يشكّ في حقيقة الأمور ويسأل أو يتساءل أولاً إن كانت العدالة ستتحقق؟ وفي حال الإيجاب متى يكون ذلك؟ ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ (١)

فالجواب عن السؤال الأول تجيب عنه الآية ٢: ﴿لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ (٢) إذ العقاب واقعٌ بالكفار لا محالة،

وأن لا شيء يدفع العذاب عنهم من الله عزّ وجلّ الذي يمكن التوصل لمعرفته بوسائل متعددة: ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ (٣)،

أمّا جواب "متى؟" فتشير إليه (الآية ٤) بشكل خفي: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (٤)، والمعنى أنّ لا حقيقة مطلقة لمفهوم الزمن الدنيوي، فالله تعالى بلا بداية ولا نهاية، وإنّما خلقَ تعالى

الزمن النسبي في مفهومنا البشري الدنيوي، أما في خلود الآخرة فيصبح الزمن بلا معنى، وبعبارة أخرى أن الزمن الدنيوي ذو حقيقة ظاهرية فقط،

ومن ثمّ يصبح التساؤل عن موعد نزول العقاب بالكفار بلا معنى أيضاً، وهو سبب الأمر بالصبر: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ (٥-٦) أي في مفهومهم لزمن الدنيا ﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ (٧) في الحقيقة،

قال الرازي: معنى عروج الملائكة والروح إليه سبحانه أنّ جميع الأمور تصيرُ إلى مُراده، وهو كقوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ (هود ١١/١٢٣).

وفي ذلك اليوم يتغير الكون الذي نعرفه: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ (٨) أي كالفلز المذاب،

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ (٩) كالصوف المنفوش، والمعنى كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (إبراهيم ١٤/٤٨)،

ولهول الموقف ينشغل كل امريء بنفسه: ﴿وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ (١٠)،

حتى يُبصر الحميمُ الحميمَ ويعرفه ولكن لانشغاله بنفسه لا يسأله عن شأنه، ويودّ المجرم أن يفدي نفسه بعشيرته: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ (١١-١٤)،

فلا يجد لنفسه فداءً من العذاب: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً لِلشَّوَى﴾ (١٥-١٦)

فقد سبق له أن أدار ظهره للوحي وتولّى عن الصواب: ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ (١٧)

وانشغل بمادية الدنيا، وحبس ماله عن الإنفاق في وجوه الخير: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ (١٨)

فالإنسان خُلقَ هلوعاً ضَجوراً يستعجل الأمور: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (١٩)، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء ٣٨/٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء ٢٨/٤]، وهو لضعف إيمانه يجزع لما يصيبُه من الفقر والمرض: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ (٢٠)

ولشدة أنانيته يمتنع عن الإنفاق في وجوه الخير إذا جمع المال، فيصبح معتدّاً بصحته وحوله وقوته الجسمية: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ (٢١) ونظيره قوله تعالى على لسان امرأة العزيز: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف ٥٣/١٢]،

وعلاج هذا الضعف في النفس البشرية لا يتحقق إلاّ بأن يكون المرء على صلة دائمة بالله تعالى، ولا يتم ذلك إلا بدوام الصلاة والدعاء: ﴿إِلاَّ الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ (٢٢-٢٣)

وأن يقرن القول بالعمل بأن يُكره الإنسان نفسَه على التضحية من ماله بأداء الزكاة والصدقات: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (٢٤-٢٥)

وأن يوقن بالبعث والحساب والجزاء: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ (٢٦) وفي ذلك عودة إلى موضوع الآيات (١-٣)،

وأمثال هؤلاء لا يغترّون بتقواهم رغم صلاحهم واستقامتهم: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ (٢٧)

فيلزمون الحذر ولا يدّعون الكمال لأنفسهم: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ (٢٨)، لأنّ الغواية والضلال غير مقتصرة على الكفار بل قد تطال المؤمنين أيضاً لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال ٨/٢٥]،

ولا يتهالكون وراء رغباتهم الجنسية بما يخالف الشريعة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (٢٩-٣١)

ويردّون الأمانات ويحفظون العهد: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (٣٢)، وفي الحديث: (لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له).

ويحفظون حقوق العباد بعدم التهرب من الشهادة بل بإقامتها على وجهها الصحيح: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ (٣٣)

وصلاتهم ليست رياء ونفاقاً ولا مجرد طقوس: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (٣٤) بل يقومون بجميع حقوقها بما يقتضيه الإسلام من حسن الخلق وحسن المعاملة والأمانة.

فهؤلاء المصلّون، على النقيض من المشار إليهم بالآية (٢)، يؤول مصيرهم إلى النعيم: ﴿أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ (٣٥)

وإذا كانت الأمور على هذا النحو فما للكفار يستعجلون ويتخبطون: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ (٣٦)

ويحاولون تبرير أعمالهم وأفكارهم بنظريات متناقضة، علماً أنّ الأغلبية ليست دليلاً على الصواب: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ (٣٧)

وكيف يأملون التوصّل إلى السعادة بمحاولة نقض الحقيقة الغيبية: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ (٣٨)

وإن الله الذي خلقهم من تراب قادرٌ على إبدال الكفار بمؤمنين، ولكن الحكمة الإلهية اقتضت حرية البشر في الدنيا، وتحدّي الباطل للإيمان، والإيمان للباطل: ﴿كَلاَّ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ خلقهم تعالى من تراب ثم رفعهم إلى منزلة المخلوقات المسؤولة معنوياً وأدبياً ﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (٣٩-٤٢) فهم يخوضون ويلعبون بفلسفة أن الكون لم يُخلق بل وُجد من تلقاء نفسه، وينكرون الآخرة بلا دليل يقيني ولا هدىً ولا كتاب منير.

والإشارة للمشارق والمغارب دليل على كروية الأرض، لأن كل خط من خطوط الطول يكون مشرقاً أو مغرباً في وقت من الأوقات كل أربع وعشرين ساعة.

ثم لا يلبث الكافر أن يلاقي جزاءه في اليوم الموعود: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (٤٣-٤٤) وهي النقطة التي بدأت منها السورة.

سورة نوح -٧١-

مكية

ارتباط السورة بما قبلها

تبدو سورة نوح وكأنها مثال لموضوع سورة المعارج في حتمية تحقق العدالة: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ [المعارج ٧٠/١-٢]، ففي سورة نوح نقرأ قوله تعالى عن قوم نوح: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [نوح٧١/٢٥]، وقد وردت قصة نوح بعبَر متنوعة في عدة سور قرآنية بإيجاز، وفي سورة هود بتفصيل.

محور السورة

السورة بالكامل مخصصة لقصة نوح مع قومه، وتبرز العبَر منها في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح٧١/١٣-١٤]، وأنّ الكبر الزائف والاعتداد بالمال والولد يؤدي بأصحابه إلى الدمار الروحي: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا﴾ [نوح٧١/٢١].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

دعوة نوح لقومه لا تختلف عن دعوة غيره من الرسل، أنه في حال توبة القوم

يغفر تعالى ما سبق من ذنوبهم، إذ الإيمان يجبّ ما قبله، ثم يصبحون في موقع المسؤولية، وفي حال معصيتهم يُمهلهم حتى يحين أجلُهم، فإذا حان الأجل لم ينفع الإيمان: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١-٤)

لكنّ مَن أصمّ أذنيه سلفاً عن الحقيقة لا تفيده دعوة الرسل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ (٥-٦)

وأن المصمّمين على الكفر يخشون مواجهة الحقيقة خوفاً من أن تزعزع معتقداتهم الباطلة وخشية أن يفارقوا دين آبائهم، ولا يملكون الشجاعة الكافية للاستماع للدعوة وتقييمها من حيث جدارتها: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا﴾ وأنهم يستكبرون بالباطل: ﴿وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ (٧)

ولشدة تمسكهم بالتقليد لا ينفع معهم الجهر بالدعوة أمام الناس ولا الإسرار بها لتدخل قلوبهم: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ (٩)

وأنّ مِن شأن الإيمان والاستغفار والتواضع الارتقاء بأصحابه إلى نعيم الدنيا، وهو ما دعاهم نوح إليه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ (١٠-١٢)

وأنّ كفر الكفّار مِن العجب إذ المعجزات الباهرات محيطة بهم من كلّ جانب: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ (١٣)

ومنها خلقهم في بطون أمهاتهم أطواراً، من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ (١٤)، انظر آية [المؤمنون ١٤/٢٣].

ومنها خلق الكون الهائل بإحكام يذهل العقول: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ (١٥)

وخلق الشمس مصدراً للطاقة في النظام الشمسي، والقمر ينعكس عليه نور الشمس: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ (١٦)

ومعجزة خلق البشر من المادة العضوية وغير العضوية الموجودة في التراب، في عودة لموضوع الآية (١٤)، ونفخ الروح في هذه المادة كي يصبح الإنسان ذا مقدرة عقلية تتلقى الوحي وتميز بين الخير والشر: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ (١٧)

ثم تحلله بعد الموت إلى التراب، ثم بعثه من جديد للحساب: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ (١٨)

ومعجزة تسخير الدنيا لمعاش الإنسان: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ (١٩)

وسعي الإنسان فيها طلباً للرزق: ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ (٢٠)

ومع كل هذه المعجزات المذهلة ورغم تكريم الإنسان بالعقل وبحرية الفكر وحرية الخيار، يسيء الكفار استخدام مَلَكاتهم العقلية والروحية ويتكالبون على مادية الدنيا -كالمال والولد- ويغترّون بالكِبَر الزائف والاستعلاء والبطر والوجاهة مما يؤدي إلى انهيار القيم الروحية والأخلاقية وتفكك وانهيار المجتمع: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٢١)

و قد بالغوا في الكفر وإنكار النعم: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ (٢٢)

وعطّلوا فكرهم سلفاً وأصرّوا على تقليد آبائهم بعبادة الأوهام: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ وعبادة آلهة وثنية، ما فيه إهانة للفكر والعقل السليم: ﴿وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (٢٣)

فدعا نوحٌ ربَّهُ أن لا يتحقق لهم ما يطمحون من مطامع الدنيا التي يتكالبون عليها: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلاّ ضَلالاً﴾ (٢٤) أي لا تزدهم إلا ضلالاً عن مطامعهم الدنيوية.

غير أنّ الفساد المستشري يؤدي بأصحابه إلى عذاب الدنيا قبل الآخرة: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ (٢٥)، انظر آية [هود ١١/١١٧]؛

ثمّ دعا نوح ربَّه ألاّ يذر على ظهر الأرض كافراً يقطن الديار: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (٢٦) بمعنى أن تتحقق الهداية لجميع البشر.

﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (٢٧) والمقصود دعاؤه على الكفر والفجور، لأن مغزى الخلق اقتضته الحكمة الإلهية الموضحة بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود ١١/١١٨].

ولمّا اقتضت سنته تعالى في خلقه أن يكون للناس حرية الفكر والخيار، وبالتالي أن يخرج منهم المؤمن والكافر فتكون الحياة الدنيا مسرحاً لصراع الحق مع الباطل، وأن ليس بالضرورة أن يخرج من أصلاب الكفّار كفّارٌ مثلهم لأنه تعالى يخرج من يشاء من الظلمات إلى النور، فقد استدرك نوح عليه السلام بالاستغفار: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ثم دعا أن لا يتحقق للظالمين مرادُهم: ﴿وَلا تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلاّ تَبَارًا﴾ (٢٨) أي هلاكاً.

سورة الجن -٧٢-

مكية

الخلفية التاريخية

نزلت قبل عامين من هجرته عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، وكان قد أيس من دعوته أهل مكة بعد أن لبث يدعوهم إلى الإسلام عشر سنين، فذهب يدعو أهلَ الطائف فرفضوا، فلمّا كان في طريق عودته إلى مكة استمع إليه نفرٌ من الجن وهو في واحة نخلة يتلو القرآن، وقالوا أنّ النفر هو العدد القليل ما بين الثلاثة إلى العشرة، ورُويَ أن ذلك النفر كانوا يهوداً (الرازي)، وهنالك إشارة أخرى لهذه الحادثة في آيات [الأحقاف ٢٩/٤٦-٣٢]، ثم بعد هذه الحادثة بشهرين التقى النبي عليه السلام بغرباء آخرين من المدينة قبلوا دعوته وبايعوه، ثم كانت الهجرة بداية انطلاق الدعوة بعد اثني عشر عاماً من مقاومة مكة والطائف لها.

ارتباط السورة بما قبلها

ضربت سورة نوح مثالاً على إصرار القوم على الكفر حتى النهاية: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [نوح ٢٥/٧١] إذ لم تنفع فيهم دعوة نوح رغم لبثه فيهم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً، ثم تبين سورة الجن أنه في مثل هذه الحالة يسخّر تعالى مَن يؤمن بالرسالة من الجنّ والإنس: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا﴾ [الجن ١٣/٧٢]،

مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام ٦/٨٩].

﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ﴾ من كفار قريش، أو غيرهم من العرب، أو أهل الكتاب، أو الكفار في كل العصور والأمكنة ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ أي بالرسالة ﴿قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ وهم المسلمون في كل الأزمنة، إذ يوكّل تعالى بالرسالة أقواماً آخرين يستحيل أن يكفروا بها، بل يتمسكوا بها ويعملوا بمقتضاها، فهنالك دوماً من هو جدير بحمل راية الدين، وهؤلاء الأقوام موجودون في الدنيا على مرّ العصور، وليسوا مقتصرين على جنس معين، وقد يتتابعون في حمل راية الإسلام من قوم إلى قوم آخرين فيشرّفهم تعالى بحمل رسالته، وهذه الآية إخبار بالغيب، واستخدام الفعل الماضي للدلالة أنّ نصره تعالى لدينه متحقق لا محالة.

ومن ذلك رأينا في سورة الجمعة أنه بعد كفر أهل الكتاب من بني إسرائيل ثم رفضهم آخر أنبيائهم العظام عيسى المسيح عليه السلام، ثم انحراف المسيحية نحو ديانة بولس، فقد أوكل تعالى الرسالة السماوية إلى المسلمين من ذرية إسماعيل.

محور السورة

نزول الوحي على النبي عليه السلام يخبره باستماع الجن له وهو يتلو القرآن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [١/٧٢]، فآمنوا به وتبرؤوا من عقائد اليهود الفاسدة ومن شرك المسيحية، وتبلغ السورة أوجها بإخباره تعالى عن عباده: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [١٧/٧٢]، فالنعم قد تكون ثواباً وفتنةً في الوقت ذاته، ثمّ إنّ الإعراض عن القرآن يكون مقدمة لأسوأ العواقب.

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ (١) قيل أن الجن الذين استمعوا النبي عليه السلام وهو يتلو القرآن هم من يهود نصيبين (الرازي) بدليل أنهم خاطبوا قومهم بعد ذلك قائلين: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف ٣٠/٤٦]، فقولهم: ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ يدلّ على أنهم لم يعترفوا ببعثة المسيح عليه السلام من جهة، ومن جهة ثانية أنهم موحّدون استنكروا الشرك المسيحي القائل بالتثليث والزعم أن المسيح ابن الله، لقولهم: ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا * وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا﴾ (١-٣)

ثم قولهم: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ (٤) ممّا قد يكون إشارة لشطط اليهود في اعتقادهم أنهم شعب الله المختار الأمر الذي يدحضه القرآن الكريم تماماً،

وقولهم: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ (٥) فالكذب قد يكون إشارة لسفسطة اليهود عن طبيعة الذات الإلهية وعلاقتها مع الكون.

وقولهم: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (٦) قد يكون إشارة لمحاولة بعضهم تلمّس طريقه في الحياة بمحاولة اللجوء إلى قوى غيبية بدلاً من ترقّب الهداية عن طريق خاتم الأنبياء والرسل، ورجال بمعنى أفراد منهم.

وقولهم: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ (٧) كون اليهود

يعتبرون النبوّات خُتمت بأنبيائهم المذكورين في العهد القديم فقط وهم لذلك لم يعترفوا ببعثتي عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام،

وقولهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ (٨-٩) إشارة لتخبّط قدماء اليهود في محاولة التوصّل للغيب والتحكّم بالمستقبل عن طريق علوم الفلك راجع آية [البقرة ١٠٢/٢]، وأيضاً آية [المُلك ٥/٦٧].

وقد أقرّوا بعد سماعهم القرآن أنهم عن علم الغيب عَمون لا يفيدهم التنجيم شيئاً في معرفة المستقبل: ﴿وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ (١٠)

وأنهم كانوا قبل ذلك أصناف مختلفة تتراوح بين الصلاح ومَن هم دون ذلك بكثير: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ (١١)

ثمّ بعد سماع الوحي القرآني أيقنوا أن لا مفر لهم من المسؤولية والحساب: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ (١٢) والظنّ هنا بمعنى اليقين.

فأعلنوا إيمانهم: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ﴾ لأن المؤمن يكون مطمئناً للعدالة الإلهية: ﴿فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا﴾ (١٣) فلا يبخس حقه ولا يرهق ظلماً.

فصار منهم المسلمون، ومنهم ظالمون منحرفون عن الطريق السوي: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ (١٤)،

والقاسطون الظالمون، والمقسطون الذين يحكمون بالعدل كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة ٤٢/٥]، وقوله تعالى: ﴿وأقسطوا إن الله يحبّ المقسطين﴾

[الحجرات ٤٩/٩]، فيقال أقسط الرجل إذا عدل، أمّا قَسَطَ فمعناها جارَ ويقال قَسَط الرجل إذا ظلم صاحبه في قسطه أو نصيبه الذي يستحقه.

فالقاسطون عاقبتهم وخيمة جداً: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ (١٥)،

ثم يخبر تعالى أن إغداق النِعَم على العباد هو في ذات الوقت ابتلاء واختبار لهم: ﴿وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ أي على طريقة الإسلام ﴿لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ (١٦-١٧) والماء الغدق أي الخيرات الكثيرة.

وأنّ الإعراض عن القرآن يقود صاحبَه لأسوأ العواقب: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ (١٧)

وأنّ العبادة يجب أن تكون مكرّسة لله وحده بلا شرك: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (١٨)

وأن الداعي إلى الله كثيراً ما يتعرض لعداء الغالبية من الناس: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ (١٩) وقد سبق لقريش أن تجمهرت ضد دعوة النبي ﷺ،

مع أنه كان يدعوهم إلى التوحيد ونبذ الشرك: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ (٢٠)

فلم يكن يملك لهم سوى الدعوة ولا يكرههم على الإيمان: ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا﴾ (٢١)

بل كان عليه القيام بمهام الرسالة النبوية الموكلة إليه: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٢٢) فهي ملاذه الوحيد: ﴿إِلاَّ بَلاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ﴾ (٢٣)

لينذر الناس بعاقبة معصية الله ورسوله: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ (٢٣)

وعندما يحين موعد القيامة: ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ فوقتئذٍ يعلم الكفار على وجه اليقين أن الأغلبية الضالة ليست على شيء، وأن العبرة ليست بالأكثرية: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ (٢٤)

وأن تحدّيهم النبي والمؤمنين بموعد الساعة لا معنى له إذ هي في علم الغيب، وليس من حكمة في إبداء موعدها: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ (٢٥)

وأن الله تعالى وحده يعلم الغيب ما هو خارج استيعاب الفهم البشري: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢٦).

أما الرسل فالله تعالى يحميهم مما بين أيديهم من القوى المادية في دنياهم، ومما لا يعلمون من القوى الغيبية: ﴿إِلاَّ مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (٢٧)

لكي يكون أداء الرسل وإبلاغهم الرسالات السماوية على أكمل وجه: ﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ﴾ فالله تعالى محيط بما لديهم من البلاغ: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ كما هو محيط بالجزئيات: ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ (٢٨)

سورة المزّمل -٧٣-

مكية

المزّمل السورة الرابعة في ترتيب النزول بعد العلق-القلم-المدّثر، وقيل بل الثالثة: وإن تكن بعض آياتها قد تأخرت عنها.

ارتباط السورة بما قبلها

ختمت سورة الجن بأن الله تعالى يحمي رسلَه مما بين أيديهم من القوى المادية في الدنيا، ومما يخفى عليهم من القوى الغيبية: ﴿إِلاَّ مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن ٢٧/٧٢] لكي يكون أداؤهم وإبلاغهم الرسالات السماوية على أكمل وجه: ﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن٢٨/٧٢]، ثم تنتقل سورة المزّمل إلى دعوة النبي ﷺ للقيام بمهام بعثته النبوية من البلاغ والصبر على الكفار: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً﴾ [المزّمل ١٠/٧٣]، وأن الله تعالى متولّي أمور المكذّبين: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ [المزّمل ١١/٧٣]،

وفي سورة الجنّ أنّ النعم قد تكون ثواباً وفتنةً في ذات الوقت، ثمّ إنّ الإعراض عن القرآن يكون مقدمة لأسوأ العواقب: ﴿وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا

صَعَدًا﴾ [الجن ٧٢/١٧]، وفي سورة المزمل أن القرآن الكريم تذكرة لَمن أراد الخيار الصحيح: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ [المزمل ٧٣/١٩].

محور السورة

السورة دعوة للنبي عليه الصلاة والسلام للبدء بحمل الرسالة: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمْ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [٧٣/١-٤]، وتهيأته للصبر على تكذيب المكذّبين: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً﴾ [٧٣/١٠]،

ثم إنّ الرسالة الإسلامية تذكِرة للناس لما فُطروا عليه من التوحيد ومعرفة الخالق: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ [٧٣/١٩] لأنه تعالى كرّم بني آدم بحرية الخيار.

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

المزّمل بمعنى المتلفّف أو الملتحف فيقال تزمّل وتدثّر بثوبه إذا تغطّى، فالمعنى على الحقيقة، كأنّه قيل يا أيها النائم المزّمل بثوبه قم للعبادة، أو هو بالمعنى المجازي أي يا أيها المزّمل نفسَه اترك نصب النفس واشتغل بالدعوة: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ (١)

فهي دعوة للنبي عليه السلام في بداية بعثته لقيام جزء من الليل والتعمّق في القرآن تمهيداً لبعثته: ﴿قُمْ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (٢)

والقليل هو نصف الليل: ﴿نِصْفَهُ﴾ أو أقل من النصف: ﴿أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً﴾ (٣)

أو أكثر من النصف: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ والنتيجة أنّ النبي ﷺ بالخيار أن يقوم نصف الليل أو أقل أو أكثر، وأن يتمعّن في معاني القرآن حين تلاوته: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ (٤) وقالوا الترتيل بمعنى التبيين.

تمهيداً لما سينزل على النبي من عظيم القرآن: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ (٥)

وتكريس النفس للقرآن خلال الليل بعيداً عن مشاغل الدنيا: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾ حتى يواطيء القلب ما يقوله اللسان: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ (٦)

ولأن كثيراً من مهام الدعوة تنتظر النبي ﷺ خلال النهار: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً﴾ (٧)

وأن ينشغل الرسول بذكر الله ويكرس حياته لمهام البعثة: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ (٨)

وأن يفوّض كل أموره إليه تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ (٩)، قال الرازي: لأن مَن لا يفوّض كل أموره إلى الله تعالى فهو غير عالم بحقيقة (لا إله إلاّ الله).

وأن يتهيأ عليه الصلاة والسلام للصبر على العَنَت الذي سيلقاه من خصومه -كما هي حال كل داعٍ في كل وقت ومكان- ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً﴾ (١٠)، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ * فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف ٤٣/٨٨-٨٩].

وأن يترك عقاب المكذّبين على الله وحده: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ (١١) والإمهال قليلاً أي حتى يراجع المكذّبون أنفسهم ويتوبوا، أو إمهالهم ليوم الحساب،

وقد ذكر الرازي أربعة مراتب من العذاب الروحاني الذي يترتب على المكذّبين لشدة تعلقهم بمادية الدنيا حتى يتجرع أحدهم غصة الحرمان وألم الفراق: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٢-١٣)

يوم تزلزل الأرض والجبال، وتصبح الجبال كالرمال المتحركة: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً﴾ (١٤)

ثم تبيّن السورة أن ليس ما يدعو للاستغراب من بعثته عليه السلام فهي استمرار لما سبق من بعث الرسل، كبعثة موسى إلى فرعون: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾ (١٥)

وأن عاقبة مَن يعصون الأنبياء واحدة في الماضي والحاضر، وهي عاقبة ثقيلة وخيمة: ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً﴾ (١٦)

فكيف للناس أن يتقوا أوخم العواقب مع كفرهم برسالة النبي ﷺ: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾ (١٧-١٨)

وأن الرسالة الإسلامية، تذكرة للناس فهي ليست قسراً ولا إجباراً، فمَن شاء اهتدى بها: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ (١٩)

وتختم السورة بالعودة إلى النقطة التي بدأت منها وهي التركيز على فوائد قيام الليل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنْ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ وأن المؤمنين مقبلون بشوق على قيام الليل في الوقت الذي لا يكون تركيزهم على المدة الزمنية التي أمضوها في القيام: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ﴾ فقبل تعالى توبتهم ورخّص لهم بقراءة ما تيسّر من القرآن دون التركيز على المدة الزمنية: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْ الْقُرْآنِ﴾ فمنهم المرضى ضعاف الأجسام، ومنهم الذين يضربون في الأرض

ابتغاء الرزق الحلال، ومنهم المجاهدون في سبيل الله: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فما جعل تعالى عليهم من حرج: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وتحثهم الآية أن يقدموا أعمال الخير لآخرتهم: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بتقديم الصدقات ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ وأن يستغفروا الله لذنوبهم: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٠)

وقد لاحظ الرازي من لطائف الآية أنه تعالى سوّى بين المسافرين الساعين للرزق الحلال وبين المجاهدين.

سورة المدّثر -٧٤-

مكية

من أوائل السور المكية، الثالثة في ترتيب النزول،

وقيل بل الرابعة في معظم آياتها

ارتباط السورة بما قبلها

السورة استمرار لسورة المزّمل من حيث دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام للخروج من عزلته والتصدّي للدعوة، والصبر على المكذّبين: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً﴾ [المزّمل ٧٣/١٠]، وفي سورة المدّثر هذه: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدّثر ٧٤/٧] أي في أمور الدعوة،

وفي سورة المزّمل أن رسالة الإسلام تذكرة لما فُطر الناس عليه من التوحيد: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ [المزّمل ٧٣/١٩]، وفي هذه السورة أن القرآن الكريم تذكِرة لمن كانت فطرته سليمة واستفاد من العقل السليم: ﴿كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ [المدّثر ٧٤/٥٤-٥٥] لأن الإنسان مكرّم على باقي المخلوقات بحرية الفكر والاختيار.

محور السورة

السورة تلخص المبادىء القرآنية الأساسية للدعوة، وأنه بعد الدعوة يبقى

الحساب على الله وحده: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [١١/٧٤]، وأن الكفار لاستكبارهم يتخبطون في إعجاز القرآن: ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [٢٤/٧٤-٢٥]، فلا تلوح لهم الحقيقة إلا بعد الفوات: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ [٢٦/٧٤-٢٩]، وأنّ الثواب والعذاب نتيجة طبيعية لكسب الإنسان وتجاوبه أو عدم تجاوبه مع الهداية الإلهية: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [٣٨/٧٤]، وأن أصل الضلال الإصرار على إنكار الغيب: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ [٥٢/٧٤].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

المدّثر الملتحف بالدثار أو الغطاء، وهو على الحقيقة أو على المجاز، والمعنى دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الخروج من عزلته وحمل عبء الرسالة: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾ (١-٢)،

وأن يكبّر ربَّه عن الشركاء والأنداد وعن مشابهة الممكنات وعن اللغو والعبث: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ (٣)

وتطهير الثياب على الحقيقة والمجاز أيضاً، فقد تكون الثياب كناية عن النفس فيقال رجلٌ طاهر الثياب أي هو طاهر عن الصفات الذميمة: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ (٤)

وأن يهجر القيم الزائفة التي يتمسك بها قومُه وكل ما هو مستقبح: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ (٥) وقالوا إن الرجز هو الرجس، أو النجاسة المعنوية، أي القيم الزائفة التي قد يعتقدها المرء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس ١٠/١٠٠]، أي الذين لا يستخدمون عقولهم بالطريق

السوي يصبحون ضحية للاعتقاد بالقيم الزائفة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة ٩/٢٨]،

وأن لا يكون عطاؤه للناس بغرض الاستكثار من مال الدنيا، كما لا يستكثر ما يمنن به على الفقراء: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ (٦)

والصبر على ما هو مقبل عليه من مصاعب الدعوة: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ (٧)

وأن ينذر الناس بيوم القيامة والحساب: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ (٨)

يوم يكون حساب الكافرين عسيراً: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ (٩-١٠)، ونلاحظ أن هذا أول ذكر للكفار في القرآن الكريم إذ هذه السورة الثالثة أو الرابعة في ترتيب النزول، فالكافر ليس بالمعنى الفقهي، وإنما بمعنى منكر الحقيقة كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد ٥٧/٢٠] فسمّى الزرّاع كفاراً لأنهم يغطون البذور بالتراب، فصار كل من يغطي الحقيقة عن نفسه أو ينكرها كافراً.

وأنه بعد إنذار الناس بيوم الحساب يبقى حساب الكفار على الله تعالى وحده: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ (١١)، ويحتمل المعنى أيضاً أنه تعالى وحده الخالق، وأيضاً أن الإنسان يولد وحيداً ويموت وحيداً،

وأنّه تعالى أنعم على الكافر من المال الكثير: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾ (١٢)

ووهبه من البنين يكونون إلى جانبه: ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ (١٣)

ومهّد له سبل معاشه: ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ (١٤)

وهو يطمع بالمزيد: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ (١٥)

مع أنه معاند للوحي الإلهي مصرّ على إنكار الحقيقة: ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ (١٦)

وهو لا يدرك أنّ فساد الفطرة وسوء استخدام النعم تؤولان بحياة المرء إلى المصاعب والمآسي في الدنيا، وإلى عاقبة أسوأ في الآخرة: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ (١٧)

لقد فكّر في الوحي وقدّر، كيف يمكن له إنكاره: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ (١٨)

وهذا النوع من التفكير المنحرف يؤدي بصاحبه إلى الدمار: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ (٢٠)

ثم نظر في حجج واهية أخرى كيف يدحض الوحي برأيه: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ (٢١)

ثم عبس ونظر مغضباً لأنه يعلم في قرارة نفسه أن حججه ضعيفة: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ (٢٢)

لكنه قرر أن يدير ظهره للحقيقة، إذ غلبه الاستكبار: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ (٢٣)

فَنَسبَ إعجاز القرآن إلى عبقرية الرسول، والعبقرية في اللغة من العبقر وهو مكان زعمت العرب أنه من أرض الجن ثم نسبوا إليه كل شيء يعجبون من حذاقته فيقال عبقري، فالسحر في الآية بمنزلة العبقرية: ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ (٢٤)

وأنه من خداع البشر: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (٢٥)

غير أنّ عاقبة إنكار الحقيقة والاستكبار وخيمة جداً: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ﴾ (٢٦-٢٨)

وعند معاينة العذاب تلوح الحقيقة للكافر: ﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ (٢٩)

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ (٣٠) الله أعلم بمراده، أنظر آية [آل عمران ٣/٧] عن الآيات المتشابهات.

وأن المصممين على الكفر سيجدون في هذا العدد فرصة لبثّ الشبهات: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أما الذين أوتوا علم الكتاب فيكون ذلك سبباً لزيادة إيمانهم وعدم ريبتهم: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ بعكس ضعاف الإيمان والمصمّمين على الكفر الذين يثيرون الشبهات على المَثَل الذي أوردته الآية السابقة في عدّة أصحاب النار: ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾ وأنه بمثل هذه الآيات المتشابهات يضلّ مَن فسدت فطرته ويهتدي مَن يهتدي، لأن الآية تشير إلى سَقَر بصورة رمزية فهي من أمور الغيب وخارج إدراك البشر: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ وما هذه الآيات سوى ذكرى للبشر: ﴿وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ (٣١)

وكما القمر يدور في فلكه، وكما يتتابع الليل والنهار، وفق السنن الكونية: ﴿كَلاَّ وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ (٣٢-٣٤)

فكذلك الإنذار بسَقَر من عظائم الأمور لِمَن شاء اختيار طريق الهداية من طريق الضلال: ﴿إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ (٣٥-٣٧)

فتصبح كل نفس مرتهنة بعملها، والعقاب نتيجة لازمة للعمل السيء: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (٣٨)

عدا المتقين المرموز لهم بأصحاب اليمين: ﴿إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ (٣٩)، والعرب تقول ميمون وأيمن تفاؤلاً،

فأصحاب اليمين في نعيم الجنان يتعجبون من سلوك المجرمين ما أدّى بهم إلى الجحيم: ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾

(٤٠-٤٢) وهو سؤال تعجّب من بلادة المجرمين، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك ٦٧/٨] أي لبلادة الكفار،

أولاً أنهم لم يكونوا مؤمنين عابدين لله: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ (٤٣) ولأنه وقت نزول السورة لم تكن الصلاة المكتوبة قد فُرضت، فالمقصود من الصلاة الدعاء، أنظر آية [غافر ٤٠/٦٠]، وفي الحديث: "الدعاء مخ العبادة"، وقالوا: معنى الدعاء الإيمان،

وثانياً أنهم لم ينفقوا في عمل الخير: ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ (٤٤) لأن الإيمان يجب أن يصدّقه العمل،

وكانوا يخوضون مع أمثالهم في أحاديث الباطل: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ (٤٥)

وكذّبوا بالمسؤولية والبعث والحساب: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ (٤٦)

حتى وافتهم المنية: ﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ (٤٧)

فلم تنفعهم شفاعة مَن توهّموا فيهم الشفاعة: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (٤٨)

فأي عذر للكفار في إعراضهم عن القرآن؟ ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ (٤٩)

إذ هم في إعراضهم عن القرآن كالحُمُر النافرة من الأسد: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ (٥٠-٥١)، وتشبيههم بالحُمُر أنهم لم يستفيدوا من عقولهم، وهو كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة ٦٢/٥]،

والكافر لشدة استكباره ينكر الرسل ويريد نزول الوحي عليه شخصياً حتى يؤمن: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ (٥٢)

في حين أنه جاحد لا يؤمن بالبعث والحساب: ﴿كَلاَّ بَلْ لا يَخَافُونَ الآخِرَةَ﴾ (٥٣)

لكن القرآن ليس سوى تذكرة لِمَن مالَ نحو الفطرة السليمة واستفاد من العقل السليم: ﴿كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ (٥٤-٥٥)

غير أن الإنسان في منتهى الضعف ومعتمد بالكامل على العناية واللطف والتوفيق: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ (٥٦).

سورة القيامة -٧٥-

مكية

نزلت خلال النصف الأول من الفترة المكية.

ارتباط السورة بما قبلها

في سورة المدّثر أن حساب الكفار يكون عسيراً يوم القيامة: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر ٧٤/٨-١٠]، وتفتتح هذه السورة بتأكيد وقوع القيامة: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة ٧٥/١]،

وفي سورة المدّثر أن الكفار مصرّون على إنكار الحساب: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المدثر ٧٤/٤٦]، ثم تبين هذه السورة أن الإنكار من صفات الفجّار: ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ * يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة ٧٥/٥-٦]،

وفي سورة المدّثر أن الجزاء مترتب على العمل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر ٧٤/٣٨]، وهذه السورة تبين مسؤولية الفرد فيما قدّم من عمل وما ترك من واجبات: ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة ٧٥/١٣]،

وفي سورة المدّثر أنّ إعراض الكفار عن القرآن من العجب: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر ٧٤/٤٩]، وتبين هذه السورة أن السبب هو تهالكهم على الدنيا: ﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾ [القيامة ٧٥/٢٠-٢١].

محور السورة

تأكيد مسؤولية الفرد يوم الحساب عمّا قام به من عمل وما ترك من واجب: ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [١٣/٧٥]، وأن علم الساعة في القرآن الكريم من الوضوح ما يوجب التأني في استيعاب معاني القرآن: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [١٦/٧٥]، فكيف يليق بالإنسان التفكير أنه غير مسؤول عن أعماله وأنْ لن يُحاسب عليها؟ ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [٣٦/٧٥].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

تفتتح السورة بالتنبيه على حتمية وقوع الساعة والحساب: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (١)

والتنبيه أنّ النفوس في قرارتها تدرك نقائصَها وقصورَها وفجورَها، ثم لا تستجيب لداعي الحق، وفي نهاية المطاف تلوم نفسها يوم الحساب: ﴿وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (٢)

فكيف يليق بها التعامي عن القيامة؟ ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ (٣)

رغم المعجزات الماثلة ومنها تسوية البنان والبصمات الفردية التي لا يتشابه منها اثنان: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ (٤)

فالإنسان المشكّك يَفْجُر فيما بقي أمامه من الزمن، إذ يُسوّف ويتعلق بالأمل كما لو كان موقناً بعدم البعث: ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ * يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ (٥-٦)

ثمّ عندما تقع الواقعة يحار البصر في هولها: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ (٧)

فتبدّل الأرض غير الأرض والسماوات: ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ (٨-٩)

ويوقن المشكّك يومئذٍ أن لا مفرّ: ﴿يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ (١٠)

وأن لا ملجأ له من الله إلاّ إليه، ولا شيء يعتصم به من أمر الله: ﴿كَلاَّ لا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ (١١-١٢)

ويجد نفسَه في مواجهة أعماله، ليس فقط ما قام به، بل أيضاً ما أهمل من العمل الذي كان عليه أن يقوم به: ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ (١٣)

وتشهد نفسُه عليه: ﴿بَلْ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (١٤)

فلا تنفعه الأعذار إذ هو شاهد على نفسه: ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ (١٥)

وعِلم الساعة من الوضوح في القرآن الكريم بحيث لا ينكرها إلاّ مكابر مستكبر كما في قوله تعالى: (وَإِنَّهُ- أي القرآن الكريم- لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا) [الزخرف ٤٣/٦١]،

لذا تحضّ الآياتُ التاليةُ الإنسانَ على التمعن في فهم القرآن وتنهى عن العجلة في التوصل لمعانيه اعتماداً على نصوص مجتزأة منه إذ لا يمكن فهم القرآن إلا بالنظر إليه ودراسته كوحدة متكاملة: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ أي أيها الإنسان ﴿لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٦-١٧)

وعليكَ أيها الإنسان تتبّع معانيه: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (١٨) والقراءة منسوبة للذات العلية لأنه تعالى مصدر الوحي،

ومن التأني والتمعن في القراءة تتبين المعاني من فهم القرآن ككلّ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (١٩)، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه ٢٠/١١٤]، لأنّ القرآن كلّه كالسورة الواحدة، لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر ١٥/٩١].

ثم تبين السورة سبب استكبار المستكبرين عن فهم القرآن، وبالتالي عن الإقرار بالآخرة، بأنه التهالك على الدنيا العاجلة: ﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ (٢٠)

والتعامي عن الآخرة: ﴿وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾ (٢١)

يوم تكون وجوه المؤمنين ناضرة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (٢٢-٢٣)

وتكون وجوه الكفار من يأسها شديدة العبوس: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ (٢٤)

وقد أيقنت بأن تقع بها داهية تكسر فقار الظهر: ﴿تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ (٢٤-٢٥)

ثم تتحداهم السورة أن لو كان استكبار المستكبرين في محلّه أن يمنعوا خروج الروح من صاحبها وهو على فراش الموت: ﴿كَلاَّ إِذَا بَلَغَتْ التَّرَاقِيَ﴾ (٢٦) والتراقي جمع ترقوة وهي عظم الكتف، والكناية بها عن القرب من الموت،

فأي رُقْية تفيدهم في دفع الموت؟ ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ (٢٧)

مع يقين المرء وقتئذٍ أنه مفارق الدنيا: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ (٢٨)

وهو يعاني من سكرات الموت وشدته: ﴿وَالْتَفَّتْ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ (٢٩)

حتى يصير إلى ربّه: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ (٣٠)

وماذا تفيده التوبة والإيمان بعد المعاينة، فقد كان في حياته مكذّباً: ﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ (٣١-٣٢)

مصرّاً على الكبر في أهله وعشيرته معتدّاً بحوله وقوّته: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ (٣٣)، ظانّاً أنه مكتفٍ ذاتياً بما عنده من العلم غنيّ عن الوحي الإلهي،

في حين الهلاك قاربَ منه شيئاً فشيئاً وهو غافل: ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾ (٣٥)

فكيف يظنّ أن لن يُحاسب على عمله؟ ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٣٦)

إذ خلقه تعالى وسوّاه ونفخ فيه الروح بعد أن كان مجرد نطفة تافهة في الرحم: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى﴾ (٣٧-٣٩)، وهي معجزة بحد ذاتها كافية للدلالة على حتمية البعث والحساب: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ (٤٠).

سورة الإنسان -٧٦-

مدنية، وقيل مكية، وقيل بها مكي ومدني

ارتباط السورة بما قبلها

تعلّق السورة بما قبلها واضح، فبعد قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة ٧٥/٤٠]، تبين سورة الإنسان أنه أتى حين من الدهر لم يكن للإنسان وجود على هذه الأرض: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان ٧٦/١]، ثمّ خلقه تعالى من نطفة: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان ٧٦/٢]، فما الذي يمنع بعثه من جديد بعدامواته؟ وفي ذلك إشارة لقوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق ٥٠/١٥].

وقد نَفَت سورة القيامة أن يُترك الإنسان بلا حساب: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة ٧٥/٣٦]، وتوضح هذه السورة السبب في ذلك لأن الله تعالى بيّن للإنسان طريق الخير من الشر فصار في موقع المسؤولية: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان ٧٦/٣].

محور السورة

خلق اللهُ تعالى الإنسانَ واختصّه -ابتلاءً- بموهبة الفهم والبصيرة وإدراك الخير من الشر: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [٣/٧٦]، وأنزل عليه الوحي تبياناً لكل شيء: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً﴾ [٢٣/٧٦]، فوجب على الإنسان تحمل المسؤولية والصبر على التكليف وعدم طاعة الكفار بما يخالف القرآن: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [٢٤/٧٦]، والاستعانة على ذلك بالذكر والصلاة والتسبيح: ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيلاً طَوِيلاً﴾ [٢٥/٧٦-٢٦].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

انقضت حقبة طويلة جداً من الزمن قبل وجود الإنسان على الأرض، ممّا يدحض زعم الكفار أن الإنسان هو الكائن الأعلى في الكون: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ (١)

وأن خلق الإنسان ليس عبثاً فقد زوّده تعالى بموهبة الفهم وإمكانية التمييز بين الخير والشر، والصواب من الخطأ، وبالتالي أصبح في موقع المسؤولية: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٢) ونطفة أمشاج أي خليط من نطفة الرجل والمرأة.

ثم بيّن له تعالى طريق الهداية بالدليل العقلي، ثم بواسطة الوحي الذي تنزّل على الأنبياء والرسل: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (٣) وبالتالي فإنّ الكفر ليس سوى كبت متعمّد من قبل الكافر لما فيه من معرفة الإله الأحد.

ما يوجب العقاب الشديد للكفار: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلاً وَأَغْلالاً وَسَعِيرًا﴾ (٤)

وما يوجب الثواب العظيم للأبرار: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ (٥-٦)

الذين يوفون بواجباتهم المترتبة على الإيمان: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ ويخشون يوم الحساب: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ (٧)

ويقومون بأعمال الخير بلا مِنّة: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ (٨-١٠)

فيلاقوا ثواب أعمالهم يوم الحساب بما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً * وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا * عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (١١-٢١)

فيكون نعيم الآخرة نتيجة طبيعية لما كانوا عليه في دنياهم: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ (٢٢)

وهنا تنتقل السورة للإشارة إلى معجزة نزول القرآن الكريم منجّماً على النبي ﷺ خلال ثلاثة وعشرين عاماً من بعثته النبوية بترتيب يلائم ظروف الرسالة ومختلف عن الترتيب القرآني: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً﴾ (٢٣) وفي هذه الإشارة ما فيها من إفحام الكفّار.

ثم تأمر الرسول ﷺ، وبالتالي المؤمنين من بعده، الصبرَ على مشاقّ الدعوة والبلاغ والرسالة، والصبر على معاندة الكفار، وتحذّر من قبول الحلول الوسط معهم في أمور العقيدة: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ (٢٤)

والاستعانة على كل ذلك بمداومة التسبيح وذكر اسم الله في كل الأوقات: ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (٢٥)، قال الرازي: هذه إشارة إلى أنّ العقول البشرية ليس لديها إلا معرفة الأسماء والصفات أما معرفة الحقيقة فلا.

والتقرب إليه تعالى في أوقات الظلمة والشدة: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيلاً طَوِيلاً﴾ (٢٦)

في مواجهة الغافلين المنهمكين في دنياهم العاجلة: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً﴾ (٢٧)

وأنه تعالى بمقتضى مشيئته وحكمته الخافية على الكثير من الخلق يستبدل بمُنكري الآخرة، إن شاء، من هم أقدر منهم على استخدام ملكاتهم الفكرية بالطريق السوي: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ (٢٨)

ثم تعود السورة إلى التذكير بفحوى الآية الثالثة فتحثّ الإنسان على اختيار طريق الهداية: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ (٢٩)

وأن مشيئته تعالى فوق كل مشيئة: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٣٠).

سورة المرسلات -٧٧-

مكية

قيل إنها نزلت خلال العام الرابع من بعثته عليه الصلاة والسلام، وقيل بعد ذلك.

ارتباط السورة بما قبلها

في سورة الإنسان أن القرآن الكريم نزّل نجوماً على النبي ﷺ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً﴾ [الإنسان ٧٦/٢٣]، وتفتتح سورة المرسلات بالإشارة لنزول الآيات القرآنية منجّمة: ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا﴾ [المرسلات ٧٧/١]،

واختتمت سورة الإنسان بأن القرآن تذكِرة لِمن شاء الهداية: ﴿إِنَّ هَـذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ [الإنسان ٧٦/٢٩]، كما تختم هذه السورة بأن لا علم ينفع صاحبَه إن لم يؤمن بالقرآن: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات ٧٧/٥٠].

محور السورة

تلخص السورة مزايا نزول آيات القرآن الكريم على الناس: ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا﴾ [٧٧/١]، من حيث أنها تعصف بالباطل: ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ [٧٧/٢]، وتنشر الهداية: ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا﴾ [٧٧/٣]، ومن حيث كونها فرقاناً: ﴿فَالْفَارِقَاتِ

فَرْقًا﴾ [٤/٧٧]، وذِكرًا: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [٥/٧٧] فلا تترك للناس عذراً بالجهالة: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [٦/٧٧]، ولذا تقطع السورة بمسؤولية البشر وبوقوع الساعة والحساب: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ [٧/٧٧]، يوم تظهر الحقيقة المحجوبة بالظاهر وتزول الأوهام عن المتوهّمين، ويفصل الرحمن بين الناس فيما كانوا فيه يختلفون: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ [١٤/٧٧]، وأن متاع المجرمين في الدنيا قليل في جنب الآخرة: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ﴾ [٤٦/٧٧]، ثم تختم السورة بأن لا علم ينفع صاحبَه مع التكذيب بالقرآن: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [٥٠/٧٧].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

تنوهّ السورة بنزول آيات القرآن الكريم متتابعة على مدى بعثة النبي عليه السلام: ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا﴾ (١) وقوله عرفاً أي نزلت هذه الآيات بكل عرف وخير، أي ما هو معروف لذوي العقول السليمة، فالدليل النقلي - الوحي- يؤيد العقل السليم،

ثم تنبّه إلى أن آيات الرسالة الإسلامية سوف تعصف بسائر الأديان والملل لتنسخها وتظهر بطلانها: ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ (٢)

فتنشر الهداية للباحثين عنها في أنحاء العالم: ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا﴾ (٣)

وتمكّن الإنسان من التفريق بين الحق والباطل، ولذا سمّي القرآن فرقاناً: ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾ (٤)

وتذكره بالميثاق الفطري المأخوذ عليه في الأصلاب [الأعراف ١٧٢/٧]: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ (٥)

فتنذر الإنسان بما لا يترك له عذراً بالجهالة: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ (٦)، انظر أيضاً آية [فاطر٣٥/٣٧].

بأنّه مُحاسَب على عمله لا محالة: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ (٧)

يوم ينهار النظام الكوني الذي نعرفه: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ (٨-١٠)، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [إبراهيم ١٤/٤٨]،

في ذلك الوقت تشهد الرسل على الأمم بالتبليغ: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ وُقِّتَتْ﴾ (١١)

وقد أجّلت لذلك اليوم العظيم: ﴿لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ (١٢)

يوم يفصل الرحمن بين الناس فيما كانوا فيه يختلفون من العقائد والنظريات، ويدرك المرء على وجه اليقين الدوافع التي كانت وراء أعماله وتوجهاته الدنيوية: ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ (١٣)، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة ٣٢/٢٥].

يوم الفصل الذي يفوق وصفُه إدراكَ البشر: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ (١٤)

يوم يحيق الويل بالذين أصرّوا على تكذيب الحقيقة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (١٥)

فكيف فاتتهم العبرة من هلاك الأمم البائدة؟ ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ﴾ (١٦)

ومصير مَن بعدهم في الآخرة، إن لم يكن في الدنيا: ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ﴾ (١٧)

فالعذاب نتيجة طبيعية لازمة للإجرام والتكذيب: ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (١٨-١٩)

ثم تذكّر السورة الإنسان بمهانة نشأته ودليل منتهى ضعفه: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ (٢٠)

والإعجاز في تطور خلقه في رحم أمه حتى ولادته: ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ (٢١-٢٣)

فالجحود بهذا الإعجاز والتعامي عنه يوجب الويل لأصحابه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٢٤)

والإعجاز في الأرض التي تُنبت الحياة وتضم الأموات: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ (٢٥-٢٦)

والإعجاز في خلق الجبال بحيث تتوازن بها القشرة الأرضية، وإخراج الماء العذب منها: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ (٢٧)

وهكذا اشتملت الآيات (٢٠-٢٧) على بيان الإعجاز في المخلوقات العضوية وغير العضوية، ما يوجب الويل للمكذّبين بالقدرة الإلهية وبوجود خالق مهيْمن: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٢٨)

انطلقوا إذن أيها المكذّبون إلى يوم القيامة: ﴿انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (٢٩)

فلا بد لكم من مواجهة الموت ثم البعث ثم الجزاء: ﴿انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ (٣٠)

وليس لكم من ذلك مفر ولا ملجأ: ﴿لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ (٣١)

يوم ترمي جهنم بشرر كجذوع الشجر الضخمة المشتعلة: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ (٣٢)

كأنّ ذلك الشرر، لتواصله الواحد تلو الآخر، جبالٌ غلاظٌ مشتعلة صفراءُ بلون النار: ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ﴾ (٣٣)

ما يسبّب الويل للمكذّبين: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٣٤)

فلشدة ذهولهم وحيرتهم يمتنع عليهم النطق: ﴿هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ﴾ (٣٥)

إذ لا يليق لهم التكلم بأعذار فاسدة: ﴿وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ (٣٦)

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٣٧)

يوم يُفصل بين الناس، أولهم وآخرهم، فيما كانوا يختلفون فيه من العقائد:

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ﴾ (٣٨)

فلا تنفع المكذّبين مكائدُهم لكونهم يومئذٍ في منتهى العجز: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٣٩-٤٠)

أما الذين اتقوا الشرك والمعاصي فمآلهم إلى النعيم: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٤١-٤٤)

بالمقارنة مع مآل الذين كذّبوا على أنفسهم: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٤٥)

وأن متاع المجرمين في الدنيا وإن طال فهو قليل في جنب الآخرة: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ﴾ (٤٦)

حيث الويل ينتظرهم: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٤٦)

والسبب أنهم عاندوا الرسل والرسالات المشار إليها بأول السورة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ﴾ (٤٨)

فلا بد أن يلاقوا مصيرهم العادل: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٤٩)

إذ لا علم ينفع صاحبه بعد التكذيب بالقرآن: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾ أي بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٠) وفي اختتام السورة عودة إلى البداية التي بدأت بها وهي ﴿المرسلات عُرفًا﴾ أي آيات القرآن الكريم.

سورة النبأ -٧٨-

مكية

من أواخر السور المكية،

ارتباط السورة بما قبلها

ارتباطها بسورة المرسلات أنها تركّز على (يوم الفصل) من زاوية مختلفة، ففي سورة المرسلات: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات ٣٨/٧٧]، وفي هذه السورة: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ [النبأ ١٧/٧٨]،

وفي سورة المرسلات أن الذهول يصيب المجرمين يوم القيامة فيمتنع النطق عليهم: ﴿هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ * وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات ٣٥/٧٧-٣٦]، وفي سورة النبأ: ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ [النبأ ٣٧/٧٨]،

وفي سورة المرسلات: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ [المرسلات ٧/٧٧]، وفي هذه السورة: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ [النبأ ٤٠/٧٨].

محور السورة

اختلف الناس في وقوع القيامة مع أن كل الدلائل العقلية والدنيوية تشير إليها، فلا يصح أن يكون هنالك انقطاع نهائي بعد الحياة الدنيا، ولا بد من يوم تُفصل فيه المظالم والحقوق ويظهر الحق من الباطل: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ [١٧/٧٨]، فلا ينفع يومئذٍ النادمين ندمُهم: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ [٤٠/٧٨].

وقد سبق أن عللت سورة النحل السبب في ضرورة البعث وحتميته بقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [٣٩/١٦]،

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

السؤال الكبير الشاغل لكثير من الخلق عمّا إن كان هنالك بعث بعد الموت: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ (١-٣)

ويتخبطون في ذلك بنظريات كثيرة إلى أن يحين الوقت الذي يعلمون فيه الحقيقة على وجه اليقين: ﴿كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ﴾ (٤-٥)

مع أن الشواهد والمعجزات الكثيرة ماثلة أمامهم فيما لا يدع مجالاً للشك، ومنها معجزة الأرض سخرها تعالى للإنسان: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا﴾ (٦)

ومعجزة خلق الجبال التي بها تتوازن القشرة الأرضية: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (٧)

ومعجزة خلق الأزواج في الحيوان والنبات كالذكر والأنثى، وكالموجب والسالب في المغناطيس وفي الكهرباء شحنات البروتون والنوترون، وفي الكون كالليل والنهار والحار والبارد: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ (٨)، ونظيره قوله تعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ [يس ٣٦/٣٦].

ومعجزة النوم الذي هو انقطاع مؤقت عن الحياة لأن النائم معطّل الحواس: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ (٩)

والليل يستر الناس بظلامه كما يسترهم اللباس فتخلد فيه النفوس إلى الراحة: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ (١٠)

واليقظة في النهار لطلب الرزق: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (١١)

ومعجزة خلق الأكوان المتعددة: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ (١٢)

وخلق الشمس التي تزود الأرض بالطاقة: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ (١٣)

ومعجزة إحياء النبات من الأرض الموات: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ (١٤-١٦)

ولذا تعود السورة للتذكير بيوم الفصل المذكور في السورة السابقة (١٤/٧٧): ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا * يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ (١٧/٧٨-١٨)

حيث تظهر للإنسان بعض جوانب الغيب: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ (١٩)

ولا يبقى أي أثر للجبال: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ (٢٠)، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا﴾ (طه ٢٠/١٠٥-١٠٧)

يومئذٍ لا مناص للطغاة من جهنم جزاءً لما كانوا عليه في دنياهم: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلْطَّاغِينَ مَآبًا * لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا * إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا﴾ (٢١-٢٦)

جزاء إنكارهم القرآن والبعث والحساب: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ (٢٧-٢٨)

فلا يفوت من حسابهم شيء: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ (٢٩)

ويزدادون عذاباً بمقدار خطيئاتهم في الدنيا: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا﴾ (٣٠)، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام ٦/١٦٠]،

بخلاف المتقين: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ (٣١-٣٤)

فهم ينعمون بالسكينة النفسية والروحية بعيداً عن الكذب واللغو والمشاحنات الفارغة: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا﴾ (٣٥)

فيجزون أضعاف حسناتهم: ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ (٣٦)، ونظيره قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام ٦/١٦٠]،

ولا يكون بمقدور أحد خطاب الرحمن ليزيد في ثوابه أو ينقص من عقابه: ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ (٣٧)

يوم تقوم أرواح الخلائق ومعها الملائكة أمام الخالق فلا يتكلم أحدٌ بالشفاعة إلاّ مَن أراد تعالى تشريفه بالشفاعة لِمَن قبل توبته: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾ أي أرواح الناس ﴿وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (٣٨)

وفي ذلك اليوم يعلم الإنسان على وجه اليقين حقيقةَ حياته الأولى والآخرة: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ فمن شاء اتخذ سبل الهداية في دنياه قبل آخرته: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا﴾ (٣٩)

وبعد كل هذه النذر لا يبقى للكافر يومئذٍ من عذر: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ ولا يفيد المرء أو يضرّه سوى ما قدّم من عمل: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ ويتمنى الكافر لو لم يكن هنالك بعث: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ (٤٠)، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَالَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة ٢٧/٦٩].

سورة النازعات -٧٩-

مكية

نزلت في أواخر الفترة المكية، واشتق اسمها من كلمة (النازعات) في الآية الأولى، وهي النجوم التي تظهر وتغيب، إشارةً إلى واحدة من معجزاته تعالى في خلق الكون.

ارتباط السورة بما قبلها

في سورة النبأ أن المشككين يتساءلون عن النبأ العظيم ويختلفون فيه: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنْ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ ٧٨/١-٣]، وفي سورة النازعات أيضاً يتهكمّون على البعث والحساب: ﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ [النازعات ٧٩/١٠]، ويسألون تهكّماً عن موعد الساعة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [النازعات ٧٩/٤٢].

محور السورة

الله تعالى يتيح فرصة الهداية حتى لأعتى الطغاة: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ [٧٩/١٧-١٨]، لكن الإنسان الطاغية المغرور -في كل زمن- يظن نفسَه محور الكون: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى﴾ [٧٩/٢٤]، مع أنّ الإعجاز في خلق الإنسان لا يقارن مع الإعجاز في خلق الكون الهائل:

﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ [٧٩/٢٧-٢٨]، غير أنّ الكافر لا يدرك حقيقة الآخرة والحساب إلا بعد الفوات: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [٧٩/٤٦].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

تبدأ السورة بالإشارة لواحدة من معجزاته تعالى في الفَلَك، وهي النجوم التي تطلع ثم تغيب: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ (١) فالنازعات إشارة لطلوعها، وغرقاً إشارة لغروبها، أي هي تنزع ثم تغرق غَرْقاً،

ثم هي تنتقل من برج إلى برج: ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ (٢)

وتسبح في الفَلَك: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ (٣)، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس ٣٦/٤٠]،

كما هي تسبق بعضَها بعضاً في السير لكون حركة بعضِها أسرع من بعض: ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ (٤)

وبحركتها تتميز الأوقات وتنتظم أمور الكون: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ (٥)، كما في قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس ١٠/٥]، ثم تقع الواقعة باختلال حركتها كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ [التكوير ٨١/٢]،

وبعد الإشارة إلى معجزات النجوم والفلك، ما يفيد وجود خالق مهيْمن يخضع الكون والبشر لحكمته وتقديره وقضائه، تبدأ السورة بوصف يوم البعث يوم ترجف الأرض أو تزلزل في رجفة تلو الأخرى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ (٦-٧)

يومها تكون قلوب الكفار في غاية القلق: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ (٨)، وقوله ﴿قلوب﴾ بالتنكير أي ليس جميع القلوب تكون قلقة، بل قلوب الكفار فقط بدليل الآية ١٠،

أبصارها مضطربة خائفة ذليلة: ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ (٩)

ومع ذلك، ومع كل الدلائل على حتمية وقوعها يتهكم المتهكمّون في القيامة والبعث: ﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ (١٠) أي كانوا يقولون عندما كانوا في الدنيا أنُردّ بعد الموت إلى الحياة مرة ثانية، والحافرة الطريق التي يمشي فيها المرء فيحفرها بقدميه أي يترك فيها أثراً بمشي القدمين، فهي محفورة وحافرة ومنه يقال رجع فلان في حافرته أي في الطريق التي جاء منها.

ويتساءل الكفار في دنياهم كيف نردّ ونُبعث بعد أن تصبح عظامنا منخورة: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً﴾ (١١) وهو سؤال منبثق من ماديتهم لأنهم ينكرون الروح ولا يقيمون أي اعتبار سوى للمادة.

ثم بمزيد من التهكم يقولون لو كان الأمر على هذا النحو لكنّا خاسرين، أي سيظهر فساد نظرياتهم الدنيوية المادية التي يعتبرونها في حاضرهم "معقولة": ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ (١٢)

وهكذا لا يستفيقون من ضلالهم إلا عندماتقع الواقعة فكأنها بومئذٍ تزجرهم: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (١٣)

وفتئذ تنفتح بصيرتهم على الحقيقة ولا يبقى عندهم أدنى شك بها: ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ (١٤) والساهرة الآخرة إذ في الخلود يضمحل مفهوم الزمن الدنيوي.

وهنا تضرب السورة مثلاً على إصرار الكفار على كفرهم بقصة فرعون وبعثة موسى إليه: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (١٥)، والقصة مذكورة بمزيد من التفصيل في سورة [طه ٢٠/٩-٩٨].

إذ ناداه ربه لبعثته النبوية، عند جبل الطور في سيناء بالوادي المقدس طوى، أي الذي بورك فيه مرتين، مرة حيث سمع موسى نداء ربه ومرة حيث تكرست نبوّته: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ (١٦)، وطَوى مثل ثَنى، والطيّ الثني، وطُوى اسم للشيء المثنّى، وقد يكون المعنى أيضاً الوادي المقدّس المبارك.

وأنه سبحانه وتعالى برحمته التي وسعت كل شيء يتيح فرصة الهداية حتى لأعتى الطغاة: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ (١٧) فقد تجاوز فرعون كل الحدود بادعائه الألوهية،

وقد أمر اللهُ تعالى موسى أن يدعو فرعون برفق ولين: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ (١٨) أي هل لك رغبة أن تكون زاكياً، أي طاهراً من العيوب؟

فأوضح موسى لفرعون أنّ معرفة الله هي السبيل الوحيد للتفريق بين الصواب من الخطأ: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ (١٩)

ثم بيّنَ لفرعون طريق الهداية الكبرى، أي طريق الهداية الإلهية: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ (٢٠) في إشارة أن الله تعالى لا يترك أحداً يتخبط في ضلاله دون أن يبيّن له الطريق الصحيح، ونظيره قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ﴾ أي بظلم منها لأن الله ليس بظلاّم للعبيد ﴿وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ عن الحقيقة [الأنعام ٦/١٣١].

وفي مقابل ظهور الآية الكبرى الباهرة يكون ادعاء الألوهية من قبل فرعون منتهى الطغيان: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (٢١-٢٤)

فكانت عاقبته تنكيلاً في الآخرة والدنيا: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ (٢٥)

أي إنّ العاقبة الوخيمة تعاجل الطغاة في الدنيا قبل الآخرة، وفيها عبرة لِمَن يخشى الله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ﴾ (٢٦)

ثم تبين السورة أنّ الإعجاز في خلق الإنسان لا يقارن مع الإعجاز في خلق الكون الهائل، ومع ذلك يدّعي الإنسان الألوهية أو يظن بغروره أنه محور الكون: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ (٢٧-٢٨) أي سوّاها لما خُلقت له، ونظيره قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر ٤٠/٥٧]،

ومعجزة تتابع الليل والنهار: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ (٢٩)

وتمهيد الأرض لسكنى البشر والأنعام: ﴿وَالأَرضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنعَامِكُمْ﴾ (٣٠-٣٣) كل ذلك يوجب شكر الله على نعمائه،

ومع ذلك لا ينتهي غرور البشر إلا عند مواجهة الحساب: ﴿فَإِذَا جَاءَتْ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَى﴾ (٣٤-٣٥)

﴿وَبُرِّزَتْ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ (٣٦)، ونظيره قوله: ﴿وَبُرِّزَتْ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء ٢٦/٩١]

فيكون عذاب جهنم نتيجة طبيعية لما كان عليه الطغاة في دنياهم: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (٣٧-٣٩)

كما نعيم الجنة نتيجة طبيعية لمن تجنّب الهوى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (٤٠-٤١)

وأما قبل مجيء الطامّة الكبرى فالكافر بين الشك والتهكّم يتحدّى النبي بموعد مجيئها: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ (٤٢)

وموعد الساعة في علم الغيب لا ينكشف حتى للأنبياء: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾ (٤٣)

ومنتهى علمها عند الله لم يؤته أحداً من خلقه: ﴿إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ (٤٤)

غير أنّ ذوي الإدراك السليم فقط يستفيدون من إنذار النبي بها: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ (٤٥)

وتختتم السورة بالإشارة إلى نسبية الزمن، لأن المفهوم البشري للزمن الدنيوي لا معنى له في الآخرة، وبالتالي لا معنى لسؤالهم عن موعد الساعة: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ (٤٦).

سورة عبس -٨٠-

مكية

نزلت في أوائل الفترة المكية وسميت بأول كلمة منها.

ارتباط السورة بما قبلها

في سورة النازعات تنبيه أنّ الإعجاز في خلق الكون أكبر بكثير من الإعجاز في خلق الإنسان: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ [النازعات ٧٩/٢٧-٢٨] فلا موجب لتكبر المرء وطغيانه، وفي هذه السورة بيان لمهانة خلق الإنسان: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [عبس ٨٠/١٨-١٩]،

وفي سورة النازعات أنّ الإنسان يتذكر يوم القيامة نتيجة سعيه في الدنيا: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى﴾ [النازعات ٧٩/٣٤-٣٥]، وفي هذه السورة أن الإنسان لا يحسن استخدام ملكاته الفكرية والعقلية لقضاء ما هو ميسّر له في دنياه: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ [عبس ٨٠/٢٣].

محور السورة

لا يضير الداعية عدم استجابة الكافر وما عليه سوى البلاغ، فالآيات القرآنية ليست سوى تذكرة لمَن يُرجى إيمانه من سليمي الفطرة: ﴿كَلَّا إِنَّهَا

تَذْكِرَةٌ﴾ [١١/٨٠]، ثم إنّ الإنسان مُيَسّر أن يختار سبيل الهدى أوالضلال: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ [٢٠/٨٠]، غير أنه في حياته الدنيوية لم يستفد بالكامل من مَلَكة العقل التي منحها له الله ولا الفطرة السليمة التي غرسها فيه، إذ لا يخلو إنسان من تقصير: ﴿كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ [٢٣/٨٠].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

عبس النبي ﷺ بوجه عبد الله بن أم مكتوم وهو ابن خال خديجة، وكان أعمى من الصحابة ألحّ عليه أن يعلمه من القرآن أثناء انشغال النبي بدعوة أعيان قريش إلى الإسلام، فكره النبي ﷺ قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه فنزلت الآيات ١-١٠، ثم كان النبي بعد ذلك يكرمه ويقول: "مرحباً بمن عاتبني فيه ربي" وقد ولاّه على المدينة مرتين في غزوتين غزاهما،

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى﴾ (١-٢)، تبرز من عتاب السورة للرسول ﷺ موضوعية الوحي، فالرسول لا ينطق عن الهوى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى﴾ [النجم ٣/٥٣]،

وقد ذكر بعض العلماء أن سلوك ابن أم مكتوم مع الرسول لا يخلو من فظاظة، ولكنّ في الآية إشارة أنّ كل ضعيف يستحق الاهتمام كغيره، وقد عاتب الله تعالى رسوله حتى لا تنكسر قلوبُ أمثاله، وبالمقابل كان قصد الرسول تأليف قلوب المشركين من كبار قريش، وفي الحديث: "إني لأصِلُ الرجلَ وغيرُه أحبُّ إلي منه، مخافة أن يكبَّه الله في النار" ذكره القرطبي.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أيها النبي ﴿لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ (٣) أي لعل الأعمى ينتفع بموعظتك ويصبح زاكياً، أي طاهراً من العيوب؟

أو على الأقل قد يتذكّر الأعمى مطابقة الوحي للفطرة السليمة والدليل العقلي فينفعه ذلك: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ (٤)

أما مَن استغنى عن الإيمان وعن الهدي الإلهي، وزَعَم أنه مكتفٍ بذاته غير محتاج للوحي: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى﴾ (٥)

﴿فَأَنتَ﴾ أيها الرسول تقبل عليه حرصاً على إسلامه: ﴿لَهُ تَصَدَّى﴾ (٦)

مع أنه ليس على الرسول -وبالتالي كل مؤمن- سوى البلاغ، فلا يضير الداعية عدم استجابة الغير: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى﴾ (٧)

وفي مسعى الداعي لإيمان مَن لا يُرجى إيمانه تضيع الفرص على المؤمنين: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ (١٠)

فالآيات القرآنية ليست سوى تذكرة لمَن يُرجى إيمانه من سليمي الفطرة: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ (١١)، والقرآن الكريم قد بلغ مبلغاً من الإعجاز والعظمة بحيث لا يتنكر له إلاّ كل مكابر مستكبر فأي حاجة للإصرار على هداهم.

والرسالة الإسلامية ليست قسراً: ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ (١٢)

والذكر يكون على ضوء الصحف القرآنية المكرّمة المطهّرة من كل عِوَج (الكهف ١/١٨)، المرفوعة بأيدي دعاة كرام بررة يُسفرون عن معناها الحقيقي: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ (١٣-١٦)

أما الإنسان المصرّ على الكفر رغم هذه الصحف المُسفرة عن الحقيقة فهو كَمَن يقتل نفسَه: ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ (١٧)

فلينظر هذا المستكبر كيف بدأ خلقُه: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ (١٨)

خلقه تعالى من نطفة ثمّ قدّره بما هو لائق لمصلحته جسمياً ونفسياً وعقلياً: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ (١٩)

ويسّره ليختار سبيل الخير من الشر، والتيسير يدخل فيه التقدير -الآية السابقة- والعقل والتعلّم وبعث الأنبياء وإنزال الوحي: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ (٢٠)

كما قدّر أن يكون لبثه في الدنيا قليلاً حتى يصير إلى القبر: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ (٢١)

إلى أن يصير وقت البعث والنشور: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ (٢٢)

وفي تلك المرحلة الدنيويةمن حياته لم يكن الإنسان جديراً بالاستفادة من مَلَكة العقل التي منحها له الله ولا الفطرة السليمة التي غرسها فيه، إذ لا يخلو إنسان من تقصير: ﴿كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ (٢٣)

وإن كان الإنسان يظنّ أنه مستغنٍ عن العناية الإلهية ومكتفٍ بحوله وقوّته فلينظر في أبسط الأمور كطعامه مثلاً من أين يأتي: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٢٤)

ولينظر في معجزة إحياء الأرض الميتة بنزول المطر عليها وإنبات الزرع والحبوب وأنواع الطعام والفواكه وما في ذلك من دليل على حتمية البعث والنشور بعد الموت.: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ (٢٥-٣٢) وقالوا إن (الأبّ) هي الفاكهة التي يجري تيبيسها، لأنها تُؤبّ للشتاء أي تُعَدّ له، ﴿وحدائق غلباً﴾ أي كثيفة.

فليكن الإنسان إذن على يقين من مجيء يوم القيامة حيث ينشغل كل امرىء بنفسه: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (٣٣-٣٧)

ثم يوم الحساب يكون الناس أحد صنفين: صنف الضاحكين المستبشرين: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ (٣٨-٣٩)

وصنف الكالحين من الكفار: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ (٤٠-٤٢).

سورة التكوير -٨١-

مكية

من أوائل السور المكية وقيل إنها السادسة أو السابعة في ترتيب النزول، وسميت التكوير اشتقاقاً من فعل ﴿كُوِّرت﴾ بالآية الأولى، في إشارة رمزية إلى قيام الساعة والبعث والحساب، وانكشاف الحقيقة الغيبية المحجوبة بالظاهر.

ارتباط السورة بما قبلها

ختمت سورة عبسَ السابقة بوصف أحوال صنفين من الناس يوم القيامة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ *ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس ٨٠/٣٨-٤٢]، ثم تبدأ سورة التكوير بوصف أحوال القيامة عندما تنكشف الحقيقة المحجوبة بظاهر الكون فتعلم كل نفس ما أحضرت من استحقاقها الجنة او النار: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير ٨١/١٤]،

محور السورة

كما خَلَقَ اللهُ تعالى الكونَ المعجز بسير وفق نظام مبهر، فكذلك أنزل القرآن الكريم على البشرية مظهراً آخر من مظاهر الإعجاز الطبيعية والمعنوية: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾

[٨١/١٩-٢١]، ثم إنّ الإنسان مكرّم أن يختار طريق الهداية إن لم تفسد فطرته: ﴿إِنْ هُوَ إِلاّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [٨١/٢٧]، ومع أن طريق الاستقامة والهداية متاح لذوي الفطرة السليمة بلا إكراه، فإنّ كل شيء متعلق بعلم الله الأزلي المسبق، فيما هو كائن وما سيكون: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [٨١/٢٩].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

تبدأ السورة بوصف القيامة بصورة رمزية، والوصف من قبيل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم ١٤/٤٨]:

عندما يلفّ الظلامُ الشمسَ فيذهب نورُها: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١)

كما يذهب نور النجوم: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ (٢)

وتزول الجبال من أماكنها: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ (٣)، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه ٢٠/١٠٥].

وتُهمَل النوق الحوامل فيذرها أصحابُها لمصيرها: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ (٤) كناية عن إهمال الناس يومئذٍ لأعز ممتلكاتهم، لأن العرب كانت تعتبر النوق الحوامل من أملاكها النفيسة،

وتُحشر الوحوش فيُقتصّ لها من ظلم بني آدم: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ (٥)

وتغيض مياه البحار وتتفجر نيران البراكين من قاعها: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ (٦)

وتُقرن النفوس بأعمالها فتُحاسب عليها، فلا يستطيع أحد الفكاك من مسؤوليته: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ (٧)

ويحاسب الذين قتلوا بناتهم بغير ذنب: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (٨-٩)

وتُنشر صحائف الأعمال لكل إنسان: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ (١٠)، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء ١٣/١٧]،

وتظهر بعضُ أسرار الغيب: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ (١١)

كما تظهر الجحيم والنعيم لمستحقيهما: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ (١٢-١٣)

فيصبح كل فرد على يقين ممّا قدّم لنفسه من خير أو شر، وما يستحقه من نعيم أو جحيم، ويوقن أنّ الحياة الدنيا لم تكن نهاية المطاف: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ (١٤)

ثم تربط السورة نزول القرآن الكريم على النبي ﷺ ببعض مظاهر الطبيعة المرئية كمغيب الكواكب في النهار (خنوسها) وظهورها للبصر في الليل (كنوسها): ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ (١٥-١٦)

وإدبار الليل وإقبال النهار: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ (١٧-١٨)

فكما أن الله تعالى خَلَقَ الكون المعجز يسير وفق نظام يبهر العقول فكذلك أنزل القرآن الكريم على البشرية مظهراً آخر من مظاهر الإعجاز الطبيعية والمعنوية: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (١٩-٢١)، والرسول الكريم هو جبريل عليه السلام يتنزّل بالوحي على الأنبياء عليهم السلام.

ولئلاّ يجنح البعض لتأليه النبي ﷺ كما فعلت المسيحية في تأليه عيسى عليه السلام تؤكد السورة أنّ النبي مجرد بشر: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ (٢٢) وقوله صاحبكم بمعنى هو الإنسان الذي عرفتموه طيلة حياتكم رجلاً عاقلاً أميناً أقام بين ظهرانيكم.

ولقد رأى النبيُّ جبريلَ بلا أي إبهام في الأفق المبين عندما دنا منه فتدلّى فكان قابَ قوسين أو أدنى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ (٢٣)، ونظيره قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم ٥٣/١١].

وأن النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن ليكتم ما نزل عليه من الوحي وعلوم الغيب، فهو مُلزم بتبليغ الرسالة: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ (٢٤)

وما النبي كَمَن يرجم بالغيب من شياطين الإنس والجنّ فذلك من قبيل المستحيل: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ (٢٥)، ونظيره قوله تعالى: ﴿وما تنزّلت به الشياطين * وما ينبغي لهم وما يستطيعون * إنهم عن السمع لمعزولون﴾ [الشعراء ٢٦/٢١٠-٢١٢].

ولذا فإن أي منحى آخر يتخذه البشر، غير القرآن الكريم، فهو إلى ضلال: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ (٢٦)

وأن رسالة القرآن عالمية لجميع البشر، بيان وهداية وذكرى وليست إكراهاً: ﴿إِنْ هُوَ إِلاّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٢٧)

وأن الإنسان مكرّم بالخيار، أن يقبل رسالة القرآن ويختار طريق الاستقامة: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨)

ومع أن طريق الاستقامة والهداية متاح بلا إكراه لمن تميل إليه فطرته السليمة، فإنّ كل شيء متعلق بعلم الله الأزلي المسبق، فيما هو كائن وما سيكون: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٩).

سورة الانفطار -٨٢-

مكية

من أواخر السور المكية.

ارتباط السورة بما قبلها

سورة الانفطار متصلة بسورة التكوير اتصالاً واضحاً: يوم يزول هذا الكون تظهر الحقيقة المطلقة في إطارها الصحيح، وحتى الموت بمرحلتيه الوحيزة جداً يظهر كبداية لحياة جديدة: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار ٨٢/٤]، ويزول الغرور عن بني آدم: ﴿يَاأَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار ٨٢/٦]، الغرور الذي طالما أدّى به إلى التخبط والشك والتكذيب: ﴿كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ [الانفطار ٨٢/٩].

محور السورة

الله تعالى خلقَ الإنسان في أحسن تقويم ملائم لمعيشته ولبيئته، وزوده بالإمكانات الفكرية والروحية التي تسمو به، وبحيث لا يكون عنده من تناقض بين حاجاته الفكرية والجسدية بل يكمل بعضها بعضاً، ومع ذلك فالإنسان لا يخلو من غرور: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [٨٢/٦-٨]،

بل إن البعض من الناس في حالة بين الشك واليقين ليس فقط في الإسلام، وإنما أيضاً في العاقبة والحساب: ﴿كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ [٨٢/٩]، في حين أن العقل البشري عاجز كل العجز عن إدراك كنه ذلك اليوم: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [٨٢/١٧-١٨].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

تبدأ السورة بالإشارة إلى نهاية الكون المادي الظاهر: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ (١-٣)

إيذاناً بوقوع الساعة والبعث: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ (٤)

وفتئذٍ تدرك كل نفس فجأةً الدوافع الحقيقية لما قامت به من عمل -أو ما تعمّدت أن تترك من عمل- في حياتها الدنيا، بما في ذلك العمل الصالح الذي قامت به، والطالح الذي تفادته، وكذلك العمل الطالح الذي ارتكبته والصالح الذي لم تعمل به: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ (٥)

وأن الإنسان في دنياه لا يخلو من غرور: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (٦)، ونظيره قوله تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصّة﴾ [الأنفال ٨/٢٥] أي حتى المتقين عرضة للوقوع في الإغراء المادي والشهواني عندما يقعون ضحية لغرورهم بأنهم من أهل التقوى والصلاح.

مع أن الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم ملائم لمعيشته ولبيئته وزوده بالإمكانات الفكرية والروحية التي تسمو به وبحيث لا يكون عنده من تناقض بين حاجاته الفكرية والجسدية بل يكمل بعضهما الآخر: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (٧-٨)

ثم يصل الغرور بالبعض إلى حالة بين الشك واليقين ليس فقط في الإسلام، وإنما أيضاً في العاقبة والحساب: ﴿كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ (٩)،

والله تعالى محيط بأفعالهم: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (١٢)

فيؤول مصير الأبرار منهم إلى النعيم كنتيجة طبيعية لما كانوا عليه في دنياهم من الإيمان والاستبصار والعمل الصالح: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٣)

وكذا مصير الفجار إلى الجحيم كنتيجة استمرارية لفجورهم في دنياهم: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ (١٤-١٦)

وأن العقل البشري بل خياله وخبرته كلها قاصرة عن استيعاب أو معرفة حقيقة الآخرة والنعيم والجحيم إلا بصورة رمزية كما تشير لها الآيات المتشابهات، فلا نعرف إلاّ قبساً ضئيلاً من حقيقتها: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ (١٧-١٨)

حيث المسؤولية يومئذٍ فردية، وحيث تُنزع السلطات من الزعماء والرؤساء والملوك ويعود الأمر لله وحده: ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (١٩)، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [محمد ٤٧/١٩].

سورة المطففين -٨٣-

مختلف في كونها مكية أو مدنية، وقيل فيها مكي ومدني

نزلت في آخر الفترة المكية وقيل بل في أول الفترة المدنية.

ارتباط السورة بما قبلها

في سورة الانفطار أن الله تعالى خلق الإنسان ليعيش دنياه في أحسن حال وأحسن تقويم: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار ٨٢/٦-٧]، غير إن الذين لا يؤمنون بالعاقبة والمسؤولية والحساب ينتابهم الغرور بدنياهم فيبخسون حقوق الغير، ثم لا يلبثون أن يلاقوا جزاءهم العادل في آخرتهم: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين ٨٣/١].

محور السورة

إن التطفيف وبخس حقوق الناس المادية والمعنوية بمثابة تكذيب بالبعث والحساب: ﴿أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [٨٣/٤-٥]، ومن شأن هذا التكذيب في الدنيا أن يزداد أصحابه عدواناً وإثماً، خلافاً لكل مقياس أخلاقي: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [٨٣/١٢]، بل إنهم يفقدون كل شعور بالمسؤولية الأخلاقية: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

[١٤/٨٣]، فلا يفيقون على الحقيقة إلاّ عند معاينة العذاب: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَـٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [١٧/٨٣]

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

تبين السورة المصير الذي يؤول إليه مَن يمضون حياتهم في الاحتيال والغش المادي والمعنوي وتكديس المال بطرق غير شرعية: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١) والتطفيف بخس الحق،

فأمثال هؤلاء يستوفون حقوقهم من الآخرين بالكامل، أما إذا كالوهم أو وزنوا لهم فيبخسون حقوقهم: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ (٢-٣) والكيل والوزن بالمعنى المادي والمعنوي للحقوق.

وهُم بسلوكهم هذا كمن ينكر المسؤولية الأخلاقية: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَـٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤-٦)

لكن على النقيض ممّا يظنون من انعدام المسؤولية لا مفر لهم من أن يلقوا جزاء التطفيف: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ (٧)

فكأن سجل غشهم وتدليسهم مسجون في كتاب لا يبلى ولا يمحى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ (٨-٩)

ثم توضح السورة أن هؤلاء المطففين بمثابة المكذّبين بالبعث والحساب: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ (١٠-١١)

ومن شأن هذا التكذيب أن يزداد أصحابه عدواناً وإثماً: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ (١٢)

بل إنهم يتمادون في تكذيب الآيات القرآنية كما يلائم هواهم: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣)

ثم يفقدون كل شعور بالمسؤولية الأخلاقية: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤)

فتُحجب رحمة الله عنهم يوم القيامة حتى يشاهدوا جحيم أعمالهم عياناً: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (١٥-١٧)

وعلى النقيض من ذلك يكون كتاب الأبرار في أعلا المراتب: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ (١٨)

والإبهام المقصود في الاستفهام التالي -كما في بعض السور المكية- يفيد استحالة تمكن البشر من استيعاب حقيقة الآخرة ضمن إطار المكان والزمان المعروفين لديهم: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ (١٩)

وكتاب حسنات الأبرار لا يمحى ولا يبلى: ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ (٢٠)

يشهده المقربون من الملائكة والنبيين والصالحين فينالوا منهم الدعاء: ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (٢١)

وفي تفصيل نعيم الأبرار يخاطب الله تعالى البشر بما تعارفوا عليه من مفاهيم الدنيا: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ (٢٢-٢٨)، لأن حقيقته لا كعين رأت ولا خطر على قلب بشر.

وبالمقابل تصف السورة سخرية المجرمين في الدنيا وتهكمهم على المؤمنين، ليس فقط وقت البعثة، ولكن كما هو دأبهم في كل مكان وزمان: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ (٢٩-٣٠)

بل كانوا مع أقرانهم معجبين بما هم عليه من الشرك والمعصية: ﴿وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ (٣١)

ويظنّون الضلال في المؤمنين: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ (٣٢)

كما يظنون في أنفسهم الوصاية على عقول غيرهم من البشر: ﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ (٣٣)

ثم تنقلب الأمور في الآخرة على النقيض مما كانوا عليه في دنياهم: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٣٤-٣٦)

والواضح في الإشارة لضحك المؤمنين من الكفار في الآخرة أنّه لا يفيد التشفّي والانتقام لقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الأعراف ٤٣/٧] إنما هو تصوير رمزي للعاقبة النهائية وهي فوز المؤمنين وخيبة الكفار.

سورة الانشقاق -٨٤-

مكية

من أواخر السور المكية.

ارتباط السورة بما قبلها

في السورة المتقدّمة أن المطففّين لاهثون وراء المادة وبخس حقوق الآخرين: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين ٨٣/١-٣]، وفي هذه السورة أن المادة رغم ذلك لا تحقق لهم السعادة بل يغلب عليهم المشقة والتعب والتعاسة: ﴿يَاأَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾ [الانشقاق ٨٤/٦].

محور السورة

عندما تقع الساعة وتتجلّى الأرض عن ظاهر الحياة الدنيا: ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [٨٤/٣-٤]، وبعد أن يكون الإنسان قد قضى الجزء الأكبر من حياته الدنيوية في الكدح والتعب والمشقة إلى أن يُبعَث فيلاقي ربّه: ﴿يَاأَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾ [٨٤/٦]، تزول حالُه وتتغيّر من حال إلى حال سلباً أو إيجاباً: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [٨٤/١٩]، وكان الأجدر به قبل الفوات أن يؤمن ويعقله القرآن ويعمل به: ﴿فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ﴾ [٨٤/٢٠-٢١].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

عندما تحين الساعة، وتظهر الحقيقة في واقعها وفي إدراك الإنسان لها: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ (١)

وتطيع السماء خالقها كما هي حقيقة بطاعته: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ (٢)

وتزول الجبال عن الأرض: ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ﴾ (٣)، كما في قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ [طه ٢٠/١٠٥-١٠٧].

حتى تفقد الأرض حقيقتها الظاهرية، إن كان لها من حقيقة، ويتبيّن أنها كانت تحجب الحقيقة الغيبية: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ (٤)

وتطيع الأرض خالقها كما هي حقيقة بطاعته: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ (٥)

بعد أن كان الإنسان لا ينفك في دنياه عن الكدح والمشقة والتعب، بفترات أطول بكثير من فترات السعادة التي قد ينعم بها، وأن حاله هذه من الدنيا تستمر حتى يُبعَث فيلاقي ربّه: ﴿يَا أَيُّهَا الإنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾ (٦)

ويحين وقت الحساب ويفوز مَن عمل لآخرته: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ (٧) كناية عن حسن عاقبته، -وقد خاطب تعالى العربَ بما تعارفت عليه من التفاؤل إذ تقول ميمون وأيمن-

فيتجاوز الله تعالى عن سيئاته. ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (٨)

ويعود إلى أهله وأقرانه من منفتحي الذهن أمثاله: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ (٩)

أما الشقي فيكون كَمَن يريد إخفاء حسابه عن نفسه لشدة ما كان عليه من الجهل وما ارتكب من مظالم في الدنيا: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ (١٠)

فيتمنى لنفسه الهلاك ولا يأتيه: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾ (١١-١٢)

بعد أن كان في دنياه مسروراً مع أقرانه من رفاق السوء: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ (١٣)، -وفي الحديث : "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر"-

وهو على شدة تعلقه بالحياة الدنيا لم يضع الآخرة في حسبانه: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ (١٤)

وغفل أن الله تعالى كان بصيراً بأعماله: ﴿بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ (١٥)

مع أن كل الدلائل تشير أنه من المحال دوام الحال، ومن ذلك أنّ الكون في حركة وتغير دائمين: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ (١٦-١٨) فالشفق يتبعه الليل بالتدريج ويتبعه القمر،

فلا بد من انتقال الإنسان من حاله الدنيوية القلقة العابرة إلى حال أخرى مستقرة: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ (١٩) فهو يولد ويكبر ويهرم ويموت ثم يُبعث.

وليس من سبب واقعي يمنع بأن تنتهي رحلة الإنسان لمجرد موته فكل شيء في تغير وحياة الإنسان لا تشذّ عن القاعدة: ﴿فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٠)، والإيمان منسجم مع الفطرة، والقرآن الكريم تذكرة للميثاق المأخوذ على الإنسان في الأصلاب أنظر آيات [الرعد ٢٠/١٣]، [الأعراف ١٧٢/٧]،

كما ليس من مبرر لعدم تفقه المرء في القرآن والعمل به: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ﴾ (٢١)،

سوى أن العقول المتشنّجة صَمَمْت سلفاً على التكذيب بالمسؤولية والحساب: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾ (٢٢)

في الوقت الذي يعلم الله ما يُخفون ويبيّتون من سوء النوايا: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ (٢٣)

فالمصرّون على الكفر بعد أن ظلموا عقولهم بالإنكار تؤول عاقبتهم الطبيعية إلى العذاب: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٤)

إلا مَن تاب منهم فانفتح عقله على الحقيقة قبل الفوت: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (٢٥).

سورة البروج -٨٥-

مكية

نزلت في أوائل الفترة المكية.

ارتباط السورة بما قبلها

في سورة الانشقاق المتقدمة أن الذين صمّموا على الكفر يكذّبون، وأن الله تعالى أعلم بما يبيّتون من سوء النوايا: ﴿بَلْ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ [الانشقاق ٨٤/٢٢-٢٣]، وفي هذه السورة أنهم باضطهادهم المؤمنين كَمَن يقتل نفسه: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾ [البروج ٨٥/٤].

محور السورة

موضوع السورة يدور حول الاضطهاد وقمع الحرية الدينية للآخرين: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [٨٥/٨]، ما تعود عواقبه سلباً على المضطهدين بالدرجة الأولى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [٨٥/١٠]،

وأن القرآن المجيد -بخلاف الكتب السابقة- ورغم جهود المكذّبين في اضطهاد المؤمنين والصدّ عنه، محفوظ على مدى الدهر من كل تغيير وتحريف أو إضافة أو نقصان، وبالتالي فهو المعيار النهائي والأخير للحق والباطل: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [٨٥/٢١-٢٢].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

التفكّر في خلق الكون يلزم الإيمان باليوم الموعود، يوم البعث والحساب: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ (١-٢)

والله تعالى شاهدٌ على خلقه لا تخفى عليه خافية: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ (٣)

أما قصة أصحاب الأخدود فقد تكون رمزية تتكرر في كل العصور، لأنّ الطغاة أصحاب العقول المنحازة لا يملّون من محاولة فرض معتقداتهم الدينية -أو اللادينية- على الآخرين قهراً وقسراً، بوسيلة أو بأخرى تصل إلى الحرق بالنار، ثمّ إنهم لا يدمّرون بهذا الأسلوب سوى أنفسهم: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٤-٩)

وتوضح الآية التالية معنى قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾ إذ تبيّن المصير النهائي للذين يضطهدون المؤمنين في محاولة منهم لتغيير دينهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي اضطهدوهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ (١٠)

بالمقارنة مع مآل المؤمنين الذين أتبعوا إيمانهم بالعمل الصالح: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ (١١)

وأن الله تعالى قد يمهل الكفار في الدنيا، ولا يهملهم في العاقبة: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (١٢)

وأنه لا بد لذلك من المعاد: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ (١٣)

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ لِمَن تاب وآمن، كثير الإحسان ﴿الْوَدُودُ﴾ (١٤)

ذو الملك والسلطان العظيم: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ (١٥)

لا يتخلّف عن إرادته شيء: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ (١٦)

وأن جموع الكفار والمكذّبين -كمثل فرعون وثمود- لا يشذّون عن سنته تعالى في الخلق، والله تعالى محيط بهم من حيث لا يشعرون: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ * وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ (١٧-٢٠)

فكان الأولى بالطغاة المكذّبين إمعان الفكر في القرآن الكريم: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ (٢١)

إذ القرآن المجيد -بخلاف الكتب السابقة- محفوظ من كل تغيير أو حذف أو إضافة: ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ (٢١-٢٢) فلا عذر لهم في الرجوع إلى غيره من الكتب الدنيوية أو "الدينية" لتحديد معايير مصطنعة للحق والباطل.

سورة الطارق -٨٦-

مكية

نزلت في وقت مبكر من الفترة المكية.

ارتباط السورة بما قبلها

في سورة البروج أن منحازي الفكر المصرّين على التكذيب جاهدون في قمع الحريات الدينية وفي اضطهاد المؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج ٨٥/١٠]، وفي هذه السورة أن نور الحقيقة يطرق قلوب التائبين من الناس الجاهدين في البحث عنها: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ [الطارق ٨٦/١].

محور السورة

شبّه تعالى السكينة تنزل على قلوب المؤمنين في اللحظات الحرجة كأنّها طارق الليل -انظر أيضاً آيات [الأنفال ٨/١١] و [التوبة ٩/٤٠، ٢٦] و [الفتح ٤٨/٢٦]-، وكذا الحقيقة تنير فجأة قلوب الباحثين عنها: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [٨٦/٢-٣]، لأن الله تعالى لا يترك عباده الحائرين بلا هداية: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [٨٦/٤]، أما المصرّون على التكذيب فلا بد من إمهالهم لعلهم يتوبون: ﴿فَمَهِّلْ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [٨٦/١٧].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

السكينة تنزل على قلب المؤمن في لحظات اليأس الحالكة، أوالاستنارة تطرق قلب الحائر الشاكّ، أو الإلهام الرباني يهدي قلب الضالّ الباحث عن الحقيقة فينزل عليه كالنجم الثاقب في ظلام الليل، أو كزائر الليل يطرق الباب: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ (١-٣)

لأنّ الله تعالى القيوم الحافظ على عباده لا يترك عباده الباحثين عن الحقيقة بلا هداية: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ (٤)

فليتأمّل الإنسان في معجزة خلقه ومنتهى ضعفه: ﴿فَلْيَنظُرْ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ (٥-٧)

وأن مَن خلَقه أول مرة قادر على بعثه بعد الموت: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ (٨)

فلا تخفى منه على الله خافية: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ (٩)

وتبدو قلة حيلته يوم الحساب: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ﴾ (١٠)

وليتأمل الإنسان أيضاً معجزات الخلق في الأفلاك التي تدور حوله ثم ترجع: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ (١١)

ومعجزة الأرض تنشق عن النبات: ﴿وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ (١٢)

فماذا ينتظر المشكّكون كي يؤمنوا بالقرآن الذي هو القول الفصل، الفاصل بين الحق والباطل: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ (١٣)

فقد نزل القرآن بالجدّ ولم ينزل باللعب: ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ (١٤)

وما تفيد مكائدهم وظنونهم الباطلة أمام المشيئة العليا: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ (١٥-١٦)

غير أنه على المؤمن إمهالهم لعلهم يهتدون، أو إمهالهم ليوم الحساب، وكلّ آتٍ قريب: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ (١٧).

سورة الأعلى -٨٧-

مكية

من أوائل السور المكية، وقيل إنها الثامنة في ترتيب النزول.

ارتباط السورة بما قبلها

في سورة الطارق أن الإلهام القرآني يطرق قلوب الحائرين الباحثين عن الحقيقة فيحقق لها الهداية والسكينة: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق ٨٦/١-٣]، وفي هذه السورة أنّ مَن تكون هذه حالُه يطهُر قلبه عن ظلمة الكفر كما تطهُر أعماله عن الرياء والتقصير إن ثابرَ على الذكر وعلى الدعاء: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى ٨٧/١٤-١٥]،

كما ختمت سورة الطارق بتوجيه المؤمنين للصبر على الكفار لعلّهم يتوبوا: ﴿فَمَهِّلْ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق ٨٦/١٧]، ثم افتتحت سورة الأعلى بتوجيههم للاستعانة على ذلك بالتسبيح: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ [الأعلى ٨٧/١]،

محور السورة

أنّ من واجب المؤمنين تذكير الكفار والجاحدين دون القسر: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَى﴾ [٨٧/٩]، وأن الفلاح الدنيوي والأخروي مرتبط بطهارة القلب

والقول والعمل عن الرياء وعن التقصير: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [٨٧/١٤-١٥]، ولكن بصيرة البعض قاصرة على الدنيا فقط دون الآخرة: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [٨٧/١٦-١٧].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

الأمر بتنزيه اسمه تعالى عمّا لا يليق به من الأوصاف والمعاني وعمّا يقوله المبطلون: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ (١)

إذ خلق سبحانه وتعالى الخَلْقَ متناسباً مع ما هو مخلوق له من متطلبات: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ (٢)

وحدّد طبيعة المخلوقات فهداها لما خُلقت له: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ (٣)

وجعل الحياة والموت: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ (٤-٥)

وعلّم الإنسان ما لم يعلم فجعل علوم البشر والحضارات تراكمية: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ أيها الإنسان ﴿فَلا تَنسَى﴾ (٦)، ونظيره قوله: ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق ٩٦/٥].

إلاّ ما أصبح من العلوم والتقنية بالياً فحلّت محلّه علوم جديدة أحدث من سابقتها: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ (٧)

غير أنّ علوم البشر محصورة بالظاهر -الجهر-، قاصرة دون علم الغيب -ما يخفى- ودون الحقيقة المطلقة التي لا يدرك الإنسان من كنهها شيئاً إلاّ بطريق الوحي الإلهي: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ (٧) فالله تعالى يعلم الجهر من عالَم الشهادة، كما يعلم ما يخفى على الإنسان من عالَم الغيب،

ومَن يؤمن بالوحي ييسّر تعالى حياتَه إلى اليُسر والسكينة: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ (٨)

فيكون من واجبه تذكير الآخرين بالحقيقة، سواءٌ نفعت الذكرى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَى﴾ (٩) أم لم تنفع بدليل تتمة الخطاب:

فالنفع يحصل لِمَن في قلبه خشية لله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ (١٠)

ولا يتنفع من الذكرى مَن أعجبتْهُ نفسُه واختار التكبّر: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى﴾ (١١)

فيجعل نفسَه في عداد الأشقياء المعذّبين كنتيجة طبيعية لما كان عليه من الكِبَر: ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَا﴾ (١٢-١٣)

وتحصل السعادة كنتيجة طبيعية لِمن تطهّر عملُه عن الرياء والتقصير، وثابر على الذكر والدعاء: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ (١٤-١٥) والصلاة بمعنى الدعاء لأن الصلاة المكتوبة لم تكن وقت نزول السورة المبكّر في مكة،

غير أن النفس البشرية ميّالة للدنيا غافلة عن الآخرة: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (١٦-١٧) وليس معنى ذلك أن القرآن الكريم ينظر إلى الدنيا نظرة سلبية فالمسلم الحق يبتغي فيما آتاه الله الدار الآخرة ولا ينسى نصيبه من الدنيا [القصص ٧٧/٢٨].

وكل ذلك مذكور في الوحي الذي سبق ونزل على الأنبياء ومنهم إبراهيم وموسى، فالقرآن الكريم استمرار لما سبقه من الوحي وخاتمه: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ (١٨-١٩).

الوجه الآخر لمعنى الآيات (٦-٩) أن يكون الخطاب بالدرجة الأولى للنبي ﷺ، وأن جبريل عليه السلام كان يُقرؤه القرآن فلا ينسى النبيُ العملَ به

ـذكره القرطبي والألوسي-، وقال الرازي: المعنى سنعلمك أيها النبيّ هذا القرآن حتى تحفظَه وليُعلم أن عدم النسيان من فضله تعالى وإحسانه ـانتهى-، وأما قوله: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ فلا يفيد سوى تعلق الأمر بالمشيئة العليا، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وقد ذكر الألوسي أن الاستثناء على هذا النحو لتأكيد عموم النفي في قوله ﴿فَلا تَنسَى﴾ لا لنقض عمومه، وليس في الآية ما يفيد النسخ كما يعتقد البعض.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ (٧)، فيحتمل المعنى أيضاً أن الإنسان يخفي أموراً عن الآخرين كما يخفي عن نفسه الكثير، فالله تعالى أعلم بالنفس من صاحبها.

سورة الغاشية -٨٨-

مكية

نزلت في النصف الثاني من الفترة المكية.

ارتباط السورة بما قبلها

سورة الغاشية تفصيل لسورة الأعلى المتقدّمة، ففي سورة الأعلى قوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ [الأعلى ٨٧/١٠]، ثم تبيّن سورة الغاشية عاقبة مَن اختار الذكرى [الغاشية ٨٨/١-٧]، وفي سورة الأعلى قوله تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ [الأعلى ٨٧/١١]، ثم تبين سورة الغاشية عاقبة من اختار تجنبها [الغاشية ٨٨/٨-١٦]،

وفي سورة الأعلى أن من واجب المؤمن تذكير غيره من الغافلين: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى ٨٧/٩]، ثم تنهى هذه السورة المؤمنَ عن تجاوز واجبه من الذكرى إلى القهر: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية ٨٨/٢١-٢٢].

محور السورة

أنّ النبي ﷺ، وبالتالي غيره من البشر، لا يستطيع، ولا يجب عليه، إكراه الآخرين على الإيمان: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ [٨٨/٢١-٢٢]، والحساب على الله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [٨٨/٢٥-٢٦].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

تبدأ السورة بالتذكير بيوم الحساب الذي يغشى الناس جميعاً فيكون وحده وقتئذٍ دون غيره شغلهم الشاغل: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ (١)

عندما يكون الناس قسمين، أحدهما مِن الذين اختاروا الشقاء لدنياهم وآخرتهم، لأنهم اجتنبوا الذكرى واتّبعوا أهواءهم، آية [الأعلى ١١/٨٧]، فهم يومئذٍ في منتهى الذلّ والعذاب: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ * لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ (٢-٧)

والقسم الآخر مِن الذين اختاروا الذكرى وعملوا بها فنفعتهم، آية [الأعلى ١٠/٨٧]، فهم وقتئذٍ في منتهى السكينة والرضا والسعادة الروحية المنزّهة عن اللغو: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ (٨-١٦)،

فكيف للكفار أن ينكروا الآخرة وعجائب الخلق محيطة بهم من كل جانب، ومنها السحاب المحمّل بالمطر: ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (١٧)

والأفلاك السماوية فوقهم لا نهاية لاتساعها: ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ (١٨)

ومعجزة الجبال والأرض تحت ناظرهم: ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (١٩-٢٠)

فما على النبيّ ﷺ -والمؤمنين من بعده- بعد كل هذا الإعجاز سوى تذكير المكابرين المصرّين على الكفر، فالإيمان لا يكون بالإكراه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ (٢١-٢٢)، أما الحساب فهو على الله وحده: ﴿إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ (٢٣-٢٦).

سورة الفجر -٨٩-

مكية

نزلت في أوائل الفترة المكية، العاشرة، أو هي من العشر الأوائل في ترتيب النزول.

ارتباط السورة بما قبلها:

تركيز سورتي الأعلى والغاشية المتقدّمتيْن على واجب المؤمن تذكير الغافلين: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى ٨٧/٩]، و﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية ٨٨/٢١]، ثم تفتتح هذه السورة أن التذكير يجب أن يكون بالإسلام الذي بزغ فجره: ﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر ٨٩/١-٢]، ثمّ إنّ ذوي العقول المنفتحة فقط هم الذين يستفيدون من الذكرى: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر ٨٩/٥].

محور السورة

بزوغ فجر الإسلام على البشرية وإفاقتها الروحانية من ظلام الشرك والجهل ببعثة النبي الأحمد خاتم الأنبياء والرسل وبدء نزول القرآن الكريم في العشر الأواخر من رمضان: ﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [٨٩/١-٢]، ما هو أكثر من كافٍ لإقناع أولي الألباب: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ [٨٩/٥]، أما

المصرّون على الجحود والإنكار فلا سبيل لتذكرهم إلاّ يوم وقوع الساعة عندما لا تفيدهم الذكرى شيئاً: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [٢٣/٨٩]، ويومئذٍ لا ينفع الندمُ صاحبَه أنه لم يقدم خيراً لآخرته: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [٢٤/٨٩]، بخلاف النفس المطمئنة التي طرحت الشكوك في حياتها الدنيا وأيقنت بالكتاب وعملت به، فيقال لها: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [٣٠/٨٩].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

انبلاج فجر الهداية الروحية على البشرية ببعثة النبي ﷺ وبدء نزول القرآن الكريم في العشر الأواخر من رمضان: ﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ (١-٢)

فنزلَ القرآن برسالة التوحيد ونبذ الشرك: ﴿والشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ (٣)، فالشفع ليس فقط دلالة على تعددية الخلق من ذكر وأنثى وأزواج شتّى بل دلالة أيضاً على شرك المشركين أن جعلوا لله شركاء، أما الوتر فهو دلالة الوحدانية،

وهكذا انسلخ ليل الباطل عن نور الحق: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ (٤)

ما هو كافٍ بذاته لإقناع كل عاقل غير مكابر: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ (٥)

أما المعاندون المكابرون فقد مضت سنّة الله في سوء عاقبتهم، كقوم عاد الذين سكنوا الأحقاف في جزيرة العرب: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾ (٦-٨)

وثمود الذين لا تزال حضارتهم ماثلة في صخور الجبال بوادي القرى شمال المدينة: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ (٩)

وفرعون وقومه ذوو الجبروت: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ (١٠)

لاقوا جميعاً وبال أمرهم: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ (١١-١٣)

فلا بد من تحقق العدالة في الدنيا أو الآخرة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ (١٤)

وابتلاء الله تعالى لعباده يكون بالنعم تارة وبالمصائب تارة أخرى لأن الدنيا دار اختبار وابتلاء، فمَن كان غافلاً يرى في ما ابتلاه الله تعالى به من التكريم والنعم حقاً طبيعياً له يستحقه: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ (١٥)

وإذا ما ابتلاه تعالى بشيء من المصاعب والنوائب، انظر آية [البقرة ٢/١٥٥]، لم يعتبر ذلك ابتلاء، بل يميل إلى الجحود فيشكك بالعدالة الإلهية وقد ينتهي إلى إنكار الخالق: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ (١٦)

مع أنّ البلاء قد يكون نزل به نتيجة كسب يديه من سوء استخدام النعمة والغش وأكل مال الآخرين والتهالك على المادة: ﴿كَلَّا بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (١٧-٢٠)

حتى إذا قامت الساعة وتبدّلت الأرض غير الأرض والسماوات: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتْ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (٢٢)

فيومئذٍ يندم ويتحسّر الغافل على ما فاته في دنياه ويتذكّر أنه لم يقدّم خيراً لحياته الآخرة، فلا تنفعه الذكرى في ذلك الوقت المتأخر: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (٢٣-٢٤)

فيلقى جزاءه العادل كنتيجة طبيعية لما كان عليه في حياته الدنيا: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ (٢٥)

وتصبح روحه حبيسة لما كان عليه من الشرك والظلمات: ﴿وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ (٢٦)

أما النفوس المطمئنة بالإيمان فتلقى ثوابها كنتيجة طبيعية أيضاً لما قدّمت لآخرتها من عمل صالح: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ (٢٧-٢٨) فهي راضية بما تلاقيه من ثواب، مرضيّ عنها بما قامت من عمل في دنياها.

فتنضم إلى عباد الله المقربين: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (٢٩-٣٠).

سورة البلد -٩٠-

مكية

نزلت في أواسط الفترة المكية.

ارتباط السورة بما قبلها

تصف سورة الفجر المتقدمة حالة الإنسان النفسية في حالتي ابتلائه بالنعم أو بالمصائب، ففي الحالة الأولى يتنابه الغرور وينسب النعم بالكلية إلى حذاقته وجدارته الطبيعية بها: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر ١٥/٨٩]، وفي الحالة الثانية يقنط ويميل إلى الجحود والنكران: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر ١٦/٨٩]، ثم توضح هذه السورة أن الإنسان معرض للابتلاء على الدوام: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد ٤/٩٠].

محور السورة

أن الدنيا ليست دار سعادة بالمعنى المطلق فالإنسان مضطر للكفاح والعمل الشاق وهو معرض دوماً للابتلاء: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [٤/٩٠]، والإنسان الغافل يلهث وراء هواه معتمداً على حوله وقوته: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا﴾ [٦/٩٠]، متوهماً أن ليس من مسؤولية وحساب: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ

يَرَهُ أَحَدٌ﴾ [٧/٩٠]، مع أنه تعالى بيّن للإنسان طريق الصواب من الخطأ: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [١٠/٩٠]، وحضّه على عمل الخير: ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ [١١/٩٠]، فلا بدّ للعصاة في النهاية من تحمل العواقب: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤصَدَةٌ﴾ [٢٠/٩٠].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطاب بالدرجة الأولى للنبي ﷺ، والإشارة لبلده مكة المكرمة، وهو حلٌّ بها أي مقيم بها، أو بمعنى أن المشركين أحلّوا إيذاءه وقتله بها رغم حرمته وحرمتها، أو أنها أُحلّت له يوم الفتح: ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (١-٢)

ويُحتمل أن يكون الخطاب لبني آدم عامةً، والبلد بمعنى الأرض أي الدنيا بمحملها بدليل تتمة الخطاب الذي يشير إلى جنس البشر بقوله: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ (٣)، وتعبير الوالد يشمل الوالدة أيضاً فيقال الوالدان،

والإنسان بالرغم من فترات السعادة القصيرة التي قد يمر بها في دنياه فإنه غالباً يكابد المصاعب والمشاق والابتلاء من كل نوع في الأمن والصحة والمال والولد -راجع آية [البقرة ١٥٥/٢]- ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (٤)

والغافل يلهث وراء الدنيا والمادة والسلطة والجاه والتسلّط غافلاً عن حقيقة ضعفه وقلة حيلته: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ (٥)

بل قد يظنّ الإنسان أنه يستطيع الوصول بإمكاناته المادية إلى أبعد الحدود معتمداً على حوله وقوته، ثم يتوهّم مقاييس الصواب والخطأ من خلال مصالحه الدنيوية فقط: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا﴾ (٦)

بل يتوهّم أن ليس هنالك من مسؤولية وحساب في نهاية المطاف: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ (٧)

إذ عَمِيَ عن الحقيقة الواضحة في آيات الخلق حوله ولم يستعن بالله في طلب الهداية: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ (٨-٩)

بل فضّل الهوى على العقل مع أن الله تعالى بيّن له الصواب من الخطأ: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (١٠)

فكان حريّاً به تحمل التضحيات للوصول إلى الطريق السويّ: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ (١١-١٢)

كالعمل على تحرير الآخرين من العبودية ومن التسلّط ومن الاستغلال الاقتصادي والاجتماعي: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ (١٣)

ومكافحة المجاعة بإطعام اليتيم القريب أو المسكين الذي التصق بالتراب لشدة جوعه: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ (١٤-١٦)

وأن يجمع العمل الصالح إلى الإيمان والصبر على الشدائد ورحمة الآخرين والتواصي بها: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ (١٧)

حتى تكون عاقبته في الآخرة خيراً: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ (١٨)

أما المصرّون على الكفر فتذهب أعمالهم هباءً: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾ (١٩-٢٠)، والميمنة والمشأمة أي اليمين والشمال، من اليمن والشؤم، وأصحاب الميمنة الميامين على أنفسهم، كما أصحاب المشأمة المشائيم عليها.

سورة الشمس -٩١-

مكية

نزلت في أوائل الفترة المكية.

ارتباط السورة بما قبلها

في سورة البلد أنّ الله تعالى بيّن للإنسان طريق الخير من طريق الشر: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد ٩٠/١٠]، وحضّه على التضحية في سبيل عمل الخير: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ [البلد ٩٠/١١]، وفي هذه السورة أن الله تعالى سوّى النفس الإنسانية في أحسن تقويم، غير أنّ بإمكان الإنسان بكسبه الدنيوي أن يختار الهبوط إلى حضيض الحيوانية أو السموّ إلى الخلق الرفيع: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس٩١/٧-٨]،

محور السورة

أنه تعالى خلق الإنسانَ في أحسن تقويم وفطرةٍ سليمة، وبيّن له معايير الباطل من الحق: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [٩١/٧-٨]، غير أن النفس الإنسانية بكسبها الدنيوي قد ترتفع إلى الخُلق القويم والسمو الروحي أو تهبط إلى حضيض المادة والشهوانية والهوى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [٩١/٩-١٠].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات (١-١٠) تشير إلى ثنائية الخلق في كل مظاهره الفيزيائية والروحية الباهرة، في مقابل وحدانية الخالق عزّ وجلّ، انظر آية [الذاريات ٤٩/٥١].

فهنالك الشمس والنور الوهّاج المنبعث منها: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ (١)

والقمر يعكس ضوء الشمس: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾ (٢)

وتعاقب الليل والنهار على الأرض: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاّهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ (٣-٤)

ونظام الأفلاك السماوية المذهل: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ (٥)

ومعجزة خلق الأرض: ﴿وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ (٦)

والنفس البشرية المذهلة أو شخصية الإنسان التي في منتهى الإعجاز مكوّنةً من جسدها المادي ومن الروح التي تعطي الجسدَ الحياة دون أن يُدرَك كنهُها، وحاجياتها المادية ودوافعها ومحفّزاتها وعواطفها وفكرها وما يدخل ضمن إدراكها من ظاهر الخلق وما يغيب عن إدراكها، فسوّاها تعالى لما خُلقت لأجله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (٧)

فصار بإمكانها أن تهبط بأفعالها وفكرها إلى حضيض الحيوانية أو ترتفع لأعلا درجات الخُلُق القويم والسمو الروحي: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (٨)

بحيث يدرك السعادة مَن حافظ على فطرته السليمة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (٩)

ويتعس مَن دسّ نفسَه في الفجور والرذائل وانغمس فيها: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (١٠)

ومثال ذلك أنّ الطغيان والكبرياء أدّى بثمود -من ضمن أقوام بائدة أخرى- إلى التكذيب بهذه الحقيقة: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ (١١)

فغلب على أفرادها الفجور وأخذتهم العزة بالإثم واتّبعوا أشقى أشقيائهم حتى صار لهم رائداً: ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ (١٢)

وبلغ بهم الشر مبلغاً أن منعوا مخلوقات الله السائبة -الناقة- من مورد الماء بالرغم من تحذير رسولهم صالح: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ (١٣)

فكذّبوه وقتلوها إمعاناً في التحدّي حتى جاءهم العقاب الدنيوي عاجلاً غير آجل فسوّى أرضهم عاليها بسافلها: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ (١٤)

ذلك أنهم استخفّوا بالرسالة وكفروا ولم يَخَف أحدٌ منهم -وبالأخص أشقى أشقيائهم- عاقبةَ عَمَلِه: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ (١٥).

سورة الليل -٩٢-

مكية

من أوائل السور المكية، ورجّحوا أنها التاسعة في ترتيب النزول.

ارتباط السورة بما قبلها

في سورة الشمس المتقدمة أن الفلاح نتيجة مَن يزكّي نفسه باتباع سبيل الخير: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس ٩١/٩]، وتفصيله في هذه السورة قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى *فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل ٩٢/٥-٧]،

وفي سورة الشمس أنّ الخيبة عاقبة من يدسّ نفسه في الشرور والآثام: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس ٩١/١٠]، وتفصيله قوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل ٩٢/٨-١٠].

محور السورة

شتّان ما بين سعي الإنسان للخير وسعيه للشر: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [٩٢/٤] وعواقب كلّ منهما، فقد هدى تعالى البشرية لمعايير الحق من الباطل: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ [٩٢/١٢]، وأن الدنيا والآخرة ليستا سوى مرحلتين من حياة واحدة لا تكتمل الأولى منهما إلاّ بأن تعقبها الآخرة: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى﴾ [٩٢/١٣]،

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

كما في السورة السابقة، تشير الآيات (١-٣) إلى معجزات من ثنائية الخلق المشار إليها في آية [الذاريات ٤٩/٥١]، في مقابل وحدانية الله سبحانه، فهنالك الليل الذي يغشى الأرض، والنهار الذي ينيرها: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ (١-٢)

ومعجزة خلق الذكر والأنثى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾ (٣)

وحتى تفاوت أهداف الإنسان ودوافعه ومساعيه نحو الخير أو الشر، أو الدنيا أو الآخرة، فشتّان ما بينهما: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ (٤)

وشتّان ما بين عواقب كلٍّ منها، فَمَن أنفق من ماله لوجه الله واحباً أو نفلاً واتّقى كل ما لا ينبغي وجعل خشية الله نصب عينيه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ (٥)

وآمن بالخير المطلق الذي نزل به الوحي: ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ (٦)

فيوفّقه تعالى لحياة السكينة والسلام الروحاني: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ (٧)

وأمّا مَن أعمته المادة واللهاث وراء الدنيا والهوى والشهوات واعتقد بنفسه الاكتفاء والاستغناء عن الهدي الإلهي: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى﴾ (٨)

وكذّب بمعايير الحق والباطل واتّبع معايير وضعية من عنده: ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ (٩)

فيخلّيه تعالى لنفسه ينخبط في الباطل ويكابد مشاق الحياة فيتعزز سلوكُه بمكاسب دنيوية قصيرة الأمد ويعتاد عقلُه على الباطل فينغمس فيه: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ (١٠)

حتى إذا وافت المنيّةُ أحدَهم وتردّى في قبره لم يُغنِ عنهُ مالُه شيئاً: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ (١١)

وقد بيّنَ الله تعالى للناس طريق الهدى من الضلال فلا يجبرهم على أحدِهما: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ (١٢)

وللإنسان اتخاذ طريقه في دنياه بمحض اختياره سوى أنه يتحمّل عواقب عملِه إن عاجلاً أو آجلاً، فالدنيا والآخرة ليستا سوى مرحلتين لحياة واحدة: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى﴾ (١٣)

فتكون سوء العاقبة نتيجة طبيعية لِمَن اختار لنفسه الشقاء وكذّب بالأنبياء والوحي وأعرض عن الحقيقة: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لا يَصْلاهَا إِلاّ الأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ (١٤-١٦)

ويتقي سوء العاقبة من زكّى نفسَه بالإنفاق من مالِه واجباً ونفلاً: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ (١٧-١٨)

إنفاقاً ليس على سبيل المِنّة ولكن ابتغاء رضوانه تعالى فقط: ﴿وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلاّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ (١٩-٢١).

سورة الضحى -٩٣-

مكية

من أوائل السور المكية، ورجّحوا أنها الحادية عشرة في ترتيب النزول.

الخلفية التاريخية

قالوا في مناسبة النزول أن الوحي احتبس عن النبي مدّة فقال المشركون: قد قلاه الله وودعه، ولو كان رسولاً لما احتبس عنه، فشكا النبي ﷺ مخاوفه لخديجة فقالت: كلاّ والذي بعثك بالحق ما ابتدأك الله بهذه الكرامة إلاّ وهو يريد أن يتمّها لك، وطعن الأصوليون في صحة الرواية -ذكره الرازي- وقالوا إنه لا يليق بالرسول ﷺ أن يظن احتباس الوحي عنه فهو يعلم أن عزل النبي عن النبوة غير جائز في حكمته تعالى، كما يعلم أن نزول الوحي يكون بحسب المصلحة،

وبغضّ النظر عن صحة الرواية، وحتى لو قبلنا أن الخطاب موجه بالدرجة الأولى إلى النبي ﷺ، فلا يمنع أن تكون السورة ذات مغزى أوسع وأعمّ، لأنهم قالوا إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فيكون الخطاب عندئذٍ تثبيتاً وطمأنةً ليس فقط للدعاة في كل وقت، بل لكل مؤمنٍ ومؤمنة في حالات البؤس والمشاق التي تعصف بكل إنسان في بعض مراحل حياته ولو كان طاهراً تقياً نقيّاً، انظر آية [البلد ٩٠/٤]، حتى أن بعض المُبتَلين قد يصل به اليأس إلى التشكيك بالعدالة الإلهية، انظر آية [الفجر ٨٩/١٦].

وفي السورة إشارة ليُتْم النبي ﷺ، فقد وُلدَ بعد وفاة والده بشهور، ثم توفيت والدته وهو في السادسة من عمره.

ارتباط السورة بما قبلها

بعد أن أكّدت سورة الليل المتقدمة فلاح مَن أعطى واتقى وصدّق بالحسنى، وأن الله تعالى ييسّر شأنه إلى اليسر والسهولة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل ٩٢/٥-٧]، تفصّل سورة الضحى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى ٩٣/١-٥].

محور السورة

أنه تعالى لا يترك عباده المؤمنين وقت الشدة: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [٩٣/٣]، بل يعطيهم ما يرضي قلوبهم، ويؤويهم، ويهديهم من ضلالة، ويغنيهم من فقر، فوجب عليهم إكرام اليتيم والسائل، والتحدث بنعم الله الكثيرة لا بالبوس والمعاناة ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [٩٣/١١].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

يبدو أن تعبير الضحى -أو ساعات الصبح المشرق- يرمز إلى فترات السعادة القليلة المتباعدة في حياة الإنسان، بالمقارنة مع ساعات الليل الطويلة التي ترمز إلى فترات الأسى والمشقة التي تميز حياة الإنسان عامةً لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد ٩٠/٤]، والخطاب وإن كان أولاً للنبي ﷺ فهو بالتالي لكلّ داعية، بل لكلّ مؤمن ومؤمنة: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ (١-٢)

أي كما ينجلي الليل بالضحى فلا بد للفرج أن يأتي بعد الشدة، إن في الدنيا أ في الآخرة، لأنه تعالى كتب على نفسه الرحمة، انظر آية [الأنعام ١٢/٦].

فالله تعالى يرعى مصالح عباده ولا يتخلّى عنهم وقت الشدة: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾ (٣-٤)

وأنه تعالى يمنح عباده ما يرضيهم في الوقت المناسب بحسب الحكمة: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (٥)

فقد أنعم على عباده بالمأوى، والعباد كلّهم يتامى بمعنى، يوم الولادة ويوم المعاد لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام ٩٤/٦]، ومن هنا قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ (٦) ما ينطبق على الخلق جميعاً،

ثم بعث الأنبياء والرسل إلى الناس لهدايتهم من الضلال: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى﴾ (٧)

وقنّعهم وأغنى قلوبهم: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ (٨)

فوجب عليهم إكرام اليتيم: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾ (٩)

والانتهاء عن نهر السائل الذي يسأل المال، أو يطلب العلم: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾ (١٠)

وأن يتحدث الإنسان بنعمه تعالى عليه لا ببؤسه ومعاناته: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (١١).

سورة الشرح -٩٤-

مكية

نزلت بعد سورة الضحى.

ارتباط السورة بما قبلها

سورة الشرح استمرار واضح لسورة الضحى، فبعد أن أنعم تعالى على عباده بالهداية وبالنعم المادية، الآيات [الضحى ٩٣/٥ ٨]، شرح صدرهم للقيام بمهام الدعوة، فوجب عليهم الاستفادة من وقتهم بما يفيد، الآيات [الشرح ٩٤/٧-٨].

محور السورة

أنّ الله تعالى شرح صدر النبي ﷺ للقيام بمهام الدعوة والتغلب على مصاعبها حتى كان الإنجاز الهائل بانتشار الإسلام، وأن من سننه تعالى في المؤمنين أن لا يدوم عسر: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [٩٤/٥]، لذا من واجب المؤمنين الاستفادة من فراغهم بما يفيد دنياهم وآخرتهم: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [٩٤/٧-٨].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

شرَحَ اللهُ تعالى صدرَ النبـي ﷺ للقيام بمهام النبوة، ومعنى شرح الصدر الإراحة من الهمّ والغمّ، والعرب تسمّي الغمّ والهمّ ضيقَ صدر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر ١٥/٩٧]، حتى أنّ النبيّ احتمل أعباء الدعوة منشرح الصدر منشغلاً بمهام التكليف متلهّفاً على إسلام المعاندين من قومه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (١)

فخفّف عنه تعالى عبء ختم النبوّات الهائل الذي يثقل ظهر العظماء: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ (٢-٣)

فكان الإنجاز العظيم الذي قُدّرَ للنبي ﷺ أن يحقّقه أعظم من منجزات الأنبياء من قبله مجتمعين: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (٤)

وأنّ من سننه تعالى في عباده المؤمنين أن لا دوام للأوضاع الصعبة: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (٥-٦)

فوجبَ على النبيّ ﷺ -وبالتالي كل مسلم- أن يستفيد من فراغه بما يفيد دنياه وآخرته: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (٧-٨)، والنَصَب: التعب، فالقاعدة لكلّ مسلم أن لا يمضي فراغه من غير شغل مفيد، ولا يشتغل بما لا يعنيه ولا يفيده من سفه الرأي وتفاهة العقل واستيلاء الغفلة، بل يجتهد في العبادة ويرغب إلى الله في كل أموره فيجده عند الحاجة لأنه المهيمن على أمور عباده، وفي الحديث الشريف: "نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس : الصحة والفراغ" رواه البخاري وغيره.

سورة التين -٩٥-

مكية

نزلت خلال النصف الأول من الفترة المكية.

ارتباط السورة بما قبلها

بعد أن بينت سورة الشرح المتقدمة أن الله تعالى شرح صدر نبيّه للقيام بمهام بعثته النبوية: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح ٩٤/١]، وخفف عنه عبء ختم النبوات الهائل: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح ٩٤/٢-٣]، تبين سورة التين أن رسالة الإسلام استمرار لما سبقها من بعث الأنبياء والرسل: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين ٩٥/١-٢]، كما تشير من طرف خفي إلى انتقال النبوة من بني إسحاق إلى بني إسماعيل: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ [التين ٩٥/١-٣] إشارة لمكة المكرمة.

محور السورة

أنه تعالى هدى البشرية بنزول الرسالات السماوية عليها من خلال بعث الأنبياء والرسل، كما خلق الإنسان في أحسن تقويم جسمي ومعنوي، وفي أحسن فطرة، غير أنّ الإنسان من خلال حرية إرادته التي كرّمه بها تعالى يستطيع السمو إلى أعلا المراتب، أو الانحطاط إلى أسفلها.

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

التين والزيتون إشارة إلى البلدان التي انتشرت فيها هاتان الشجرتان في شرق البحر الأبيض المتوسط منذ القدم، وهي البلدان التي تميزت ببعثات الأنبياء، من إبراهيم إلى موسى إلى عيسى عليهم السلام، والإشارة إلى جبل الطور في سيناء حيث نزل الوحي على موسى، ثم كانت بعثة عيسى عليه السلام في فلسطين، آخر أنبياء بني إسرائيل: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ﴾ (١-٢)

إلى أن نُسخت ديانتيهما ببعثة النبي الأحمد خاتم الأنبياء والرسل في البلد الأمين مكة الذي جعله تعالى حرماً آمناً: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ (٣)

ثم تشير السورة إلى مغزى خلق الإنسان في أحسن تقويم فيزيائي ومعنوي بحيث يستطيع من خلال إرادته الحرة وباستفادته من الهدي السماوي أن يسمو روحياً إلى أعلا المراتب التي خُلق لأجلها: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (٤)

أو ينحط إلى الدرك الأسفل بإفساد فطرته السليمة التي فُطر عليها باتباعه الشهوانية والحيوانية والشذوذ والإجرام: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ (٥)، كما يحتمل المعنى أيضاً أن الإنسان يرتد في شيخوخته إلى أسفل سافلين جسدياً وعقلياً لكي لا يعلم من بعد علمٍ شيئاً، انظر آية [الحج ٢٢/٥]،

وفي المقابل يتمتع الذين آمنوا وأثبتوا إيمانهم بالعمل الصالح بأجر لا ينقطع ولا ينقص: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (٦)

فأنّى للإنسان بعد ذلك أن يكذّب بالوحي وبالمعايير السامية التي نزل بها أو يشكك بمغزى الخلق والفطرة السليمة، فذاك معناه تكذيب بالقيامة والحساب والآخرة والعدالة الإلهية: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ * أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ (٧-٨).

سورة العلق -٩٦-

مكية

الجمهور على أن الآيات (١-٥) من هذه السورة كانت أول ما نزل من الوحي، وابتدأ بها نزول القرآن الكريم في العشر الأخير من رمضان عام ١٣ قبل الهجرة (الموافق تموز-آب ٦١٠ م)، أما تتمة السورة، الآيات (٦-١٩)، فنزلت بعد ذلك.

ارتباط السورة بما قبلها

بعد أن ألمحت سورة التين لانتقال عبء رسالة التوحيد من بني إسحاق إلى بني إسماعيل بقوله تعالى: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ [التين ٣/٩٥]، تفتتح سورة العلق ببدء نزول الوحي على النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق ١/٩٦]،

محور السورة

الأمر للنبي ﷺ -وبالتالي لكل مسلم- أن يقرأ القرآن قراءة استيعاب وتعلُّم واستعداد للدعوة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [١/٩٦]، فقد كرّمَ اللهُ تعالى الإنسانَ ورفعه من بويضة ملقحة -عَلَقَة- تافهة إلى شخصية ذات إمكانات فكرية وروحية متكاملة وزوّده بعلوم الدنيا ومن علوم الآخرة: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ

الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [٩٦/٤-٥]، ومع ذلك فمنهم مَن يستكبر ويطغى، ويكتفي بنفسه ويظن أنه مستغنٍ عن الوحي، وينكر الحساب والآخرة، ويدّعي "العلمانية" فليس عنده للدين أي دور في سلامة المجتمع، بل يتطاول على المؤمنين ويضطهدهم، فإن لم يقلع عن غيّه ولم يتب قبل الفوت تكون عاقبته الوخيمة نتيجة طبيعية لما كان عليه من ضلال في دنياه: ﴿كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ [٩٦/١٥]، وما على المؤمنين في دنياهم سوى الثبات على دينهم والاقتراب من الله قولاً وعملاً: ﴿كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [٩٦/١٩].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

أمرَ جبريلُ عليه السلام النبيَّ ﷺ أن يقرأ القرآن قراءة استيعاب لكي يدعو الناس للإسلام، وأن تكون القراءة مفتتحة ﴿باسم ربّك﴾، أي قل بسم الله ثم اقرأ، وفيها دلالة على وجوب التسمية في ابتداء كل سورة، وقيل المعنى اقرأ القرآن مستعيناً باسم ربِّك خالق كل شيء: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (١)

خلقَ اللهُ الإنسان من بويضة ملقّحة، فشتّان ما بين البداية العضوية البسيطة المتواضعة للإنسان وبين ما يؤول إليه العلق من شخصية متكاملة ناضجة ذات امكانات فكرية وروحية هائلة، فأنّى يكون ذلك بالصدفة، بل الله الخالقُ المُدبِّر لحياة ذات معنى ومغزى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (٢)

ثم تكرار الأمر بالقراءة، وهو وإن كان بالدرجة الأولى للنبي ﷺ فإنه بالتالي للناس جميعاً أن يقرؤوا القرآن الذي أكرم به تعالى بني آدم فيتعلمون منه ما لا يمكنهم التوصل إليه بمعارفهم الدنيوية المحردة: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾ (٣)

ثم جعل تعالى القلم الذي هو وسيلة الكتابة الأولى رمزاً لحفظ علوم البشرية

وتوثيقها وتوارثها وتوارث الخبرات عبر الأجيال حتى تصبح تراكمية تنتقل من ثقافة إلى أخرى ومن جيل لآخر فيتعلّم الإنسان ما لا يمكنه تحصيله بمفرده: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (٤-٥)، وفي كل ذلك عودة إلى الأمر بالقراءة في الآية الأولى: ﴿إقرأ﴾،

ومع ذلك ورغم تلك البداية المتواضعة لخلق الإنسان من علق، وما توصّل إليه من العلوم التي حباه تعالى بها من علوم دينية ودنيوية، فإنه يغتر بنفسه فتُداخله الخيلاء والكبرياء بما توصل إليه من ثروة أو سلطان أو جاه أو إمكانات فيظن بنفسه الاكتفاء الذاتي والاستغناء عن الوحي الإلهي: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ (٦-٧)

بل يظنّ أن بإمكانه تسيير الأمور في دنياه بالمطلق، وفق هواه دون حساب ولا رقيب ولا مسؤولية أخلاقية تجاه سلطة عليا، غافلاً عن يوم الحساب: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ (٨)

بل يتمادى في اضطهاد غيره من المؤمنين وينكر للدين أي وظيفة مفيدة أو شرعية في تكوين المجتمع السليم، ولا يعير لعقيدة غيره أي تفكير أو احتمال أن يكون الطرف الآخر على الهدى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾ (٩-١٢)

فهو يدّعي "العلمانية" ويتمسك بوهم أنّ الإنسان ليس بحاجة للهداية السماوية: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ (١٣)

بل يعتقد أن ليس من حساب أمام سلطة محيطة فوق البشر: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ (١٤)

فإن هوَ أصرّ على غيّه بلا توبة كانت نهايته الحتمية نتيجة طبيعية لإصراره على الكذب على نفسه: ﴿كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ

خَاطِئَةٍ﴾ (١٥-١٦) أي فليرتدع هذا الإنسان عن ضلاله وإلاّ نشدّه إلى جهنّم من شعر جبهته، والسفع الجذب بشدة،

فلا ينفعه حينئذٍ أعوانه ولا عشيرته الذين كانوا يؤيدونه على الباطل: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ (١٧) إن كان منهم فائدة،

بل الملائكة الموكلون بعذابه يأخذونه: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ (١٨) فلا يستطيع دفع العذاب عن نفسه وقد يأتيه عاجلاً في الدنيا أو آجلاً في الآخرة،

والنتيجة أن على المسلمين أن ينبذوا كل أنواع الضغوط لحملهم على ترك صلاتهم أو لحرفهم عن الصواب، بل يثبتوا ويسجدوا ويقتربوا من الله تعالى بأقوالهم وأفعالهم: ﴿كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ (١٩).

سورة القدر -٩٧-

مكية

من أوائل السور المكية.

ارتباط السورة بما قبلها

بعد أن افتتحت سورة العلق ببدء نزول الوحي على النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق ١/٩٦]، تبين هذه السورة أن ابتداء نزول القرآن كان في ليلة القدر: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر ١/٩٧].

محور السورة

بدء نزول القرآن الكريم في ليلة القدر وتشريف الإنسان بختم الرسالات: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [٣/٩٧]، وحلول السلام الروحي في نفوس المؤمنين: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [٥/٩٧].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

بدء نزول القرآن الكريم في ليلة القدر في العَشر الأواخر من رمضان: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (١) وضمير الغائب في ﴿أنزلناه﴾ يعود للقرآن، فالقرآن يقال للآية وللسورة وللمصحف كلّه، والمعروف أن القرآن نزل منجّماً أي مفرّقاً على مدى ثلاثة وعشرين عاماً هي بعثة النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة٥٦/٧٥]،

والقدْر والقَدَر أيضاً بمعنى واحد: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ (٢)، فهي الليلة التي قُدِّرَ فيها بدء نزول القرآن الكريم، خاتَم الرسالات السماوية لبني آدم، وليلة القدْر أيضاً بمعنى ليلة العَظَمة والشرف بالنظر لعظَمة الرسالة الجديدة وتشريف الإنسان بها، ويدلّ على ذلك قوله: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (٣) أي هي خير من ألف شهر ليس فيها ليلة قدر، والألف شهر بمعنى التكثير وليس بالضرورة ألف بالمفهوم البشري للزمن، أمّا إن كان المقصود من الشهر: الإشهار -كما يقولون في مصر عن الشهر العقاري- فإن إشهار القرآن على البشرية خير من ألف إشهار آخر غير مشتمل على القرآن، فقد تنزّلت الملائكة وفيها جبريل عليه السلام بالوحي بإذن ربّهم، ليكون القرآن شاملاً كلَّ أمر يحتاجُه الإنسان لدنياه وآخرته: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ (٤)

ففي ليلة القدر يتبدّدَ ظلام الجهل ويحلَّ السلام الروحي في نفوس المؤمنين ويطهّرهم من وساوس السوء: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ (٥).

سورة البيّنة -٩٨-

مختلف في كونها مكية أم مدنية

اختلفوا في كونها من أواخر السور المكية أم من أوائل السور المدنية.

ارتباط السورة بما قبلها

في سورة القدر بيان لبدء نزول القرآن الكريم على البشرية بما هو خير من ألف شهر أو إشهار أيّ رسالة أخرى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر ٣/٩٧]، وفي هذه السورة أنّ من أهل الكتاب والمشركين مَن أصرّ على الإنكار، وأصمّ أذنيه، وأغلق عقله عن الحق حتى بعد نزول القرآن: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة ٤/٩٨].

محور السورة

الله تعالى لم يكن ليترك أهل الكتاب والمشركين على ضلالهم بلا بعث الرسل إليهم وعرض الهداية عليهم، لقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء ١٥/١٧]، وقوله: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام ١٣١/٦]، وقوله جلّ ثناؤه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة ١١٥/٩].

فبعث لهم الأنبياء والرسل ثم ختم الرسالات ببعثة النبي الأحمد خاتم الأنبياء والرسل ﷺ إلى الناس كافةً، ورغم ذلك بقي الكثير منهم على الكفر والجمود الفكري، وتفرقوا أحزاباً وطوائف كثيرة.

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

بحسب القاعدة القرآنية: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء ١٥/١٧]، فإن الله تعالى لم يكن ليترك أهل الكتاب والمشركين هائمين في ضلالهم، أو يدينهم، قبل أن يبين لهم طريق الهداية بياناً لا لبس فيه: ﴿لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ (١)

فبعث لهم الرسل وختم ببعثة النبي الأحمد خاتم الأنبياء والرسل الذي بُعث بالقرآن للناس عامة: ﴿رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ (٢-٣)

ولكن أهل الكتاب الذين انحرفوا عن رسالات أنبيائهم بشكل سافر: اليهود عن رسالة موسى، والمسيحية عن رسالة عيسى، ثم لما جاءهم النبي الأحمد المذكور بشارته في كتبهم أنكروه وتفرقوا طوائف وشيعاً كثيرة كلّ حزب بما لديهم فرحون: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ (٤)، والبيّنة هي رسالة الإسلام بيّنت الحق من الباطل.

فاختاروا الشرك والطقوس وعادات الوثنية على استقامة الحنيفية السمحة: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ (٥)

لذا يكون العذاب في الآخرة نتيجة طبيعية لإصرارهم على الكفر، لما في

الكفر من ظلم للنفس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ (٦)

غير أن الكثيرين منهم دخلوا الإسلام طواعية بعد الفتوحات الإسلامية التي انتشرت من الأندلس إلى الصين، وحَسُن إسلامهم، ولا يزال اليوم يدخل الكثير منهم الإسلام في أنحاء العالم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ (٧)

ممّا هو في صالح دنياهم وآخرتهم: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ ورضوا بما جزاهم من الثواب: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ (٨).

سورة الزلزلة -٩٩-

مختلف في كونها مكية أم مدنية

المحتمل أنها نزلت في أوائل الفترة المدنية، مع قول البعض أنها من أواخر الفترة المكية

ارتباط السورة بما قبلها

في سورة البيّنة المتقدمة أنّ أهل الكتاب تفرقوا من بعد أن جاءتهم البينة: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة ٩٨/٤]، وفي هذه السورة أنهمّ يلاقون حسابهم في الآخرة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾ [الزلزلة ٩٩/٧-٨].

محور السورة

يوم الحساب -المرموز له بزلزلة الأرض- ينقضي به العالم الظاهر الذي نعرفه ليحل محله عالم الغيب الذي تتحقق فيه العدالة وتظهر به الحقيقة المطلقة، يوم يُحاسب الناس فرادى، فلا يفوت من حسابهم مثقال ذرّة من خير أو شرّ،

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطاب استمرار واضح لآخر سورة البينة لجهة الحساب يوم القيامة، يوم وقوع الزلزلة: ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ (١)

عندما يخرج للحساب ما كان خفيَ في الأرض من أموات: ﴿وَأَخْرَجَتْ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ (٢)

ويذهل من بقي شاهداً على زلزلتها: ﴿وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا﴾ (٣)

فتشهد يومئذٍ -بإيحائه تعالى لها- بكلّ ما جرى عليها منذ الخليقة، تشهد لكل فرد أو عليه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ (٤-٥)

ويأتي الناس للحساب أشتاتاً متفرقين يرى كلٌّ منهم عملَه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ (٦) ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام ٦/٩٤]، وقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء ١٧/١٤]،

فلا يفوت من ميزان حسنات الفرد أو سيئاته مثقالُ ذرّة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾ (٧-٨)

سورة العاديات -١٠٠-

مكية

من أوائل السور المكية.

ارتباط السورة بما قبلها

في سورة الزلزلة أنه يوم القيامة لا يفوت من حساب الإنسان مثقال ذرة من خير أو شر: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة ٩٩/٧-٨]، وفي هذه السورة أن الفاسق غافلٌ عن ذلك: ﴿أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ [العاديات ١٠٠/٩-١١].

محور السورة

اندفاع النفوس الشريرة نحو الفساد والإفساد: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ [١٠٠/١]، وعَمايتها عن الحق: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ [١٠٠/٤]، وأن الإنسان عندما يستسلم لشهواته يصبح حاحداً: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [١٠٠/٦]، ويغفل عن الآخرة حيث لا يخفى من حسابه شيء: ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ [١٠٠/١١].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

قالوا إنّ الخمس آيات الأولى من السورة تشير إلى الخيل المغيرة وقت انبلاج الصبح، والشرر يقدح تحت حوافرها مثيرة الغبار -النقع- حتى تتوسط جمع العدوّ، وزعم آخرون أنها الإبل تسرع بالحجيج من عرفة إلى مزدلفة إلى منى فتتوسط جموع الحجاج: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ (١-٥)،

وذكروا حججاً واهية في الربط بين الآيات (١-٥) والآيات (٦-١١) من السورة، وحيث لا بد من وجود رابط قوي وتسلسل منطقي بين الآيات (٦-٨) وما قبلها، وما دامت الآيات (٦-٨) تدين الإنسان بأنه كفور متهالك على الدنيا، فعلينا أن نستنتج أن الآيات (١-٥) منسجمة مع هذه الإدانة وليست مديحاً لما توهّموا أنهم حجيج أو مقاتلون في سبيل الله يغيرون على العدو، وقد رأى محمد أسد في العاديات ضبحاً كناية عن النفس الإنسانية العاصية المنهمكة في اللحاق بأهداف شريرة وهي خلوّ من أي توجّه روحاني بسبب اختلاط الأمور عليها وكثرة الذنوب وهيمنة الشهوات والأنانية ومادية الدنيا، فتندفع بصورة عمياء إلى الفساد والإفساد لا يردعها ضمير ولا تعقّل، إذ أعماها غبار الجهل والشهوة فتعيث في الأرض فساداً، والسبب أن أصحاب هذه النفوس جاحدون فاسقون وهم المعنيّون بقوله: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (٦) أي جاحد مستسلم لشهواته،

وتشهد أعمالُه الشريرة على ضلاله وكفره: ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ (٧)

وهو بالنظر لماديته وتهالكه على الدنيا شديد الحب للمال: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (٨)

ناسياً الآخرة والحساب والمسؤولية تجاه الخالق الذي لا يخفى عليه شيء: ﴿أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ (٩-١١).

سورة القارعة -١٠١-

مكية

نزلت في وقت مبكر من الفترة المكية.

ارتباط السورة بما قبلها

في سورة العاديات أن ما يخفيه الإنسان في صدره -عن نفسه وعن الآخرين- يظهر يوم القيامة: ﴿أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ [العاديات ١٠٠/٩-١١]، وفي هذه السورة أنه يُجزى بحسب ميزان حسناته وسيئاته: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة ١٠١/٦-٩].

محور السورة

تصف سورة القارعة جانباً من يوم القيامة حيث تتحقق موازين العدالة على أكمل وجه، فتكون الحياة الآخرة لكل فرد نتيجة طبيعية لما كان عليه في دنياه من اتّباع الحق أو الباطل.

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

اتفقوا أنّ القارعة اسم من أسماء القيامة: ﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ﴾ (١-٢)

أما حقيقتها فمن أمور الغيب: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ (٣) أي لا علمَ للناس بكنهها،

وقد شبّه تعالى الناسَ يومها بالفراش المنتشر لضعفهم وتهافتهم وذهاب حيرتهم الذي كانوا يظنونه في الدنيا: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ (٤)

وحتى الجبال التي تبدو لنا صلبة في ظاهرها تصبح كالصوف المنفوش، كناية عن ضعف المخلوقات في ذلك اليوم: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ (٥)

يومها تتحقق موازين العدالة على أكمل وجه، فَمَن ثقلت موازينه بنتيجة اتّباعه الحق في دنياه: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ (٦) تكون معيشته في الآخرة راضية: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (٧)

وأما مَن خفّت موازينه -لأنّ الباطل خفيف لا قرار له، لقوله: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء ٨١/١٧]- بنتيجة اتّباعه الباطل في دنياه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ (٨) فيهوي إلى أسفل سافلين في الدنيا قبل الآخرة: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ (٩) والاستعارة في كلمة الأم تعني أن الهاوية تحضنه كما تحضن الأم ابنها، كناية عن عذاب الآخرة،

لقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾ (١٠) أي ما أدراك أيها الإنسان ما كنهها؟

فلذلك كنّى تعالى عنها بنار حامية، وتنكير النار بحذف أل التعريف لكونها تمثيلاً لما غاب عنّا من أمور الغيب بما نعرف من أمور الدنيا: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ (١١).

سورة التكاثر -١٠٢-

مكية

نزلت في وقت مبكر من الفترة المكية.

ارتباط السورة بما قبلها

هي استمرار لما قبلها لأن التكاثر غالباً ما يكون سمة الذين خفّت موازينهم،

محور السورة

رأى محمد أسد أن هذه السورة تنبأت بما آل إليه الإنسان في عصرنا الحاضر من تكاثر وحشع أدّيا إلى تخريب البيئة على مستوى الكرة الأرضية، وبحيث أصبح "النمو الاقتصادي" مقياساً وحيداً لتقدم الأفراد والأمم ممّا جرّ الويلات على البيئة العالمية من الناحيتين الاجتماعية والطبيعية، والتكاثر ينطبق على الإنسان بشقيه الفردي والاجتماعي مما أفقد حياة الفرد والمجتمعات كل قيمها الأخلاقية والروحية: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر ١٠٢/٢].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

التكاثر بذل الجهد للحصول على المزيد، وفي هذه الحالة هو تكاثر بالعدد والثروة والسلطة والجاه، فمنها ما هو ملموس ومنها ما هو وهم، فالإنسان

ينهمك في زيادة النسل أوالجري وراء مادية الدنيا ووسائل الراحة ومزيد من التسلط على بني جنسه، بل هو منهمك بالتأثير في الطبيعة سلباً من خلال جهله، أو من خلال تقدمه الهائل في العلوم والتقانة وما يلحق الطبيعة بالتالي من تخريب وتلوث، مثل هذا الانهماك في التكاثر يلهي الإنسان عما سوى ذلك من أالجوانب الروحية والأخلاقية في حياته: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ (١)

حتى تنقضي حياتُه الدنيوية كلها على هذا النمط: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ (٢) وقوله ﴿زرتم﴾ لأن المقابر ليست مستقراً نهائياً إذ لا يلبث الأموات أن يغادروها إلى الحياة الآخرة،

والنتيجة أن جري الفرد والمجتمعات وراء السعادة المادية الوهمية و"النمو الاقتصادي" المطلق بلا ضوابط ولا حدود ينتج عنه تفسخ البيئة والمجتمعات: ﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ (٣-٦) فالجحيم المشار إليه قد يكون جحيم الدنيا قبل الآخرة مما نشاهده الآن من تفسخ القيم والمجتمعات والتلويث المتسارع للبيئة والأنهار والهواء وشح موارد المياه وتغير المناخ وذوبان الجليد في القطبين مما لم يسبق له مثيل،

أما الجحيم الحقيقي فيراه في الآخرة -على وجه اليقين- الذين ألهاهم التكاثر في الدنيا: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ (٧)

فنتيجة سوء استخدام نعم الحياة الدنيا يسبّب المكثرون لأنفسهم ما يستحقون من عذاب الآخرة: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (٨).

سورة العصر -١٠٣-

مكية

من أوائل السور المكية.

ارتباط السورة بما قبلها

في سورة التكاثر أن الأكثرين يُمضون حياتَهم في التكاثر: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر ١٠٢/١]، وفي هذه السورة أنّهم رغم ذلك في حالة من الخسران الشديد: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر ١٠٣/١-٢]،

محور السورة

كل يوم ينقضي من حياة المرء بلا عمل صالح خسارة محققة لا يمكن استعادتها، وفي الحديث: "نعمتان مغبونٌ فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ" رواه البخاري وغيره،

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

العصر غير الدهر كما ذكر الرازي، فالدهر يعني الزمن اللامتناهي بلا بداية ولا نهاية أي الزمن المطلق، أما العصر فهو الوقت الذي نقيسُه بالسنين والشهور

ينقضي من الأعمار فلا يمكن استعادة ما انقضى منه، فكل يوم ينقضي هو خسارة تَهدُم من عمر الإنسان لا تعود: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ (١-٢)

غير أنه يستثنى من ذلك المؤمنون الذين يستفيدون من الوقت في إنجاز الأعمال الصالحة: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فالإيمان ليس مجرد ترقٍّ في فكر الإنسان إن لم يتجاوزه إلى الانشغال في العمل الصالح ومن ذلك طلب العلم ونشره، والدعوة للإسلام بالقدوة الحسنة، والدفاع عن المؤمنين ضد الاضطهاد، ومساعدة الضعفاء والمستضعفين، والإنفاق في وجوه الخير، وإقام الصلاة، وغيره، وهكذا يصبح الإيمان ملاذاً للفرد وإنْ تعرض للاضطهاد والأخطار والابتلاء، وكل ذلك يستلزم الصبر وأن يحب المؤمن لغيره ما يحب لنفسه: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (٣).

سورة الهُمَزَة -١٠٤-

مكية

نزلت في وقت مبكر من الفترة المكية.

ارتباط السورة بما قبلها

ذكرت سورة العصر الخاسرين أعمارهم من الناس: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر ١٠٣/١-٢]، ثم تبين هذه السورة وجوهاً من هذه الخسارة كالنميمة وجمع المال لِذاته: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾ [الهمزة ١٠٤/١-٢].

محور السورة

تدين السورة الذين يمشون بين الناس بالنميمة، ويستنبطون عيوب الغير حقيقيةً كانت أم وهمية فيطعنون فيهم حسداً وحقداً، وينشغلون بتكديس المال فتستولي عليهم الغفلة وطول الأمل، وفي حين يظنّون أنهم يعدّون أنفسهم لنوائب الأيام فإنهم بالنتيجة يحطِمون أنفسهم.

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

تبدأ السورة بإدانة مَن ينشغل بإيقاع الأذى في الآخرين بتتبّع عيوبهم بالهمز واللمز-سواء كانت هذه العيوب حقيقية أم وهمية- ويمشي بين الناس بالنميمة، وقالوا الهُمَزة: المستغيب غيره الطاعن فيه بغير حق، والعائب له بما ليس بعيب، واللُمَزة: الذي يعيب جليسَه بسوء لفظه، والأصل فيهما الطعن بالغير وإظهار العيب حقيقياً كان أم وهمياً بنتيجة الحسد والحقد: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ (١)

ومن صفات أمثال هؤلاء أن يكون مادياً متهالكاً على جمع المال وتعداده أو يحسبه عدّةً وذخيرة لنوائب الدهر: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾ (٢)

حتى يصبح تكديس المال عنده هدفاً بذاته فيطول أمله وتزداد غفلته: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ (٣)

في حين أنه على النقيض مما يتوهم من طول الأمل والإعداد للمستقبل فإنه بالنتيجة يحطم كيانه: ﴿كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾ (٤-٧)، قال الألوسي إنّ الخطاب على سبيل المجاز فالنار تطّلع على الأفئدة التي هي مقر الذنوب فتعلم ما فيها وتجازي كلاً بحسب ما يقتضيه من العذاب، وقال هو كناية عن العذاب الروحاني الذي هو أشد أنواع العذاب: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤصَدَةٌ﴾ (٨)، أي مطبقة ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ (٩)، لا يستطيعون منها فكاكاً.

سورة الفيل -١٠٥-

مكية

من أوائل السور المكية.

الخلفية التاريخية

كان أبرهة الأشرم يحكم اليمن من قِبَل نجاشي الحبشة إذ كانت اليمن تابعة للحبشة، وقد أراد أبرهة -وكان ثملاً بالسلطة متعصباً مهووساً بالمسيحية- أن يصرف أنظار العرب عن الكعبة وعن حجّهم إليها فبنى في صنعاء كنيسة مهيبة مؤمّلاً أن يؤمها العرب بدلاً من الكعبة، فلمّا فشل في تحقيق مبتغاه قرّر اجتياح مكة وهدم الكعبة بالقوة، وكان ذلك في العام ٥٧٠م، فحشد جيشاً كبيراً ضمّنه عدداً من الفيلة كانوا يستخدمونها في الحروب ممّا أرهب العرب وقتئذٍ وأذهلهم، إذ لم يسبق لهم أن شاهدوا مثل هذه الوسائل "الحربية" حتى أنهم أطلقوا على ذلك العام اسم (عام الفيل)، غير أنه في النتيجة دُمّر جيش أبرهة تدميراً تامّاً، ومات أبرهة نفسه وهو في طريق عودته إلى اليمن، والحادثة من إرهاصات النبوة لأن مولده ﷺ كان في عام الفيل.

ارتباط السورة بما قبلها

هي استمرار لسورة الهُمَزة من حيث أنها تضرب مثلاً بمَن جمع مالاً وعدّده، ويحسب أن ماله وسلطانه أخلده، مغتراً بضلاله وبطول الأمل غافلاً عن الحقيقة،

وهو في هذه الحالة أبرهة الأشرم وأتباعه، وأمثالهم كُثُر في كل عصر، من أكابر القوم وأصاغرهم.

محور السورة

إن كان الله تعالى يحمي بيته فمن باب أولى أنه يحمي دينه ليظهره على الدين كله، انظر آية [الصف ٦١/٩]، رغم تخاذل مَن يتخاذل لقوله: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام ٦/٨٩].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

تشير السورة إلى العاقبة الوخيمة التي انتهى إليها أصحاب الفيل، وهم أبرهة الأشرم وحاشيته وجيشه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ (١)

والعبرة من القصة أنّ جبروتهم وتخطيطهم وكيدهم لم يفدهم شيئاً بل كان في ضلال وضياع أدّى إلى دمارهم: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ (٢)

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ (٣-٥) واختلفوا في تفسير الطير الأبابيل التي رمت جيش أبرهة بحجارة من سجّيل فأفنته عن آخره، حين كان أهالي مكة مختبئين في الجبال دون مقاومة منهم للغزاة، وليس من شك أنّ ما حدث كان معجزة بكل ما في هذه الكلمة من معنى، ويوم تلا الرسول هذه السورة على أهل مكة حوالي السنة الثالثة من البعثة كان فيهم الكثير ممّن شهدوا تلك الواقعة إذ لم يكد ينصرم حتى مبعث الرسول سوى نيف وأربعين عاماً، فلم يعارضه أحدٌ منهم على كثرة كفار مكة ممّن كانوا يتشوقون لتكذيبه.

وبما أنه لا يوجد في القرآن الكريم أو الحديث الصحيح ما يؤيد ما ذهب إليه

المفسرون من تفصيل عن الطير الأبابيل والحجارة من سجّيل فلَنا أن نعتقد أن الطير الأبابيل أي المتفرقة قد تكون طيوراً أو حشرات طائرة نقلت إلى جيش أبرهة وباء من الأوبئة كمرض الحصبة أو الحصباء- فهي بهذا المعنى تحصبهم أي ترميهم بحجارة من سجّيل -من السجلّ- أي بما كتبه الله تعالى عليهم منذ الأزل من العقاب والفناء حتى جعلهم كعصف مأكول، والعصف: التبن إذ تعصف به الريح فتفرّقه عن الحَبّ كما في قوله تعالى: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ [الرحمن ١٢/٥٥]، والتبن إذا كان مأكولاً فقد بطُل ولا رجعة فيه ولا مِنعة، والعصف أيضاً ورق الزرع الجاف يبقى على الأرض بعد الحصاد فتعصف به الريح وتأكله المواشي فيخرج منها روثاً متفرقاً، وهكذا يكون تشبيه فلول جيش أبرهة بالعصف المأكول من بلاغة القرآن وآدابه في نفس الوقت، دون التطرق إلى التفصيل.

سورة قريش -١٠٦-

مكية

نزَلت في أوائل الفترة المكية بعد سورة التين.

ارتباط السورة بما قبلها

هي استمرار واضح لسورة الفيل المتقدّمة بأنه تعالى جعل البيت حرماً آمناً وجعل أصحاب الفيل كعصفٍ مأكول: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل ١٠٥/٣-٥]، من أجل إيلاف قريش: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش ١/١٠٦]، إذ جعل ذلك لهم إلفاً بألفونه في ما اعتادوا عليه في مكة من الاستقرار الأمني والاقتصادي.

محور السورة

جعل اللهُ تعالى لقريش حرماً آمناً في حين يُتخطّفُ الناسُ من حولهم، وجعل الناس في حالة إلف معهم في رحلتيْ تجارتهم إلى الشام وإلى اليمن لتأمين مورد رزقهم ومعاشهم، فحقّ عليهم شكر نعمه تعالى بعبادته، كما حقّ عليهم حمل رسالة الإسلام التي شرفّهم تعالى بها وبمبعث النبي الأحمد خاتم الأنبياء والرسل بين ظهرانيهم.

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطاب مستمر من ختام السورة السابقة بقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [الفيل ١٠٥/٥]، إلى بداية هذه السورة بقوله: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ (١) أي إنه تعالى جعل أبرهة وجيشه كعصفٍ مأكول من أجل إيلاف قريش،

لكي ينتظم لهم الأمن في رحلتيهم، في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، فلا يجترىء عليهم في طريقهم أحد، ويألفهم الناس لما اشتهروا به أنهم أهل حرم الله وولاة بيته: ﴿إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ (٢)

فحقّ عليهم أن يعبدوا الله تعالى الذي جعل لهم حرماً آمناً: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ (٣)

الذي هيأ لهم فرص التجارة الآمنة مع الشام واليمن انطلاقاً من بركة البيت فصارت مصدر رزقهم ومعاشهم: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (٤).

سورة الماعون -١٠٧-

مختلف في كونها مكية أم مدنية

الجمهور على أنها مكية، وقيل مدنية، وقيل نصفها مكي ونصفها مدني، فالآيات (١-٣) نزلت في أوائل الفترة المكية، والآيات (٤-٧) مدنية،

ارتباط السورة بما قبلها

بعد أن ضرب تعالى مثلاً بقصة أصحاب الفيل، وما جعله لقريش بين الناس من إيلاف، وتشريف قريش بمبعث النبي الأحمد فيها -وقد ولد بعام الفيل- فكيف يليق بها وبأمثالها التكذيب بيوم الدين، يوم القيامة والحساب، الآيات (١-٣)، أما تتمة السورة فنزلت في منافقي المدينة، وفي المنافقين في كل مكان وزمان لأنهم يصلّون نفاقاً ورياءً.

محور السورة

أساس الفضائل: الإيمان بالمسؤولية الأخلاقية تجاه الخالق، أما مَن ينكر البعث والحساب فلا يبالي أن يرتكب الشرور ويؤذي الضعفاء ويمنع المعروف: ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [١٠٧/٢-٣]، ثمّ هنالك مَن يدّعي الإيمان بالآخرة فيؤدّي الصلاة نفاقاً ورياءً: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [١٠٧/٤-٥].

النظم فى السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطاب لكل عاقل: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ (١)، والمقصود بالدين: القيامة والحساب وهو أحد معانيه، ومنه الحديث: "كما تدين تدان"، فيكون المعنى أرأيت الذي يكذّب بالحساب والجزاء؟ لأن الأصل في الشرور إنكار الحساب، وقد يأتي بالأفعال الحميدة حتى مَن يُنكر الإسلام إذا كان مقرّاً بالقيامة والحساب،

ثم بيّن تعالى -على سبيل المثال- صفتين من صفات الذي يكذّب بالدين، الأولى أنه يدفع اليتيم بعنف وجفاء عن حقه وماله، أو يعنّفه ولا يعينه: ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ (٢) وهذه الصفة من باب الفعل،

أما الصفة الثانية فهي من باب الإهمال والترك إذ يترك الحض على طعام المسكين: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ (٣) أي لا هو يطعمه ولا يحض غيره على إطعامه، وقوله ﴿طعام المسكين﴾ إشارة لأنّ ذلك الطعام حقّ للمسكين فلا يجوز الامتنان به، والخلاصة أنّ السورة تجعل تكذيب المرء بالقيامة والحساب سبباً لإقدامه على إيذاء الضعيف ومنع المعروف،

ثمّ إن من ينكر القيامة والحساب قد يؤدي الصلاة نفاقاً ورياءً: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ (٤) أي المنافقين منهم الذين يؤذون الضعفاء ويمنعون المعروف: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (٥)

لأنّ صلاتهم لا تأمرهم بالمعروف ولا تنهاهم عن المنكر: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ (٦-٧) فليس فقط أنهم يصلّون رئاء الناس، بل إنهم لخستهم ولؤمهم يمنعون أقل قدر من المعونة عن الغير، والفرق بين المنافق والمرائي أن المنافق يُظهر الإيمان ويبطن الكفر، والمرائي يُظهر ما ليس في قلبه من خشوع ليعتقد من يراه أنه متديّن.

سورة الكوثر -١٠٨-

مكية وقيل مدنية

ارتباط السورة بما قبلها

قال الرازي إنّ سورة الكوثر كالمقابلة لسورة الماعون المتقدّمة، لأنه في سورة الماعون وصف الذي ينكر الآخرة والجزاء بالبخل بقوله: ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون ١٠٧/٢-٣]، وفي مقابل ذلك قوله تعالى في سورة الكوثر: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر ١٠٨/١] أي إنّا أعطيناك الكثير فأعطِ أنت الكثير ولا تبخل.

وفي سورة الماعون وصف ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون ١٠٧/٥] بأنهم يصلّون رئاء الناس: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ [الماعون ١٠٧/٦]، وفي مقابل ذلك قولُه في سورة الكوثر: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ أي لتكن صلاتك خالصة لله دون مراءاة.

وفي سورة الماعون وصف المنافقين من المصلّين أنهم يمنعون الماعون أي يمنعون أقل قدر من المعونة للغير: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون ١٠٧/٧]، وفي مقابل ذلك قولُه تعالى في سورة الكوثر: ﴿وَانْحَرْ﴾ [الكوثر ١٠٨/٢] أي انحر الأضاحي وتصدّق بها، ثم ختم السورة: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر ١٠٨/٣] أي مَن يبغضك ويأتي بتلك الأفعال الذميمة لن يبقى من دنياه ولا لآخرته أي

أثر حميد وذلك معنى الأبتر، وأما أنت فيبقى لك الذكر الجميل في الدنيا والثواب في الآخرة.

محور السورة

الله تعالى أنعم على النبي ﷺ وعلى عباده بالخير الكثير، وعلى رأس ذلك نعمة القرآن، وعلى المؤمنين بنعمة الإسلام، فوجب عليهم الصلاة وتحمل التضحيات، حتى تكون العاقبة لهم وللإسلام، وينقطع دابر الكفر.

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطاب وإن كان في الأصل للنبي ﷺ فهو بالتالي لكل مؤمن ومؤمنة: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ (١) أي أعطيناك الخير الكثير في الدين بنعمة القرآن والإسلام، ومن نِعم الدنيا ما لا يُحصى، فلا تغتر بمال الكفار ولا تتوصل إلى حلول وسط في العقيدة معهم، فالآية وعد للنبي وللمؤمنين بالنصرة والحفظ وأن يصير أمرهم إلى الازدياد والمنعة،

فأمَرَهم بالصلاة والتضحية: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ (٢) أي لتكن صلاتك خالصة لله، بخلاف صلاة الكفار الذين يصلّون لغير الله وينحرون القرابين لغير الله وللأوثان،

ولما كانت صلاة المؤمنين وعزة الإسلام تبعث الغيظ والحسد والبغضاء لدى الكفار أضاف قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ (٣) والشنآن البغض والشانيء المبغِض، والمعنى إن مُبغضَك مقطوعٌ دابرُه، وقد تحقق ذلك بالفعل في صدر الإسلام بهزيمة أعدائه في حزيرة العرب وانتشاره بالقدوة الحسنة في مشارق الأرض ومغاربها، وهو يتحقق دوماً على قاعدة: ﴿إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد ٤٧/٧].

سورة الكافرون -١٠٩-

مكية

ارتباط السورة بما قبلها

بعد أن أنعم تعالى على عباده بالخير الكثير: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر ١/١٠٨]، والخير المطلق هو الوحي أو القرآن، وأنعم على المؤمنين بنعمة الإسلام، ووعدهم بقطع دابر مبغضيهم: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر ٣/١٠٨]، تُبيّن هذه السورة أن لا مجال للحلول الوسط مع الكفار في مجال العقيدة: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ﴾ [الكافرون ٤/١٠٩]،

كما أنّ بداية هذه السورة بقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون ١/١٠٩-٢]، ذات استمرارية مع آخر آية من سورة الكوثر: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر ٣/١٠٨]، فهي بمثابة جواب على مبغضي الإسلام الذين يظنون أنّ بإمكانهم القضاء عليه.

محور السورة

في حين لا مجال للحلول الوسط مع الكفار في شؤون العقيدة الإسلامية، فإنه لا مبرر لاضطهاد الآخرين بسبب عقائدهم، فحساب الجميع على الله وليس على العباد: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [٦/١٠٩].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

أمَرَ تعالى الرسول ﷺ وبالتالي كل مسلم بالرفض الحاسم لأي تسوية مع الكفار في شؤون العقيدة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (١) الذين تكفرون بالله أو بالتوحيد: ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (٢) من الآلهة أو الشركاء أو الوسطاء المزعومين أو الأوثان،

وبالمقابل فإنّ الكفار لا يؤمنون بالإسلام ما تمسّكوا بالقيم الزائفة التي تحجب الحقيقة عنهم: ﴿وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٣)

كما يستحيل على المسلم أن يرتد عن دينه، لا حاضراً ولا مستقبلاً، كما يظنّون ويعملون من خلال بعثاتهم التبشيرية: ﴿وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ (٤)

وليس من احتمال في دخولهم الإسلام ما استمرّوا في إخفاء الحقيقة عن أنفسهم: ﴿وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٥)

غير أن هذه الحال ليست مبرراً لاضطهاد الآخرين بسبب عقيدتهم، فما على الرسول والمؤمنين سوى البلاغ، أما الحساب فهو على الله وحده: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (٦).

سورة النصر -١١٠-

مدنية

إذا اعتبرنا المقصود بالفتح فتح مكة، فإن الفتح تم في رمضان سنة ثمان للهجرة،

وللناس في وقت نزول هذه السورة قولان: أحدهما أنّ هذه السورة نزلت بعد الفتح، سنة عشر خلال حجة الوداع، والقول الثاني: أن السورة نزلت قبل فتح مكة لأن قوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر ١/١١٠] يقتضي الاستقبال فتكون السورة من جملة معجزات القرآن الكريم في الإخبار عن الغيب.

ارتباط السورة بما قبلها

بعد أن ختمت السورة السابقة بقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون ٦/١٠٩] بمعنى أن لا إكراه في الدين وحساب الجميع على الله، افتتحت هذه السورة بقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر ١/١١٠] فهي بشارة بأن النصر سيكون للإسلام، ونظيره قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة ٣٣/٩].

محور السورة

السورة بشارة للمسلمين بفتح مكة ودخول أهالي جزيرة العرب في الإسلام، وإذا أخذنا العبرة من عموم اللفظ لا من خصوص السبب فهي بشارة بانتشار الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وأن ذلك يكون موجباً لتواضع المسلم وتسبيح الله وحمده واستغفاره، مع التوبة من الذنوب: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [٣/١١٠].

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية الأولى تشير إلى عون الله لرسوله وللمؤمنين بفتح مكة في رمضان من سنة ثمان للهجرة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (١) وقالوا إن فتح مكة هو فتح الفتوح، وإذا اعتبرنا قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فتكون الآية بشارة للمسلمين في كل زمن بالنصر والفتح على قاعدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد ٤٧/٧]،

وقد دخل أهالي جزيرة العرب بعد فتح مكة في الإسلام أفواجاً: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ (٢)، وفي (مسند أحمد) عن النبي ﷺ أنه قال: "ليبلغنّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلاّ أدخله الله هذا الدين، بعزّ عزيز أو بذلّ ذليل، عزّاً يعزّ به الإسلام، وذلاً يُذلّ به الكفر"،

غير أن انتشار الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها على هذا النحو لا ينبغي أن يدفع المسلم إلى الخيلاء والإعجاب بالنفس والتكبر، بل عليه التمسك بالتواضع والتسبيح وحمد الله على نعمائه والاستغفار من الذنوب والتوبة: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (٣)، وقوله ﴿تَوَّابًا﴾ أي يقبل التوبة من عباده لأنّ الاستغفار إنّما ينفع إذا كان مع التوبة.

سورة المسد -١١١-

مكية

من أوائل السور المكية، وهي السادسة في ترتيب النزول.

الخلفية التاريخية

أبو لهب عم الرسول ﷺ واسمه عبد العزّى ابن عبد المطّلب، وكان يكنّى أبو لهب قبل الإسلام، لتلهّب وجنتيه وإشراقهما، وامرأته أم جميل بنت حرب، أخت أبي سفيان، عمّة معاوية، كان أبو لهب وامرأته من ألد أعداء النبي ﷺ، عداوةً منبثقةً من الكبرياء والتكبّر بالثروة والجاه، وكراهيةً ما جاءت به دعوة الإسلام من التوحيد ونبذ الأوثان والمساواة بين الناس، وفي (البخاري ومسلم) أنّ النبي ﷺ صعد الصفا مرّةً في مكة وجعل ينادي الناس ليدعوهم إلى الإسلام فاجتمعوا إليه فلما سمع أبو لهب مقالتَه قال له: تبّاً لك ألهذا جمعتنا، فنزلت السورة، وهي الوحيدة في القرآن الكريم التي تسمّي أحداً من أعداء الإسلام بالاسم، وفيها إخبار بالغيب، لأن الغالبية من كفار قريش دخلوا الإسلام في نهاية المطاف، والسورة من إعجاز القرآن إذ تفيد أنّ أبا لهب لا يؤمن البتّة، وقد بقي مصرّاً على كفره حتى مات قهراً ومرَضاً في مكة بعد وقعة بدر ببضعة أيام.

ارتباط السورة بما قبلها

بعد البشارة في السورة السابقة بنصر الإسلام والمسلمين تفيد هذه السورة أن أمر المصرّين على الكفر -كما كان أمر أبي لهب- سائر إلى تباب لا محالة، والتباب الهلاك، وهذه المجانسة بين السورتين من إعجاز القرآن لأن سورة النصر مدنية من أواخر ما نزّل من السور بالمدينة وسورة أبي لهب من أوائل ما نزل بمكة، بل السادسة في ترتيب النزول، لنعلم أن ترتيب السُوَر من الله تعالى وبأمره عزّ وجلّ.

محور السورة

أنّ مقاومة الإسلام عديمة الجدوى، ومَن يقم بها ينتهِ مع جهوده إلى تباب لا محالة.

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

اليدان في اللغة كناية عن السلطة والنفوذ، والتباب الهلاك، ومنه قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (١) أي أنّ سلطة ونفوذ أبي لهب سائران إلى تباب لا محالة،

فلا تفيده ثروته ولا ما كسبه من عمله الخبيث الذي ظنّ أنه منه على شيء: ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ (٢)

بل سيلقى وبالَ أمره: ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ (٣)، وفي الآية تجانس "ذات لهب" مع "أبي لهب" لفظاً ومعنىً،

أما امرأته أم جميل فقد كانت تمشي بالنميمة: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ (٤) ويقال لِمَن يمشي بها أنه يحمل الحطب بين الناس أي يوقد بينهم العداوة

والبغضاء ويؤجج الشرور، وقالوا أيضاً المعنى على الحقيقة فقد كانت تجمع أغصان الشوك فتطرحها ليلاً في طريقه عليه الصلاة والسلام، ويحتمل المعنى أنّ ما حملت من الآثام في عداوتها للنبي كالحطب في تصييرها إلى عذاب النار: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ (٥) أي في عنقها حبل مفتول كالذي كانت تجمع به حزم الشوك، وقيل على المجاز إنه حبل عبوديتها للشر.

سورة الإخلاص -١١٢-

مكية

من أوائل السور المكية.

ارتباط السورة بما قبلها

ارتباط السورة بما قبلها من القرآن المجيد أنها تختصر العقيدة القرآنية في وصف الله تعالى وعلاقة الخلق به.

محور السورة

محورها التوحيد، وهي سورة الإخلاص لأن الإخلاص متعلق بالتوحيد، وقد ذكر الزمخشري أنها تسمى أيضاً (سورة الأساس) لاشتمالها على أصول الدين.

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

تبدأ السورة بالأمر بالإقرار بشهادة التوحيد: ﴿قُلْ هُوَ اللَّـهُ أَحَدٌ﴾ (١) وفي تفسير "من وحي القرآن" عن تفسير الميزان: "إن الأحد إنما يُطلق على ما لا يقبل الكثرة لا خارجاً ولا ذهناً، ولذلك لا يقبل العدّ ولا يدخل في العدد، بخلاف الواحد، فإنّ كل واحد له ثان وثالث إمّا خارجاً وإمّا ذهناً، بتوهّم أو

بفرض العقل، فيصير بانضمامه كثيراً، وأمّا الأحَد فكلّما فُرِض له ثانٍ كان هُوَ هُوَ لم يزد عليه شيء."

الله الصمد: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ (٢) أي السيّد المطلق المقصود في كلّ الحوائج، يحتاج إليه الخلق في كل أمورهم فيقصدونه بها ولا يقصدون غيره إلاّ من حيث إنه أداة من أدواته ووسيلة من وسائله، لأنه الخالق لهم والمدبّر لهم والمهيمن على الأمر والوجود كله،

ذَكَرَ الرازي عن الحسن البصري قوله: هُوَ الذي لم يزَل ولا يزال ولا يجوز عليه الزوال، كان ولا مكان، ولا أين ولا أوان، ولا عرش ولا كرسي، وهو الآن كما كان: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (٣) فهو الأزليّ الذي لم يسبقه العدم، ولم يسبقه وجود آخر، الغنيّ في ذاته، العليّ عن التجزئة،

وهُو الأحد المتفرّد بكل شيء لا مثيل له في صفاته الإلهية ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (٤).

سورة الفلق -١١٣-

مختلف في كونها مكية أم مدنية

ارتباط السورة بما قبلها

بعد أن أوضح القرآن الكريم مقاييس الحق والباطل والفرق بينهما بما لا يقبل اللبس، ومنه تسمية القرآن فرقاناً، وجب الاستعاذة بالله تعالى الذي أنزل الفرقان على عبده، واللجوء إليه والاعتصام به من شرور الجهل والظلمات والانحراف، وشرور اليأس والقنوط، ومن شرور المخلوقات.

محور السورة

اللجوء إليه تعالى والاعتصام به من شرور الظلمات والجهل والشك، ومن شرور المخلوقات والغاسق والساحر والحاسد.

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

الفلق الانشقاق، كانشقاق الحب والنوى عن النبات، وعن الحياة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام ٦/٩٥]، والفلق الفجر لأنه

ينشق عن ظلمة الليل كما في قوله: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام ٦/٩٦]، وهو على الحقيقة والمجاز، إذ هو أيضاً انفلاق الفجر الروحاني على الباحث عن نور الحقيقة كما في قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام ٦/١٢٢] وقد شبّه تعالى الكافر بالميت، وانفلاق فجر الهداية عليه بالإحياء، فتكون الاستعاذة برب الفلق كَمَن يبحث عن الحقيقة ونور المعرفة، وكَمَن يهتدي بها بعد فترة من الحيرة والشك والترقّب: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (١)، والاستعاذة بمعنى اللجوء إليه تعالى والاعتصام به.

ولذا وجب الاستعاذة من شر إبليس، ومن كل شر في الدنيا والآخرة: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ (٢)

والاستعاذة من شر الغسق، وهو أول ظلام الليل إذا خيّم ظلامه، وتنكيره بمعنى أن ليس كل غاسق ذا شر، وهو أيضاً على الحقيقة والمجاز، فتكون الاستعاذة مجازاً من شر اليأس والقنوط والقلق والجحود والكفر: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ (٣)

والاستعاذة من كل مساعي الشر التي قد يلجأ إليها الآخرون مستعينين بطرق غيبية، بغض النظر عن الاعتقاد بفعالية تلك المساعي من عدمه: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ (٤)، وعبارة النفاثات في العقد إشارة لما كان بعض السحرة يقومون به من ربط الخيط عقداً والنفث فيها، وفي آية البقرة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة ٢/١٠٢] ما يدل أن الساحر يأثم ويرتدّ عليه مسعاه بالسوء.

كما وجب الاستعاذة من شرور مساعي الحسّاد، لأن الحاسد الذي تشتد رغبته لإزالة نعمة الغير يجتهد في مساعي قد تكون سبباً للفساد ولأضرار اجتماعية وأخلاقية: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (٥)، رغم أن مساعي الحاسد قد يرتد ضررها عليه، وفي قول أمير المؤمنين عليّ كرم الله وجهه: "لله در الحسد ما أعدله، بدأ بصاحبه فقتله".

سورة الناس -١١٤-

مختلف في كونها مكية ام مدنية

ارتباط السورة بما قبلها

ركّزت سورة الفلق المتقدمة على الاستعاذة من شرور خارجية كظلام الجهل والشك، ومن شرور المخلوقات ومن شر الغاسق والساحر والحاسد، ثم تُكمل سورة الناس بالاستعاذة من شرور الوساوس من داخل النفس.

محور السورة

الاستعاذة من وسواس النفس الناتج من وساوس الجن والإنس، ما يجعل المرء في حيرة بين الصواب والخطأ، والحق والباطل.

النظم في السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

وحوب اللجوء إليه تعالى والاعتصام به، من حيث إنه رب الناس ومتولي أمورهم، وهو أيضاً ملكهم الحقيقي، وإلههم الأحد: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾ (١-٣)

فوجّب اللجوء إليه من شرور وساوس النفس التي تظهر وتختفي -تخنس- فتزيّن الشر للمرء وتجعله في حيرة من أمره، حتى تختلط عليه الأمور في الفارق بين الصواب والخطأ، فتزيّن له الحق باطلاً والباطل حقاً، وحتى يصاب بعمى القلب تحت تأثير شهواته وشهوانيته، وتحت تأثير القيم الزائفة التي قد يكون متمسكاً بها، وبتأثير التقليد الذي توارثه من أقرانه وآبائه: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ (٤-٦)،

وفي سورة الأنعام إشارة لشياطين الإنس والجن: ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام ٦/١١٢].

الملحق - أ-

التسلسل الزمني لبعض أحداث البعثة النبوية الشريفة المشار إليها في القرآن الكريم

١ محرم عام ١ هج = ١٦ تموز ٦٢٢م

الهجرة النبوية = ايلول ٦٢٢م

		التاريخ الهجري		التاريخ الميلادي		
	الحادثة	الإشارة القرآنية	العام	الشهر	العام	الشهر
١	مولده ﷺ	سورة الفيل	عام الفيل	الإثنين ١٢ ربيع الأول	٥٧٠	٢٠ آب
٢	بدء الوحي	العلق/١-٥	عام ١٣ ق الهجرة	الثلث الأخير من رمضان	٦١٠	آب
٤	الفرس تحطون سورية ومصر وآسيا	الروم/٢-٣			٦١٦	
٥	استماع الجن لتلاوة القرآن من قلبي	الجن/١-١٥	عام ٢ ق الهجرة		٦٢٠	
٦	الإسراء والمعراج	الإسراء/١	عام ١ ق الهجرة		٦٢١	
٧	الهجرة النبوية	الأنفال/٣٠ ، الحج/٣٩			٦٢٢	ايلول
٨	غزوة الحلة	البقرة/٢١٧	عام ١ هجرية		٦٢٣	
٩	توليه القبلة نحو المسجد الحرام	البقرة/١٤٤	عام ٢ هج	ربيع ثان	٦٢٣	تشرين
١٠	وقعة بدر	الأنفال ، آل عمران/١٣	عام ٢ هج	١٧-رمضان	٦٢٤	١٣ آذار
١١	طرد يهود بني قينقاع		عام ٢ هج	شوال	٦٢٤	آذار
١٢	وقعة أحُد	آل عمران/١٢١ ١٧٥	عام ٣ هج	١٥ شوال	٦٢٥	٣٠ آذار

		التاريخ الهجري		التاريخ الميلادي	
	الحادثة	الإشارة القرآنية	العام	الشهر	العام	الشهر
١٣	طرد يهود بني النضير	الحشر/٢-١٧	عام ٤ هجـ	ربيع أول	٦٢٥	أبريل
١٤	غزوة بني المصطلق	المنافقون ٦٣/٧-٨	عام ٥ هجـ		٦٢٦	
١٥	حادثة الإفك	النور ٢٤/١١-٢٠	عام ٥ هجـ	شعبان	٦٢٧	كانون
١٦	وقعة الخندق	الأحزاب/٩-٢٥	عام ٥ هجـ	ذي القعدة	٦٢٧	آذار/أبريل
١٧	طرد يهود بني قريظة	الأحزاب/٢٦-٢٧	عام ٥ هجـ		٦٢٧	
١٨	زواجه ﷺ من زينب بنت جحش	الأحزاب/٣٧-٤٠	عام ٥ هجـ		٦٢٧	
١٩	مجادلة امرأة للنبي ﷺ في ظهار	المجادلة/١-٤	عام ٥-٧ هجـ			
٢٠	صلح الحديبية	الفتح/١-٢٦	عام ٦ هجـ	ذي القعدة	٦٢٨	آذار
٢١	طرد يهود خيبر	الفتح/ه ١	عام ٧ هجـ		٦٢٨	
٢٢	عمرة القضاء	الفتح/٢٧	عام ٧ هجـ	ذي القعدة	٦٢٩	آذار
٢٣	امتحان المهاجرات	الممتحنة/١٠-١١	عام ٧-٨ هجـ		٦٢٩	
٢٤	غزوة مؤتة		عام ٨ هجـ	جمادى أول	٦٢٩	تشرين
٢٥	فتح مكة	الفتح/٢٧،الحديد/١٠	عام ٨ هجـ	رمضان	٦٣٠	كانون
٢٦	وقعة حنين	التوبة/٢٥-٢٦	عام ٨ هجـ	شوال	٦٣٠	شباط
٢٧	غزوة تبوك	التوبة/٣٨-١٠٦	عام ٩ هجـ	رجب	٦٣٠	تشرين
٢٨	هدم مسجد الضرار	التوبة/١٠٧ ١١٠	عام ٩ هجـ	رجب	٦٣٠	تشرين
٢٩	إنزال البراءة	براءة/١-٢٤	عام ٩ هجـ	ذي الحجة	٦٣١	آذار
٣٠	حجة الوداع	المائدة/٣	عام ١٠ هجـ	ذي الحجة	٦٣٢	آذار
٣١	وفاة النبي ﷺ		عام ١١ هجـ	ربيع أول	٦٣٢	حزيران

الملحق – ب–

أسماء الأعلام بالترتيب التاريخي

السيرة والتفسير والحديث

		الوفاة	الوفاة	
إسم العَلَم	الموضوع	(هجرية)	(ميلادية)	الخليفة المعاصر
عروة بن الزبير	المغازي	٩٣	٧١٢	عبد الملك بن مروان
وهب بن مُنَبّه	المغازي	١٠٩أو ١١٣	٧٢٨ أو ٧٣١	هشام بن عبد الملك
أبو بكر بن شهاب الزُهري	السيرة والمغازي	١٢٤	٧٤٢	هشام بن عبد الملك
موسى بن عقبة	السيرة والمغازي	١٤٠	٧٥٨	أبو جعفر المنصور
محمد ابن اسحاق	السيرة والمغازي	١٥٠	٧٦٧	أبو جعفر المنصور
أبو حنيفة	الفقه	١٥٠	٧٦٧	أبو جعفر المنصور
مالك بن أنس	الحديث (الموطأ)	١٧٩	٧٩٦	هارون الرشيد
ابن هشام	السيرة	٢١٧	٨٣٢	الرشيد – المأمون
الطيالسي	الحديث	٢٠٤	٨٢٠	الرشيد – المأمون
الواقدي	المغازي	٢٠٧	٨٢٣	الرشيد – المأمون
ابن سعد	السيرة والطبقات	٢٣٠	٨٤٤	المعتصم
أحمد بن حنبل	الحديث (المسند)	٢٤١	٨٥٥	المتوكل
البخاري	الحديث (الصحيح)	٢٥٦	٨٧٠	المتوكل - المعتز
مسلم	الحديث (الصحيح)	٢٦١	٨٧٥	المتوكل – المعتز

إسم العَلَم	الموضوع	الوفاة (هجرية)	الوفاة (ميلادية)	الخليفة المعاصر
ابن ماجه	الحديث	٢٧٣ أو ٢٧٥	٨٨٦ أو ٨٨٨	المعتمد
أبو داوود	الحديث	٢٧٥	٨٨٨	المعتمد
الترمذي	الحديث	٢٧٩	٨٩٢	المعتمد
النسائي	الحديث	٣٠٣	٩١٦	المقتدر
الطبري	تاريخ -تفسير	٣١٠	٩٢٣	المقتدر
الزجاج	إعراب القرآن	٣١١	٩٢٤	المقتدر
أبو مسلم محمد بن بحر الأصفهاني	تفسير	٣٢٢	٩٣٤	المقتدر
الواحدي النيسابوري	أسباب النزول	٤٦٧	١٠٧٥	القيم
الراغب الأصفهاني	مفردات القرآن	٥٠٣	١١١٠	المستنصر
الزمخشري	تفسير	٥٣٨	١١٤٤	
الرازي	تفسير	٦٠٤	١٢٠٨	
سقوط بغداد بيد هولاكو التتار		٦٥٦	١٢٥٨	
النووي	شرح صحيح مسلم	٦٧٦	١٢٧٨	
ابن كثير	تفسير	٧٧٤	١٣٧٣	
البيضاوي	تفسير	٧٩١	١٣٨٩	
ابن خلدون	علم الاجتماع	٨٠٨	١٤٠٦	
ابن حجر العسقلاني	شرح صحيح البخاري	٨٥٢	١٤٤٨	
السيوطي	أسباب النزول	٩١٠	١٥٠٥	
الألوسي	تفسير	١٢٧٠	١٨٥٤	